من أكثر الكتب العالمية مبيعاً

لماذا يكره العالم أمريكا؟

ضياء الدين سردار
ميريل وين ديفيز

نقله إلى العربية
معين الإمام

ترجم إلى أكثر من ٢٢ لغة

مكتبة العبيكان

منتدى اقرأ الثقافي
----
www.iqra.ahlamontada.com

لماذا يكره العالم أمريكا ؟

ضياء الدين سردار

ميريل وين ديفيز

نقله إلى العربية

معين الإمام

شركة مكتبة العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

Original Title:
Why Do People Hate America?

By:
Ziauddin Sardar & Merryl Wyn Davies

Copyright © 2002, 2003 Ziauddin Sardar & Merryl Wyn Davies

ISBN 1-84046-525-5

All rights reserved. Authorized translation from English language edition
Published By:Icon Books Ltd, UK.

حقوق الطبعة العربية محفوظة لمكتبة العبيكان بالتعاقد مع آكون بوكس. المملكة المتحدة.
© مكتبة العبيكان *1426*هـ - *2005*م

المملكة العربية السعودية، طريق الملك مع تقاطع العروبة، ص.ب: *62807* الرياض *11595*

Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O.Box 62807,
Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى *1426*هـ- *2005*م
ISBN 5-705-40-9960

ⓒ **مكتبة العبيكان، *1426*هـ**
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
سردار، ضياء الدين
لماذا يكره العالم أمريكا. / ضياء الدين سردار؛ ميريل وين؛ معين الإمام. - الرياض،
*1426*هـ
432 ص؛ *14×21*سم
1- الولايات المتحدة - العلاقات الخارجية

أ. وين، ميريل (مؤلف مشارك) ب. الإمام، معين (مترجم) ج. العنوان
ديوي *327.73* *1426/903*
رقم الإيداع: *1426/903*
ردمك: 5 -705 -40 -9960

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved, No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the publishers.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تمهيد:

بعد الحرب على العراق 9

مقدمة 25

الفصل الأول:

الوقوف في نقطة الهدف 43

الفصل الثاني:

"هم" "الأشرار"، "يكرهون" "أمريكا" 87

الفصل الثالث:

أمريكا والعالم باعتباره أمريكا 129

الفصل الرابع:

شطائر "الهمبرغر" الأمريكية وغيرها من الفيروسات 209

الفصل الخامس:

القصص الأمريكية ورواية القصص لأمريكا 271

الفصل السادس:

عبء البطل الأمريكي 331

الفصل السابع:

كراهية أمريكا وتجاوز جدار الكراهية 371

الهوامش 407

المراجع 427

تمهيد

بعد الحرب على العراق

بعد الحرب على العراق، أصبح السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" أوثق صلة بموضوعه. في الحقيقة، اكتسب كتابنا بعدا عالميا منذ إصداره الأول في الرابع من تموز/ يوليو 2002. السؤال تناولته استطلاعات الرأي في مختلف أرجاء المعمورة؛ وتساءل المعلقون السياسيون وكتاب الأعمدة الصحفية في القارات الخمس عن السبب الذي جعل لحظة التعاطف العالمي مع أمريكا، بعد فظاعة أحداث الحادي عشر من سبتمبر، تتحول في خلال أقل من عامين إلى انقسام متفاقم لا يطال مواقف الرأي العام وحده بل يخترق المؤسسات الأساسية للنظام العالمي. وبوصف السؤال/ الشعار "لماذا يكره العالم أمريكا" بيانا تصريحيا بالحقائق، استخدم كصيحة تعبوية من قبل السياسيين والمعلقين من اليمين واليسار على حد سواء، وتحول إلى دعوة للتمترس والتخندق. كما خدم تسويغ حلقة تبريرية مفرغة، مستدامة ومتبادلة، من ردود الفعل. وباعتباره حقيقة مقبولة سادت على نطاق واسع، استخدم كره أمريكا لحشد

الدعم لأفعال وتصرفات ومبادرات. أو القبول بها (دون استقصاء متعمق). رسخت مشكلة أمريكا، وعقدتها، وصيّرتها أصعب على الحل، وأقل قابلية للحوار المنطقي، إضافة إلى أنها جعلت الولايات المتحدة أشد تصميما على التشبث بمسارها الذي اختارته، بغض النظر عما سببه من قلق وخوف وكراهية. وكما أشار أحد الآراء النقدية، فإن الأحداث اللاحقة "حاكت بشكل ساخر فعلا الحجة" التي قدمناها. (Future Survey, 25 (3) 12 March 2003).

باختصار، كان فعل أمريكا ورد فعلها، قبل وخلال وبعد الحرب على العراق، متطابقين مع المقدمات المنطقية التي قمنا بتحليلها باعتبارها أسبابا موجبة للقلق. أما التبعات والعواقب فيمكن قراءتها في نتائج استطلاعات الرأي العالمية. فقد وجد "مركز بيو للأبحاث المتعلقة بآراء الجمهور والصحافة" (في واشنطن) بعد عملية مسح نشرت نتائجها في حزيران/ يونيو 2003 أن "آراء الناس المؤيدة للولايات المتحدة قد تبدلت بشكل ملحوظ مقارنة بالسنة الماضية. فالحرب وسعت الصدع بين الأمريكيين والأوروبيين الغربيين، وأججت غضب العالم الإسلامي، وأضعفت الدعم للحرب على الإرهاب، وقلصت إلى حد بعيد مساندة الرأي العام العالمي للدعامات المؤسسة لحقبة

ما بعد الحرب العالمية الثانية - الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي (press.org. mailprc@people). أما الاستطلاع الذي أجرته هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) في أحد عشر بلدا بالتزامن مع مختلف المؤسسات المتخصصة في استطلاع الرأي، فقد وجد أن 60٪ من المبحوثين خارج الولايات المتحدة يتبنون مواقف سلبية أو معادية للرئيس الأمريكي. اعتبر المستفتون في كافة الدول، باستثناء استراليا وإسرائيل والولايات المتحدة، أن أمريكا أشد خطرا من سورية، وهي مرشحة محتملة للانضمام إلى "محور الشر". وأظهر الاستطلاع أيضا مواقف سلبية تجاه الحرب على الإرهاب ومساعي الولايات المتحدة في الشرق الأوسط

http://news.bbc.co.uk/1/hi/programmes/wtwta/default.stm

فيما وراء العناوين الرئيسة هنالك نتائج أشد إثارة للقلق. استطلاع المواقف العالمية الذي أجراه "مركز بيو" سابقا ونشر في آذار/ مارس 2003، وجد أن أقل من 40٪ من المبحوثين في أوروبا الغربية أيدوا انتشار الأفكار والعادات والتقاليد الأمريكية، وأن أقل من 50٪ أبدوا إعجابهم بالأفكار الأمريكية حول الديمقراطية. في أوائل عام 2003 نشرت نتائج عملية مسح لمواقف المواطنين في الاتحاد الأوروبي، حيث أظهرت تأييدا واسع النطاق في الدول الأوروبية لاقتراح يقول إن أمريكا

مسؤولة عن الإضرار بالبيئة، وهي تعمل جاهدة للإبقاء على الدول الفقيرة فقيرة.

ومما له دلالة أكبر أن استطلاع "مركز بيو" وجد أنه في السنوات القليلة السابقة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، لم يزعم سوى 30٪ من الأمريكيين اهتمامهم الشديد بأخبار دول العالم الأخرى. ولم تحدث صدمة الحادي عشر من سبتمبر أي تغيير. ففي أيلول/ سبتمبر 2002، قال حوالي 26٪ فقط من الأمريكيين الذين شملهم الاستطلاع إنهم يتابعون الأخبار العالمية "بانتباه شديد"، في حين أشار 45٪ منهم إلى أن الأحداث العالمية لا تؤثر فيهم.

في ردها على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لم تكتف أمريكا بإظهار نفسها باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة ذات القوة المفرطة، بل بوصفها أيضا واثقة بهذه القوة ومستعدة لاستخدامها كأساس لهيمنتها على العالم. وبعد إعلان الحرب على الإرهاب، خاضت أمريكا حربين تقليديتين، في أفغانستان والعراق، مستعرضة قوتها العسكرية الساحقة المريعة. لكن هاتين الحملتين كشفتا عن شيء آخر: استعداد أمريكا للجوء لقوة السلاح باعتبارها وسيلة أداتية مناسبة ومشروعة لضمان مصالحها وتعزيز أمنها. وبذلك وضعت عقيدة جديدة: الحق

بالقيام بضربة استباقية حين تعتبر أن أمنها ، وبالتالي مصالحها القومية ، معرضة للخطر. جوهر هذه العقيدة هو المعنى الحقيقي للدولة العظمى المفرطة القوة.

قدم رئيس الوزراء البريطاني توني بلير الحجة باستمرار على أن الخيار الوحيد المتاح للوقوف في وجه الدولة العظمى المفرطة القوة هو تقديم المشورة الحكيمة. لكن هذا السبيل جوبه برفض متزايد من قبل الحكومات والشعوب في مختلف أرجاء العالم. لقد قسمت عملية التعبئة للحرب ضد العراق الأمم المتحدة ، واستثارت أضخم مظاهرات مناهضة للحرب شهدها العالم في تاريخه. وبرغم كل ذلك ، تشبثت أمريكا بتصميمها العنيد على شن الحرب بمفردها إذا اقتضت الضرورة ، ودون استشارة الحكومات الحليفة المعنية (كما هو مفترض) التي مثلت بصدق رغبات الناخبين في دولها.

بدلا من الانخراط في حوار بناء ، عبرت الحكومة الأمريكية عن سخطها واستيائها. أما مقدمو البرامج الإذاعية والتلفزيونية من المحافظين الجدد النافذين فقد مضوا مسافة أبعد. إذا لعبوا دور "مدراء حلبة السيرك" لتفجير طوفان دفّاق من المشاعر الازدرائية والتحقيرية لدى عامة الناس الذين عبئوا لمقاطعة المنتجات الفرنسية والألمانية في طول أمريكا وعرضها

(على سبيل المثال، أطلق اسم "الحرية الفرنسية المقلية" على "البطاطا الفرنسية المقلية"). وإذا كان لمثال واحد أن يجسد الحالة المزاجية السائدة، فهو بيل اوريلي من شبكة "فوكس نيوز". ففي ذروة التوتر حول إصدار قرار ثان من مجلس الأمن لشرعنة الحرب على العراق، أخبر اوريلي مشاهديه أن العامل الأساسي هو الأمن، أمن عائلته، ولهذا "ليس ثمة تكافؤ أخلاقي بين الولايات المتحدة وبلجيكا". وهذه في الواقع هي الروح السائدة في الدولة العظمى المفرطة القوة منطوقة ومعلنة ومبينة في المجال العام.

لقد أثارت رغبة أمريكا الطاغية في شن الحرب عددا لا يحصى من الأسئلة حول تعاملها مع الدول الأخرى. صحيح أن نظام طالبان قد سقط في أفغانستان، لكن ليس ثمة إحصائيات تشير إلى عدد المدنيين الأبرياء الذين قتلوا وجرحوا لتحقيق ذلك الهدف الأمني. وشهد الأفغان حقبة من الفوضى ذكرتهم بالفترة التي سبقت وصول طالبان إلى الحكم، ولم يرتع الشعب الأفغاني بعهد رخيّ من الديمقراطية في ظل الدولة العظمى المفرطة القوة، بل خضع لحكم أمراء الحرب الأفغان. وبعيدا عن تخوم كابول العاصمة، بقيت البلاد تعيش في حالة من الفوضى وانعدام الأمن أعاقت أية جهود هادفة لإعادة البناء، كما أن

هنالك صعوبات هائلة تعترض وصول معونات الإغاثة إلى السكان في الأرياف.

في العراق، أعلن بسرعة عن انتهاء الأعمال الحربية، لكن لم يعرف العراقيون لا الأمن ولا الأمان ولا السلام وذلك مع استمرار فراغ السلطة الذي أدى إلى الفوضى والاضطراب. وتبين أن خطط أمريكا الهادفة لبناء الدولة العراقية تخدم في الواقع المصالح الأمريكية الاستراتيجية والاقتصادية لا رغبات الشعب العراقي. لقد أوضحت أمريكا بجلاء لا لبس فيه عزمها على خصخصة جزء كبير من الاقتصاد العراقي، مع تقديم عقود الإعمار كهدايا - دون مناقصات معلنة - للشركات الأمريكية الكبرى (العديد منها مرتبط بصلات وثيقة مع البيت الأبيض وسيده) بحيث تغلق مسبقا الخيارات المتاحة أمام أية حكومة وطنية تنبثق في العراق في نهاية المطاف.

بعيدا عن القضايا المتعلقة بالحرب والأمن القومي، يبدو أن العديد من المسائل المهمة التي قمنا باستقصائها عبر طيف واسع النطاق قد استمرت في تراكمها. وبغض النظر عما إذا تمثلت تصرفات الولايات المتحدة في حماية صناعة الفولاذ الأمريكية، أو رفض الاعتراف بالإجماع العلمي على التحذير من خطر ارتفاع حرارة الأرض، أو رفض المساهمة في إنشاء محكمة الجنايات

الدولية، أو إلغاء معاهدة تخفيض عدد الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية (ABM)، والمضي قدما في برنامج مبادرة حرب النجوم، أو استخدام سلطة الحكومة لتشجيع/ والدفاع عن مصالح منتجي ومصنعي المحاصيل المعدلة وراثيا رغم معارضة ونفور وقلق المستهلكين في أوروبا، وحتى الجياع في دول العالم الثالث الفقيرة، فإن أمريكا استمرت في ممارسة سياسة القوة والهيمنة لتحقيق مصالح قومية ذاتية وضيقة.

لا نستهدف من هذا الكتاب تهيئة الأرضية المناسبة للتشكي من أمريكا، بل تحليل مدى أهمية القضايا التي تفرق الناس، وتقديم الأسباب التي تفسر انبثاق سؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" كتعبير مترابط ومتساوق عن الصورة الذاتية لأمريكا. لا يمكن للشكوى المجردة أن تؤدي أبدا إلى حوار بناء. فالحوار والجدل مع أمريكا لا يمكن أن يكونا مسألة تنحصر بالسياسة المباشرة الواضحة المعالم، أو بمناقشة الواجبات والضرورات الأخلاقية. إذ إن للحوار سياقا يشمل الأسطورة القومية والروايات التاريخية التي تشكل الصورة الذاتية للولايات المتحدة. وقضايا الحرب، والتجارة، والسياسة الخارجية لا يمكن فهمها إلا في إطار سياقها الثقافي، بعد أن

جرى تشفيرها / وحل رموز شيفرتها على ضوء التاريخ و"الحقائق الثقافية الوطنية" للأساطير القومية الأمريكية.

الصلات كانت واضحة جلية في الخطاب الأمريكي الطنان وفي ردة الفعل خلال الفترة التحضيرية للحرب على العراق، مثلما توضحت في إعلان انتهاء الأعمال الحربية. المثال النموذجي الذي يجسد هذا الأمر هو الطعن في فرنسا والتشهير بها. ففي النشرات الإخبارية والبرامج التلفزيونية الحوارية، عبر المحاربون القدماء الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية مرارا وتكرارا عن اشمئزازهم من معارضة فرنسا لمخططات الولايات المتحدة في مجلس الأمن. ومن أجل فهم الأهمية الدلالية التي نسبها هؤلاء المحاربون القدماء لميادين المعارك في أوروبا، ينبغي قراءة تحليلنا للفيلم السينمائي "شين" ("Shane"). إذ إن إراقة الدم الأمريكي على الأرض الفرنسية تعتبر- من جوانب عديدة - استطالة موسعة لتلك الفكرة السينمائية الكلاسيكية عن حق المستوطنين الأوائل بالاستيلاء على الأراضي وامتلاكها، ولا تفهم إلا على أساسها. في أمريكا، تعطي إراقة الدم الشرعية لامتلاك الأرض. فالبطل يستخدم العنف ليجعل الأرض آمنة وصالحة لغرس فضائل الديمقراطية البسيطة باسم، ولصالح، المستوطنين غير القادرين على حماية أنفسهم من طغيان الخارجين على القانون.

في الحرب العالمية الثانية، وفي النسخة الأمريكية التي تعيد رواية تاريخها، حملت أمريكا أخلاقيات روايتها عن "رعاة البقر" في الغرب "الضاري" إلى حلبة الصراع في أوروبا. الفكرة الاستحواذية التي شرعنتها هذه التضحية تتمثل في الولاء والإخلاص، في نوع من الموالاة الصادقة للفضيلة الأمريكية، المصدر الحقيقي لتفوق الولايات المتحدة، الأساس المنطقي لها كدولة عظمى مفرطة القوة. في المعنى الدلالي العميق والحقيقي، لم يتوقع الأمريكيون مناظرات وبراهين وحججا منطقية من جانب فرنسا، بل دعما ثابتا وراسخا للسياسة الأمريكية. قوة هذه النظرة القومية المؤثرة هي مصدر عدم الفهم المتبادل بين الأمريكيين والفرنسيين. بالنسبة للأمريكيين، سياسيين ومواطنين على حد سواء، لم تكن القضية مجرد خلاف حول السياسة الاستراتيجية. بل كانت اختلافا جوهريا حول القيم، والعقيدة، والواجبات، والالتزامات المنبثقة عنها في آن معا.

المشهد المعد بكل عناية لإعلان انتهاء الأعمال الحربية في العراق، جعل هذه الصلة بروح الشعب ومزاجه العام، كما يتبديان في الثقافة الشعبية السائدة، واضحة جلية ومبتذلة سطحية في نفس الوقت. الرئيس جورج بوش استحضر تخيلات

هوليود لتوكيد ما يجب أن يعنيه هذا الانتصار. "لقد انتصرنا!" - بالنسبة لأمريكا. وفي بادرة إعجاب بأحد مشاهد الفيلم السينمائي "عيد الاستقلال"، الذي لاقى نجاحا تجاريا ساحقا، ساعد الرئيس بوش في قيادة الطائرة التي هبطت على حاملة الطائرات "ابراهام لينكولن". وخرج من الطائرة مرتديا بزة الطيار المقاتل ليعانق طاقما يرتدي أفراده أزياء مشابهة على ظهر الحاملة. تم التعرف على الصورة التخييلية فورا، وعلقت عليها وسائل الإعلام داخل أمريكا وخارجها على حد سواء.

في الفيلم، يعود الرئيس الشاب، وهو ضابط سابق في سلاح الجو، إلى الخدمة القتالية وينطلق بطائرته لقيادة قواته من أجل إنزال الهزيمة بعدو من الفضاء الخارجي، عدو شرير مطلق الشر، إلى حد يتعذر فهمه ومحاورته وإصلاحه. في سلسلة من اللقطات المدهشة في مؤثراتها الخاصة، ظهر العدو وهو يدمر بخبث حقود ناطحات السحاب في نيويورك ويفجر البيت الأبيض. ليس ثمة ضرورة لمشاهدة الفيلم - "عيد الاستقلال" - لإدراك أوجه الشبه التي دأب المكتب الصحفي في البيت الأبيض على استحضارها بحذق ومكر. من الضروري فقط أن نتذكر أن الفيلم يحكي قصة معركة نضالية يخوضها سكان الأرض وبالتالي فإن النصر كوني عالمي، كما أنه يستنتج في هذا

السياق أن الرابع من تموز / يوليو سيكون - في المستقبل - عيد استقلال العالم بأسره.

لا نحلل مثل هذه الأفلام بغرض نقدها فنيا، ولكن لتقصي ما تخبرنا به منتوجات الثقافة الشعبية الأمريكية هذه عن الصورة الذاتية لأمريكا وفهمها للعالم، إضافة إلى تحليل الروابط القائمة بين الصورة والأفكار، والتساؤل عن كيفية تأثيرها في المواقف تجاه القضايا الحاسمة المتصلة بعلاقات أمريكا العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية مع بقية دول العالم. الخطاب السياسي الأمريكي ظل مترعا بالإشارات المرجعية والاستعادات المتواصلة للأسطورة القومية والرواية التاريخية طيلة السنين التالية لأحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. والرئيس القادم من تكساس استخدم مرارا وتكرارا لغة "رعاة البقر" التي شاعت في الغرب "الضاري" للتعبير عن أفكاره وسياسته. في مقالة ظهرت مؤخرا في مجلة "السياسة الخارجية" (Foreign Policy) بعنوان "مفارقات القومية الأمريكية" (www.foreignpolicy.com)، قدم مينكسين بي من "مؤسسة منح معهد كارنيجي للسلام العالمي" الدليل على أن أمريكا تتصف بوعي قومي قوي ومتناقض. وبحسب رأيه فإن "القومية الأمريكية مخبأة خلف حجاب. لكن حتى لو رآها

الأمريكيون رأي العين، فإنهم لا يميزونها بوصفها قومانية". فهي تقنَّع بعقيدة الفضائل والقيم الديمقراطية، وتجد التعبير عنها في الأسطورة والرواية التاريخية، وتقدم في قالب منتجات الثقافة الشعبية الأمريكية، وتصدر إلى العالم بوصفها الميراث المستقبلي لشعوبه قاطبة. وفي سبيل إيجاد الأرضية الملائمة للانخراط في حوار مع أمريكا، ينبغي أن نخضع للتحليل هذه الخاصية المميزة لقوميتها، وهذا الاستغراق الذاتي الوطني في أسطورتها وروايتها التاريخية. وبدون هذا الأسلوب التحليلي سوف يستمر سوء الفهم المتبادل بين المحاربين الأمريكيين القدماء الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية وبين عامة الشعب الفرنسي.

تخلق الثقافة الأمريكية نماذج منمطة وتصدرها إلى مختلف أرجاء العالم. لكن كما نبرهن بالحجة أيضا، لا تعتبر أمريكا سوقا مفتوحة للمنتجات الثقافية للدول الأخرى. فمن السهل بناء نموذج نمطي لأمريكا بوصفها أمة متعصبة منعزلة ومستغرقة في شؤونها الذاتية على امتداد قارتها، ولا تعلم سوى القليل، أو لا تعلم شيئا على الإطلاق، عن دول العالم الأخرى. لقد تمثلت إحدى الاستجابات الأمريكية المتطرفة لانتقاد ومعارضة الحرب على العراق في القول: "لا يهم! أنا لا آبه بما يفكر به العالم".

لكن، وكما نحاول أن نوضح في هذا الكتاب، لا يمكن اختزال أمريكا وحصرها في إطار مثل هذا النموذج النمطي المبسط. فقد شهدت حوارا ونقاشا، واختلافا في الرأي، وانتقادا لدورها وأنشطتها في الخارج. حركة السلام نشطت في أمريكا كحالها في أوروبا وغيرها خلال فترة التحضير للحرب على العراق. وليس ثمة نقص في أعداد المنتقدين الأمريكيين لأمريكا، وسياستها، وأفعالها، وأساطيرها الخرافية المستدامة. المشكلة تتمثل في مدى تهميش وتغييب هؤلاء عن التيار الرئيس للخطاب الأمريكي، وتلك حقيقة أخرى مخبأة وراء سترها. ولربما يكون أشد تأثيرات صدمة الحادي عشر من سبتمبر إثارة للقلق تضييق نطاق أفق الحوار الوطني المحدود أصلا، بالتزامن مع الرقابة الذاتية التي تبنتها وسائل الإعلام الأمريكية وأقرت بها. دان راذر، مقدم نشرات الأخبار العريق في محطة "سي بي اس" (CBS)، اعترف بذلك، ولكن في مقابلة أجريت معه في بريطانيا. خلال الحرب على العراق، بدا في بعض الأحيان وكأن المشاهدين الأمريكيين والبريطانيين يرون/ ويسمعون عن حرب أخرى. كانوا يشاهدون بالتأكيد "سلما" آخر. كان بمقدور البريطانيين أن يتابعوا بانتظام شبكات التلفزة الأمريكية الثلاث عبر البث الفضائي، إضافة إلى شبكتين إخباريتين ("كبليتين") تبثان لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم. أما

الأمريكيون فلم تتح لهم معرفة كيف تبدو أمريكا أو العالم أمام شعوب الأمم الأخرى. كما أن الأسئلة التي طرحتها وسائل الإعلام البريطانية بشكل روتيني حول الحرب والتقدم الذي حققه "السلام"، كانت غائبة عموما عن البرامج الإخبارية في شبكات التلفزة الأمريكية. والمفارقة أن المجتمع المفتوح الذي يتمتع بأقوى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمطبوعة في العالم عانى من حرمان شديد من التقارير الإخبارية النقدية والاستقصائية. إن إيجاد سبل جديدة داعمة للحوار بين مختلف الأمم ليس مسألة تتعلق بمغالبة ما دعوناه بـ"المعرفة الجاهلة" فقط، لكنه قضية تتصل أيضا بتصحيح المعلومات الناقصة والمشوهة والمحرفة.

نستهدف في هذا الكتاب تقديم الحجة التي تثبت أن الكراهية هي أسوأ الأسس الممكنة لإقامة العلاقات بين البشر عموما والأمم على وجه الخصوص. والرأي الذي نكافح جاهدين من أجله هو أن الكراهية تجرد كل البشر من صفاتهم الإنسانية وتجعل حل كافة المشكلات أشد صعوبة. الكراهية لا تكون أبدا طريقا بسيطا أحادي الاتجاه. إنها حالة علائقية تفاعلية. فهي تؤثر في كيفية تشكل الأحكام المنطقية المتعلقة بماهية التصرفات والأفعال المناسبة، والمسوغة، والمسموح بها من

قبل الطرفين اللذين يباعد بينهما جدار الشك والارتياب وانعدام الثقة المتبادلة. ويمكن أن تصبح حلقة مفرغة مستدامة من ردات الفعل الدفاعية، نبوءة تشبع ذاتها وتؤكد نفسها باستمرار.

لكل ذلك، نحن بحاجة لتجاوز تخوم الكراهية. مشكلة أمريكا هي مشكلتنا جميعا. والعثور على جواب شاف يعتمد على توضيح وجلاء طبيعة وشروط وظروف وأبعاد المشكلة، بحيث يمكن لقواعد تأسيسية جديدة للحوار والاختلاف في الرأي أن تجسّر الهوة الفاصلة بين أمريكا وباقي دول العالم. ومثلما أظهرت الحرب على العراق، فإن الأسئلة التي أثرناها والقضايا التي أخضعناها للبحث والتحليل في هذا الكتاب قد غدت أشد إلحاحا وأوثق صلة بموضوعها. أملنا أن نستفيد جميعا في أحداث المستقبل من التحليلات والبراهين والحجج التي قدمناها للعثور على حلول عملية وعلاجات ناجعة ممكنة التحقيق، ووضع القواعد المؤسسة لعالم يسوده السلام حقا.

ضياء الدين سردار

مريل وين ديفيز

مقدمة

حين خيمت سحابة الغبار على منهاتن في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، خرجت من العتمة الكثيبة المحيطة بالبرجين التوأمين امرأة مجهولة، مذهولة بعارض "صدمة القذائف". لم تقل لمراسل إحدى محطات التلفزة المنتظر هناك "لماذا؟"، وهو تساؤل بسيط قد يعبر عن عدم فهم ما حدث، بل طرحت سؤالا مركزا وموجعا ومثيرا: "لماذا يكرهوننا؟". سرعان ما ذاعت كلماتها لتغدو مضغة في كل فم. رددها الرئيس بوش، والسياسيون، والمعلقون، وظهرت في الصحف والمجلات، وتكررت مرارا في محطات الإذاعة والتلفزيون، وتناقلها الناس في الشوارع والبيوت في طول أمريكا وعرضها. كما طرح السؤال نفسه في كافة أرجاء العالم خارج الولايات المتحدة.

طرأ تحول ماكر على هذه الكلمات نتيجة تكرارها المتواصل. السؤال اكتسب مرتبة الحقيقة الواقعية، صفة البيان التصريحي الذي يمكن افتراض معناه الدلالي، بدل أن يشكل قاعدة مؤسسة للبحث والتقصي. الحاجة لمعرفة السبب تحولت إلى سبب يحول دون المعرفة.

في نيسان/أبريل 2002، ألقى روبرت فيسك، المراسل الصحفي البريطاني الخبير بشؤون الشرق الأوسط، سلسلة من المحاضرات خلال جولة له في أمريكا. اختار فيسك، المعروف بانتقاده الصريح لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، عنوانا تعمد أن يكون مستفزا لمحاضراته: "الحادي عشر من سبتمبر: اسأل من فعلها، لكن بحق السماء لا تسألنّ عن السبب". ولأول مرة مذ بدأ فيسك يلقي مثل هذه المحاضرات قبل عقد من السنين، صدم حين اكتشف أن الحاضرين الذين اكتظت بهم القاعات قد عبروا عن "رفض أمريكي جديد واستثنائي للقبول بالخط الرسمي [السياسة الحكومة]، علاوة على تنامي وعي إدراكي غاضب لدى الأمريكيين بأنهم كانوا ضحية للكذب والخداع"[1]. ويشير إلى أنه لم يحدث أبدا من قبل أن سأله الأمريكيون: "كيف يمكن أن نجعل صحافتنا تتعامل مع الشرق الأوسط بنزاهة؟"، أو (وهذا أمر أشد إثارة للاهتمام): "كيف نجعل حكومتنا تعكس آراءنا؟". أحد ضباط البحرية المتقاعدين روى تجربته الشخصية في حرب عام 1973 في الشرق الأوسط، قبل أن يعلق على موضوع الاجتياح الإسرائيلي لأراضي السلطة الفلسطينية عام 2002: "حين أشاهد على شاشة التلفزيون طائراتنا ودباباتنا تستخدم لمهاجمة الفلسطينيين أستطيع أن أفهم لماذا يكره العالمُ الأمريكان"[2].

لسوف نركز على السؤال - "لماذا يكره العالم أمريكا؟" - باعتباره سؤالا استفهاميا لا بيانا تصريحيا، ونتفحص أطره المرجعية، ونعتبره صادقا وجادا وموضوعيا يدل على فجوة في الاتصال والتواصل، ونقص في المعلومات والمعطيات.

الكتاب لا يتمحور حول اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر؛ ولا يتحرى الفعل الذي انبثق عنها. لكن الحدث الجلل المريع هو الذي استحثنا على تأليفه وأثار اهتمامنا بفهم السؤال الذي نتج عن الدمار والخراب وتعرض للتجاهل والإغفال والإهمال. الكتاب لا يدور حول الحادي عشر من سبتمبر، لأن السؤال الذي أفرزته تلك الأحداث المرعبة يتطلب استقصاء المشكلات الموجودة قبل هذه الجريمة، مشكلات كانت ستستمر بغض النظر عن حدوثها. صحيح أنها تفاقمت وتضاعفت وأصبحت أكثر إلحاحا وتفجرا، إلا أن جزءا من السبب يعود إلى أن هذه الأحداث لم تحفز تقصيا دؤوبا وحوارا جادا، بل عودة إلى نفس برنامج العمل الذي خلق أصلا مشكلة العلاقات بين أمريكا وباقي العالم. لقد حولنا انتباهنا إلى الخلفية والسياق، لا من أجل التهرب من مناقشة الجواب، بل لضآلة الأمل باتخاذ قرارات أكثر اعتمادا على المعرفة والمعطيات والمعلومات إذا لم يتم الكشف عن الخلفية وجعلها جزءا لا يتجزأ من النقاش.

الكتاب لا يركز أيضا على الجوانب الإيجابية في الولايات المتحدة: وعلى أولئك الباحثين عن رد عنيف ضد مشاعر الكره والبغضاء لأمريكا أن يتوقفوا عن القراءة الآن. فهو يتناول تبعات ونتائج التفاعل في عالم يعاني من تفاوت صارخ في القوة والثروة والحرية والفرص، بحيث يجب أن تؤخذ هذه العوامل بعين الاعتبار عند مناقشة كل حالة ووضع. في مثل هذا العالم الذي تتصل أجزاؤه اتصالا وثيقا مع بعضها بعضا، تشكل النوايا الطيبة والسيئة معا الشخصية المحلية للأمة، وبالتالي علاقتها ببقية دول العالم. ومن النقاط الرئيسة التي نركز عليها في هذا الكتاب أن العديد من أسوأ تأثيرات القوة الأمريكية أفرزتها تصرفات وأفعال مدفوعة بأخلص النوايا. ونتيجة لذلك، فإن عداوة بقية شعوب العالم للولايات المتحدة تبدو في نظر الأمريكيين غير قابلة للتعليل، الأمر الذي يجعل من الصعب على الأمريكيين من ذوي النوايا الحسنة التفكير بإحداث تغير مؤثر في السياسة. ركزنا جل اهتمامنا في الكتاب على تأثيرات السياسة الأمريكية، ماضيا وحاضرا، على العالم الأوسع؛ واستشهدنا بأمثلة من العالم الثالث على وجه الخصوص. هذه التأثيرات لا تثير قلق شعوب العالم الثالث وحدها، بل العديد من المواطنين في أوروبا إضافة إلى الولايات المتحدة ذاتها، مثل المحتجين المناهضين للعولمة، والحركات المطالبة بالعدالة

والسلام. لكن قدمنا البرهان على أن المقاربة الأكثر دقة وحنكة وإبداعا للسياسة الخارجية الأمريكية تعتبر أمرا جوهريا إذا ما أردنا لمشاعر العداء العالمية للولايات المتحدة ألا تنفلت من عقالها وتخرج عن حدود السيطرة. ومن خلال التحديد الواضح للأسباب التي تجعل العالم يكره أمريكا، نأمل بتبيان القضايا التي ينبغي على هذه السياسات الجديدة التعامل معها.

إن لم يكن السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" جديدا، فقد اكتسب صدى جديدا منذ أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. إذ أظهر على وجه الخصوص ذلك الانقسام الحاد بين سياسة اليمين واليسار - وهو انقسام مميز انهار تماما في تسعينيات القرن العشرين تحت تأثير "التحرر" و"العولمة". كما حمل إلى السطح تلك الأحكام المسبقة المتحيزة حول الإسلام والمسلمين والمتجذرة منذ عهود بعيدة في أعماق المجتمع الغربي عموما والأمريكي على وجه الخصوص.

استخفت وسائل الإعلام الأمريكية بالمقدمات المنطقية الأساسية للسؤال حين ناقشت أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وكما أعلنت بيفرلي بيكام في صحيفة "واشنطن غلوب" (Washington Globe)، هنالك حقيقة واحدة واضحة: "إنهم يكرهوننا، هؤلاء الناس المنتمون إلى ثقافة لا نعرفها ولا

نفهمها ولم نفكر بها أبدا حتى الآن". علاوة على أن هذا الكره لا يماثل أي كره آخر، حسبما أكدت. "لدينا أشخاص يكرهون الآخرين ويعيشون بين ظهرانينا، مجموعات برمتها من الأفراد الذين تملؤهم مشاعر الكراهية ضد السود والمثليين والكاثوليك واليهود. لكن هذا الكره الموجه إلى كافة الأمريكيين قاطبة أكبر حجما وأكثر خطرا وأشد تطرفا لأنه مستمد من الغضب الكظيم ثم المتفجر مهما كان الثمن"[3]. وكما سنرى في الفصل الأول، كانت بيكام تردد صدى الإجماع العام لدى معظم وسائل الإعلام التي غطت الحدث على جانبي المحيط الأطلسي.

لكل ذلك، فإن السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" مشحون بالمعاني الدلالية. فهو يفترض وجود كتلة صلبة صلدة صماء اسمها "أمريكا" هي هدف لمشاعر هائلة من الكراهية. كما يفترض أن الكراهية تتدفق في اتجاه واحد فقط: "هم/ الناس" هناك "يكرهون أمريكا" و"كل الأمريكان"، لكن أمريكا ذاتها كيان مطبوع على حب الخير. في الفصل الثاني نتساءل هل هنالك شيء ما في السؤال ذاته يفرز الاستقطاب. وعبر تحليل السؤال ووضعه في سياق تاريخي أوسع، نأمل بتحديد العوامل المساعدة على تقديم إجابة شافية وهادفة وذات معنى.

ومثلما أوضح روبرت فيسك، هنالك تنوع في الرأي داخل أمريكا يتجاوز ما توحي به الصورة الرسمية من التفاف حاشد حول الراية الوطنية. نحن ندرك تماما أن أمريكا ليست كتلة واحدة جامدة، وتلك حقيقة نحاول أن نعكسها في فصول هذا الكتاب، حتى حين نخضع للتحري والمساءلة صورة أمريكا الذاتية المؤسسة على ما يقترحه شعارها الوطني في إشارته إلى الاتحاد المشكل من ولايات منفصلة: "الوحدة من التعدد" (E pluribus unum). وعلى نحو مماثل، استخدمنا - عامدين متعمدين - كلمة "أمريكا" كما يستخدمها الجميع، مرارا وتكرارا، ودون تمييز أو تحيز. وعلى شاكلة "مبدأ مونرو" في القرن التاسع عشر، فإن الاستخدام اللاشعوري للفظة يعتبر كافة أرجاء الأمريكيتين بمثابة المجال الطبيعي لمصالح واحدة فقط من دولهما، أي الولايات المتحدة. أما حقيقة أن الجميع يفهمون كلمة "أمريكا" باعتبارها تشير إلى الولايات المتحدة فهي شهادة دامغة على هيمنة السلطة المؤسسة على ثروة الموارد، وقوة الاقتصاد، وتطبيقها على فكرة أمة فريدة متفردة. إن طبيعة هذه الفرادة، وكيفية تأثيرها في العالم الأوسع، تشكلان موضوع هذا الكتاب.

أما الاستخدام النزيه غير المتحيز للتعبير "أمريكا" من أجل تغطية العديد من الجوانب المختلفة لنفوذ وتأثير الولايات المتحدة والعمليات التي تقوم بها في العالم فهو انعكاس لما دعوناه بـ"متلازمة الهمبرغر" (hamburger syndrome)، ونعني بها ما يلي: في حين أن العالم خبر بالتجربة أمريكا من خلال العديد من القنوات المختلفة والمتباينة - السياسة الخارجية، الأعمال الحربية، العمليات الاستخبارية، وسائل الإعلام، المنتجات الثقافية والاستهلاكية وتلك المتصلة بأسلوب الحياة، الشركات التجارية، وكالات المعونات والمنظمات غير الحكومية، المؤسسات التعليمية - إلا أنها جميعا ترتبط بعلاقات متجانسة ومتبادلة فيما بينها. فشطيرة "الهمبرغر" تأتي ضمن "صفقة" شمولية: فهي وجبة طعام في حد ذاتها؛ تنتج، وتباع، وتؤكل بطريقة خاصة؛ والنظام بأكمله جزء لا يتجزأ من تجربة "الهمبرغر". ولا يمكن أن تقبل جزءا وترفض آخر. فلربما تقرر أن "ترمي" المخلل، أو الطماطم، أو الخس من الشطيرة، لكن يجب عليك أولا أن تشتريها كلها وتدفع ثمن كافة مكوناتها دون استثناء، بغض النظر عما إذا كنت تستسيغ مذاق بعضها أم تعافه نفسك.

تشكل أمريكا - في تصرفاتها وأفعالها وتأثيرها في شعوب العالم الأخرى - كلا مترابطا ومتجانسا إلى حد هائل. وفي كل مكان يسافر إليه الأمريكان يحملون في ركابهم هذا الكل المعقد ويعملون ضمن إطار مرجعيته. وإذا ما فشل العالم في التمييز بين الجوانب والملامح المختلفة لأمريكا، فإنه لا يفعل أكثر مما ألحت أمريكا عليه. في الفصلين الثالث والرابع، نواجه هذه المسألة بصورة مباشرة. ومن خلال تفحص وسبر السياسة الأمريكية على الصعيدين الخارجي والاقتصادي، وتعاملها مع باقي دول العالم في الأمم المتحدة، وهيمنتها على المؤسسات العالمية، مثل صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، وعلاقتها مع الدول النامية خلال العقود الخمسة الأخيرة، نستكشف الأسس المنطقي لمخاوف العالم وقلقه من أمريكا. علاوة على ذلك، نقوم باستقصاء الطريقة التي تم من خلالها بيع وتسويق "الماركة المسجلة" المسماة "أمريكا" في بقية أرجاء العالم، وعواقب وتبعات عولمة الثقافة الأمريكية بالنسبة للدول النامية.

لا يدرك معظم الأمريكيين مدى تأثير ثقافتهم وسياسات حكومتهم في دول وشعوب العالم الأخرى. لكن الأهم من ذلك أن الغالبية الساحقة منهم لا يعتقدون بأن أمريكا قد ارتكبت،

أو يمكـن أن ترتكـب، أي خطـأ. وكشـف اسـتطلاع "للـرأي بزعماء العالم"، في السياسة والإعلام والتجارة والثقافة والحكم أجـرته صـحيفة "انترناشـنال هيرالـد تريبيـون" (International Herald Tribune) الصـادرة في باريس، عـن أن غالبية المستفتين مـن غير الأمريكيين (58٪) يشعرون بأن سياسات واشنطن تعتبر "سـببا رئيسـا" في إثـارة مشـاعر السـخط والغضـب ضـد الولايـات المتحدة. وذلـك في مقـابل نسـبة لم تـتجاوز 18٪ مـن الأمريكـيين الذين يضعون اللوم على سياسات حكومتهم. إضافة إلى أن 90٪ مـن الأمريكـيين يعتـبرون أن قـوة بلادهـم وثـروتها همـا السـبب الرئـيس وراء كـره العـالم لهـم، في حـين تعتقد الأغلبية السـاحقة مـن غـير الأمريكـيين أن الولايات المتحدة تتحمل مسـؤولية الهـوة الفاصـلة بـين أغنـياء العـالم وفقـرائه. وأشـار الاسـتطلاع إلى أن "معظـم شـعوب العـالم تـرى الهجمـات باعتبارهـا أمـارة رمـزية دالـة عـلى الاسـتقطاب المريـر المـتزايد بـين الأغنـياء والفقـراء"؛ وأن أمـريكا مسـؤولة عمومـا عـن "ضـياع الفرصـة مـن الـدول النامـية للحصول على مكاسب التقدم الاقتصادي"[(4)].

لمَ تتباين مدركات الأمريكيين وغير الأمريكيين إلى هذه الدرجة؟ لمَ تحظـى افتراضات البراءة والاعتقاد بالتفوق الأخلاقي للـذات بهـذه المكانـة المحورية في الصـورة الذاتـية لأمـريكا؟ في

الفصلين الخامس والسادس نحدد موقع صورة الذات الأمريكية في رواياتها التاريخية والأساطير المؤسسة لأمريكا؛ وفي فكرة البطل الأمريكي الذي "يفعل ما ينبغي على الإنسان أن يفعله" على حد تعبير الممثل السينمائي جون واين. وهنا، نقدم الحجة على أن التعاريف عبارة عن تعابير علائقية، وأن صورتنا لذاتنا تشمل - وتعتمد في جزء منها على - نظرتنا للآخر. هذه الطبيعة العلائقية لأمريكا هي التي تهمنا بشكل خاص. إن فكرة أمريكا (أمريكا كفكرة)، وصورتها الذاتية، وإحساسها بالهوية، بكل فرادتها، ظلت على الدوام أقل اهتماما بالتاريخ مقارنة برؤية المستقبل التي تتطلب أسلوبا خاصا للتصرف والفعل في الحاضر. ونحن هنا نركز اهتماما خاصا على حقيقة أن نظرة أمريكا المؤمثلة لمستقبل البشر تسمح بظهور انفصال فصامي مشوه، وخطر، ووحشي، ومدمر في أغلب الأحوال، بين الغايات والوسائل. إن تحديد وتعريف فكرة أمريكا باعتبارها "المستقبل" (بألف ولام التعريف)، مستقبل كل البشر، هما في الواقع إنكار متغطرس لحرية الآخر، ورفض متكبر للقدرة الكامنة في الحاضر على خلق سبل مستقبلية بديلة أمام الصورة المعقدة للعالم برمته وشعوبه قاطبة.

لا يوجد مجتمع أكثر انفتاحا من المجتمع الأمريكي، الذي يرتع في نعمة وسائل الاتصال المتاحة، ومصادر المعرفة والتعلم الوفيرة، وحرية التعبير عن الأفكار وابتكارها. ولكن منتَج هذه البنية التحتية الأمريكية العملاقة - وسائل الإعلام - مركز إلى حد بعيد على الداخل ومستغرق في شؤون الذات. العالم أيضا يعرف أمريكا ويختبرها من خلال وسائل إعلامها، خصوصا هوليود التي صاغ أعمالها الوعي الأمريكي ووجهة النظر الأمريكية. لقد أصبحت السينما والتلفزيون اليوم، إضافة إلى وسائل الإعلام الأخرى، أدوات التمثيل (representation) الرئيسة التي يفكر العالم من خلالها - أو لا يفكر بسببها في أغلب الحالات! - ويدرك ويرى ويلاحظ. ولذلك لا نعتذر عن تضمين معظم تحليلاتنا في الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية، نظرا لأن الفهم المتعمق لسؤالنا المركزي يدعونا لتجاوز السياسة التقليدية، ومعاينة القيود الثقافية والتمثيلية التي تعيق حركة العالم. وقوة وسائل الإعلام الأمريكية، كما نحاجج مرارا وتكرارا، تشتغل لإبقاء ذهن الشعب الأمريكي مغلقا أمام تجارب وأفكار العالم، وبالتالي زيادة الانعزال، والاستغراق في شؤون الذات، والجهل، وهذا يمثل المشكلة الطاغية التي يعاني منها العالم مع أمريكا وتتعرض للتجاهل والإهمال.

أمريكا هي ما دعوناه بـ"الدولة المفرطة القوة" ـ أي الأمة التي بلغت من القوة مبلغا يؤثر في حياة الناس في كل مكان. لكن هناك عوائق تحول بين الأمريكيين وبين معرفة ومناقشة التبعات الفعلية لعلاقة دولتهم مع العالم. مرة بعد أخرى، كرر المواطنون الأمريكيون العاديون في الاجتماعات الانتخابية المتلفزة في البلدات والمدن بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الإقرار بهذه الحقيقة. القوة بدون التحكم الديمقراطي والمراقبة والإشراف المعتمدين على المعرفة والمعلومات الصحيحة تفتقد المسؤولية وغير جديرة بالثقة. ولا تكون تعبيرا عن "الحق"، بل قد تصبح "وصفة" للتواطؤ على "الباطل" والتستر على الأخطاء والخطايا التي ترتكب باسم المواطن، وبدون موافقته، وضد حكمه الصائب الحصيف حين يعطى الفرصة للتفكير الهادئ الرزين.

سببت أحداث الحادي عشر من سبتمبر صدمة مروعة للروح الأمريكية. فقد أفرزت عددا لا يحصى من المبادرات في المؤسسات التعليمية والتربوية على كافة مستويات النظام التعليمي في الولايات المتحدة. من بين الحجج والأدلة المحورية التي نقدمها أن مشكلة المعرفة تكمن في صميم العلاقات الإشكالية بين أمريكا والعالم. وبتعبير أكثر دقة، ندعو هذه المشكلة بـ"المعرفة الجاهلة": معرفة الناس، والأفكار،

والحضارات، والأديان، والتاريخ ضمن إطار مغاير للحقيقة، بل يستحيل أن يكوّنها، والتشبث بالأفكار الراسخة ضمن هذا الإطار حتى حين تتوفر الوسائل لمعرفة الحقيقة بشكل مختلف. المعرفة الجاهلة تعبير يمكن تطبيقه على نظرة الغرب للإسلام والمسلمين على وجه الخصوص. وهي تشير إلى أكثر من مجرد الأفكار والمواقف السلبية العمومية؛ إذ تحدد وتعرف الطريقة التي تبني عبرها هذه المواقف لتغدو مقاربة للمعرفة، فرعا دراسيا ومعرفيا يدعى الاستشراق.

مشكلة المعرفة هذه ليست مقتصرة على أمريكا حصرا؛ فهي ملمح عام من ملامح الحضارة الغربية، ولها أصول ضاربة الجذور في عمق التاريخ. فالمصادر التي يتحول إليها الغرب ويعتبرها بمثابة مناهل لمعرفة "الآخر" اللاغربي. الرأي القائم على المعرفة والعلم والدليل المعرفي. تمثل مشكلة في حد ذاتها. وبالنسبة للولايات المتحدة، فإن أفكارها الذاتية وتاريخها الخاص هما المقياس المعياري الوحيد لما هو منطقي، أو طبيعي، أو مناسب، الأمر الذي يعني أن أمريكا "تبني وتركب" ما تعرفه عن الثقافات الأخرى ضمن معارضة ثنوية ضدية بين "المشابه" و"المختلف". وبهذه الوسيلة، تظن أمريكا أنها أفضل من يعرف طبيعة، وشخصية، ومعنى "الآخر". لكن ما تراكم

لديها في الواقع ليس سوى حكم متحيز مؤسس على المصلحة الذاتية، وتحليل يخدم الذات، بحيث لا ينتج عن كل ذلك سوى ازدواجية في المعايير.

توضحت المعايير المزدوجة المؤسسة على المعرفة الجاهلة بكل جلاء في ردة الفعل على أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ونحن نبرهن بالأدلة على ضرورة التعامل مع مشكلة المعرفة هذه، وأن من الممكن حلها عن طريق إرجاء الحكم على الآخرين إلى ما بعد الاستماع لما سيقولونه عن أنفسهم. فضمن ثقافات الدول النامية، والمهاجرين القادمين منها إلى الغرب، هناك تنوع في الآراء، وتعددية في مذاهب التفكير، وحوارات لا حصر لها. ولا يعتبر الإسلام ولا أية حضارة لاغربية أخرى كتلة جامدة صماء. والأهم من كل ذلك أن هذه الحضارات لا تفتقد المرونة ولا تتحدد بتاريخها القديم فقط. فهي جميعا عبارة عن تقاليد تراثية حية تسعى باستمرار للتكيف مع المتغيرات والاستجابة لها، والتبدل والتطور ضمن شروطها الخاصة، وتبعا لتجربتها وقيمها وأفكارها. وحين تلعب المعرفة الجاهلة دور ديدبان البوابة لمنع دخول المعلومات الضرورية والمهمة عن حضارات العالم الثالث، بدلا من الإصغاء لما ستقوله عن نفسها، فإن من المستحيل انبثاق أي نوع من الفهم المتبادل.

لقد صاغت أمريكا رؤية عن "محور الشر"، باعتباره انحرافا ضلاليا معاديا، لا يستوطن ويختبئ ويكمن داخل حفنة من الدول فقط، بل في مجتمعات محلية وجاليات منتشرة في معظم أنحاء المعمورة. أصبح الإرهابيون عصبة واحدة بسيطة التكوين يستحيل التمييز بين أفرادها الذين جردوا من كل الصفات الإنسانية، واجتثت كافة جذورهم وسماتهم المميزة، السياسية، أو الاجتماعية، أو التاريخية، أو الثقافية. هذا النوع من الإطلاقية الكاملة يفرز نقيضه؛ فهو ينعكس في رؤية أمريكا باعتبارها هي الأخرى انحرافا ضلاليا معاديا، قوة شريرة شرسة تمارس أعمال التخريب والنهب في دول العالم الأخرى. تلك لعمري وصفة ناجعة للكارثة دون ريب. فهي القاعدة المؤسسة لأبلسة "الآخر" وتجريد العلاقات معه من ملامحها الإنسانية في عالم يزداد اتصالا مع بعضه بعضا باطراد. ولا يأتي الأمان والأمل إلا من معرفة الذات ومعرفة الآخر، وإظهار ما يعرفه الآخرون عن أنفسهم.

تمتلك أمريكا القوة والموارد الكافية لرفض تفحص أفكارها ومشاعرها ودوافعها الذاتية. والأهم من ذلك أنها أمة طورت تقليد إغفال "الاستبطان" هذا. لكن أمريكا أمة تنتج أيضا نقدا لاذعا للذات، إضافة إلى العديد من الآراء المنشقة

والمعارضة الصادرة عن الكتاب، والفنانين، والأكاديميين، والمهنيين، وحتى السياسيين، الذين كررنا الاستشهاد بهم في فصول هذا الكتاب. مشكلة العالم الآن - ومشكلة عدد كبير ومتزايد من الأمريكيين، حسبما ذكر روبرت فيسك - هي محدودية التنوع في الرأي الأمريكي الذي يعكسه الخطاب السياسي للحكومة، والكونغرس، ووسائل الإعلام. وكثيرا ما يبدو داخل الولايات المتحدة أن أصعب عنوان للجدل والحوار هو فكرة أمريكا ذاتها ومشكلاتها، ناهيك عما إذا كانت هذه الفكرة بحاجة للتعديل أو التحسين بطريقة ما. وبغض النظر عما يخلقه ذلك من إحباط في الولايات المتحدة، إلا أنه يمثل السبب الرئيس للحنق والبغضاء والعداء وحتى الكراهية فيما وراء حدود أمريكا. إن لم يكن بمقدور أمريكا تفحص افكارها ومشاعرها ودوافعها وتاريخها، وطريقة استخدامها للقوة والثروة داخل حدود الوطن وخارجها، وعواقب أسلوب الحياة الذي تتبعه، وتبعات الوفرة التي تتمتع بها، والعلاقات بين نوعية الحياة والقيم، وبين المثل العليا وتطبيقها العملي على كافة مواطنيها بدون استثناء، فما هي الفرصة المتاحة أمام العالم للدخول مع أمريكا في حوار بناء ونقاش منطقي؟

الكره لا يشكل بالطبع قاعدة انطلاق لبناء عالم يسوده الأمن والأمان. في الفصل السابع نقدم موجزا بالأسباب التي جعلت الأمريكان "أكثر شعب مكروه على وجه الأرض"، حسب تعبير إحدى اللافتات التي رفعها الباكستانيون بعد الحادي عشر من سبتمبر. كما نستكشف الطرائق التي نستطيع من خلالها - كلنا، أمريكيون وغير أمريكيين على حد سواء - أن نسمو فوق أسوار الكراهية ونعمل باتجاه مستقبل أفضل وأكثر قابلية للتحقيق.

لقد عبرنا عتبة القرن الحادي والعشرين باتجاه خطر داهم يحدق بنا، يعنّينا المزيد من الآلام والتباريح الإنسانية المروعة التي فاقت كل ما بدا ممكنا. وفي خضم كل العنف والكره المهيمنين على العالم، لا تتضح إلا حقيقة واحدة: نحن كلنا - أفراد ومجتمعات، أمريكيون وغير أمريكيين - نتحمل مسؤولية المآزق والأخطار التي تَجْبه العالم. ومن واجبنا جميعا أن نفكر، ونتصرف، ونعمل معا؛ هنالك مهمة يجب إنجازها في كل مجتمع للتخلص من مشاعر البغضاء والكراهية وبناء احتمال التعايش السلمي المشترك. نأمل بأن يشكل هذا الكتاب خطوة صغيرة نحو ذاك الاتجاه المأمول.

الفصل الأول

الوقوف في نقطة الهدف

صورة الطائرة وهي تنقض هاويةً من السماء الزرقاء الصافية، ثم تميل عند اقترابها من البرج الزجاجي المتناسق الرشيق لتخترقه وتنفجر مدوية في كرة من اللهب، أصبحت عنوانا رامزا للقرن الحادي والعشرين. شهدنا جميعا تلك اللحظة، وكل الدمار اللاحق على الهواء مباشرة. اختبر العالم بأسره كارثة الحادي عشر من سبتمبر من خلال قوة وانتشار البث التلفزيوني. اليوم، نعرف بأننا ندرك العالم المحيط بنا عبر وساطة التلفزيون - الذي غدا الآن المحطة الأولى للأخبار، والمعلومات، والترفيه في كل مكان. نحن نعيش في عالم من الصور، عالم من القصص البصرية ضمن "صفقة" شاملة تأتي إلينا، وعلينا، أنى التفتنا - على اللوحات الإعلانية، في الصحف والمجلات، على شاشات التلفزيون، في أفلام السينما - ونقرأ في الصور أكثر مما تخبرنا به. هذه الصورة التعريفية الرامزة مرعبة ومروعة وحقيقية. ولم يقلل من تأثيرها واقع أنها ارتبطت دون جهد منا في ذاكرتنا البصرية مع العديد من الصور الخيالية المصطنعة للكوارث التي شاهدناها على شاشات السينما

والتلفزيون. السؤال المهم هو ما مدى تشكل وانبناء استجابتنا لصورة الحقيقة - مساعينا الحثيثة للتوصل إلى مصالحة مع المعنى الدلالي للحدث الحقيقي - بواسطة هذه الارتباطات والتداعيات. ما هي الروابط الواصلة بين الصور الحقيقية والخيالية التي شكلت علاقاتنا مع العالم الذي نعيش فيه؟

خبرتنا الشخصية المباشرة بالعالم تبقى مقيدة محددة الإطار: الحي الذي نسكنه، المكان الذي نعمل فيه، المدارس التي يذهب إليها أولادنا، الأماكن التي نتسوق منها، أو نتعبد فيها، أو نجد الترفيه والتسلية، والوسيلة التي نتنقل بها. هذا هو عالم حياتنا اليومية المعاشة، مثلما كان بالنسبة لكل الأجيال التي سبقتنا. ما يجعل عالمنا أصغر حجما وأكثر تواصلا واتصالا ليس نوعية الحياة التي نعيشها بقدر ما هو انتشار تكنولوجيا المعلومات التي تزودنا بالتجربة البديلة (تجربة الآخرين) - أي المعرفة والأفكار المتعلقة بما يجري خارج حدود تجربتنا الفردية - وتحضرها إلى بيوتنا. لقد أصبح التلفزيون والمنتجات الثقافية التي يبثها جزءا مهما من حياتنا كتلك الأشياء التي خبرناها بواسطة الاتصال الشخصي المباشر. شعورنا بالهوية، إحساسنا بالانتماء إلى مجتمعات أوسع، تجاربنا الثقافية، معتقداتنا وآراؤنا، لا تتشكل فقط عبر الاتصالات المباشرة في حياتنا

اليومية، لكن أيضا بواسطة العالم الأوسع الذي نختبره من خلال وسائل الإعلام. حقيقة أن العالم شاهد واختبر أحداث الحادي عشر من سبتمبر عبر شاشة التلفزيون لا تمثل سوى جزء صغير من القصة. كيف تكيف الناس في كل مكان مع ذلك الحدث، واستجابوا له، وتأثروا به، وكيف تمَّ أيضا عبر وساطة المجتمع الثقافي المحلي، والتقاليد والأعراف الثقافية، والمصدر الطائفي/المجتمعي لوسائل الإعلام. التلفزيون عرض لنا الحدث؛ وأظهر لنا الطرائق التي نفكر من خلالها بما حدث.

المسلسل التلفزيوني "الجناح الغربي" (The West Wing) يجسد أفضل القيم الأمريكية الليبرالية والثقافة الديمقراطية. حصد المسلسل تسع جوائز من "أكاديمية الفنون التلفزيونية والعلوم" (EMMY) (متفوقا بذلك على أي برنامج في تاريخ التلفزيون). كما وصفته مجلة "تايم" (Time) بأنه "درس وطني بالمواطنية وعلم التربية المدنية" (علم حقوق المواطنين وواجباتهم)[1]. أحداث القصة المتواصلة تدور حول الرئيس بارتليت، الليبرالي الديمقراطي الذي يتمتع بمؤهلات مثالية خالية من العيوب والمثالب، وتعرض عالما موازيا للسياسة الأمريكية، ومرآة افتراضية تعكس الوعي الليبرالي الأمريكي. وعلى شاكلة أية إدارة حقيقية في البيت الأبيض، يكافح الرئيس بارتليت

وطاقم موظفيه ومساعديه لمغالبة المشكلات الشخصية، والفضائح، وجماعات الضغط، والمعضلات المأزقية الأخلاقية للقوة، والقضايا المحلية الداخلية، والسياسة الدولية. في الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر 2001، بعد ثلاثة أسابيع من الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن، بثت محطة "ان بي سي" (NBC) حلقة خاصة من مسلسل "الجناح الغربي". كانت الحلقة عبارة عن تصوير درامي ومحاولة إبداعية ـ بمعنى التصوير الخيالي ـ للتكيف مع الأحداث الحقيقية. لم يقحم المسلسل أحداث الحادي عشر من سبتمبر في عالمه الافتراضي بشكل مباشر، فذلك سيكون مبالغة في الابتذال. لكنه لم يكن بحاجة لذلك: نحن نعلم جميعا الموضوع الذي تدور حوله الحلقة. المهم هو الأسلوب الذي تعامل فيه المسلسل مع القضايا الملحة.

تنقلت حبكة أحداث الحلقة على محورين اثنين، فهناك مجموعة من طلاب إحدى المدارس الثانوية حوصرت في حالة التأهب الأمني حين كانت تزور البيت الأبيض ضمن برنامج تدريبي دعي بـ"الصف الدراسي الرئاسي". وجه المسؤولون أفرادها إلى "المطعم" ـ "حيث نأكل طعام الغداء" ـ المجهز بالطاولات والكراسي وبلوح أبيض لكي تكتب عليه حكمة

اليوم. المحور الثاني يدور حول أمريكي من أصل عربي يعمل موظفا في البيت الأبيض اسمه رقيم علي، اشتبه المسؤولون بوجود صلات تربطه بالإرهابيين، ولذلك سجنوه في غرفة مظلمة لاستجوابه بصورة عاجلة. وحين أُبلغ رئيس موظفي البيت الأبيض ليو مكغاري بوجود تهديد إرهابي محتمل داخل البيت الأبيض بدا منذهلا وغمغم قائلا: "حسنا.. كانت المسألة مسألة وقت أليس كذلك؟". فخطر الإرهاب كان أكثر من مجرد تهديد محتمل ـ إنه أمر محتوم لابد أن يحدث ويقتحم مركز الحياة الأمريكية، الافتراضية أو الحقيقية. وبالتوازن مع درس الحقوق المدنية، ستكون حبكة هذا الموضوع البديل بمثابة استحضار مثير وحي للاستجابة الحقيقية، مواجهة مقلقة وقوية مع العاطفة الخام الفجة.

يبدأ درس الحقوق المدنية بسؤال غير مباشر وإن اتصل قليلا بذلك الذي يفكر به الجميع. سأل أحد الطلاب جون ليمان مساعد رئيس الموظفين قائلا: "إذن.. لماذا يحاولون قتلك!". في عالم "الجناح الغربي" الموازي، تعرض ليمان في حلقة سابقة لإصابة خطيرة حين أطلق عليه مسلحون الرصاص في حفلة رئاسية خلال زيارة له إلى فرجينيا. الرؤساء موجودون دائما على خط النار، ومسلسل "الجناح الغربي" اعترف بالحقيقة عبر قصة

من جزأين افتتحت موسم عرضه الثاني حيث بثت حلقة "في ظل القاتل" في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2000. في ذلك الحادث بالذات، لم يكن الرئيس هو المستهدف بل ابنته زوي. أما سبب الاغتيال فهو أن زوي تواعد الزنجي تشارلي يونغ أحد مساعدي الرئيس بارتليت. تبين أن المسلحين أعضاء في جماعة من النازيين الجدد اسمها "فخر غرب فرجينيا البيضاء". ويبدو من الغريب نوعا ما الإشارة إلى حلقة سابقة ضمن خط الزمن الروائي حين سنشاهد عرضا خاصا صمم ليكون خارج ذلك الخط بشكل واضح. في تقاليد المسلسلات التلفزيونية، تشكل هذه الإشارات سياقا: وفي هذه الحالة بالذات يصبح سياق رعب وإرهاب. ويتصل هنا بثلاث روابط. أولا، يشير على ما يبدو إلى إمكانية أن يتخذ الإرهاب شكلا أمريكيا، ويؤكد أن الكره لا يقتصر على نوع واحد من الجماعات أو المجتمعات. على مستوى آخر، يبدو أن ذلك يتضمن التوكيد على أن مشاعر الكراهية العرقية هي الأشد خطرا وخبثا وضررا وديمومة، وتلك فكرة سنجدها في جوهر العبرة المستخلصة من الحلقة الخاصة من المسلسل. ثانيا، السياق يوفر الفرصة، من خلال الاستطراد المطول من جانب ليمان، للاعتراف بالتأثير الإنساني للعنف. وفي عالم يشعر فيه الناس بمثل هذا التحمس للشخصيات الخيالية، مقارنة بالحقيقية، يصبح السياق وسيلة لدمج وتجسيد

العواطف الوجدانية مهما بدت مبتذلة في مثل هذه الظروف. ثالثا، يحتمل أن المسلسل يرسل إلينا إشارة إيمائية واهية إلى رؤيته المستقبلية أو توكيدا على حقيقة بسيطة: للإرهاب دوما عناصره المشبوهة المعروفة. وفي الحلقة السابقة، حين كانت غرفة العمليات في البيت الأبيض تحاول جاهدة التعامل مع حادثة إطلاق النار، ذكر تقرير إخباري عن الوضع آنذاك أن مكان أسامة بن لادن غير معروف وأن هنالك قلقا من حشود لقوات الحرس الجمهوري العراقي على الجبهة.

حالما أعطيت هذه الإشارات، انتقلت الحلقة الخاصة بسرعة إلى السؤال الواضح: "لماذا يحاولون قتلك؟". وباعتباره منظم هذا الدورة الدراسية حول الحقوق المدنية، قدم ليمان الحجة على أن كافة الأمريكيين مستهدفون حتما، لكن ليس ثمة نزعة لدى "الآخرين" كلهم لممارسة العنف ضد الأمريكيين. وأصر على وجوب تعديل السؤال وتحديده. وهكذا كتب سؤال الاختبار على اللوح الأبيض: "التطرف الإسلامي بالنسبة للإسلام مثل ...... بالنسبة للمسيحية"؛ وقدم إجابته: "ك. ك. ك". وأضاف: "هذا ما نتحدث عنه - جماعة 'كلو كلوكس كلان' أصبحت متخلفة وعالمية. والمتطرف الإسلامي لا علاقة له بالمسلمين، بالملايين منهم" - بمن فيهم آلاف العاملين في القوات المسلحة الأمريكية،

والشرطة، والإطفاء. لكن المقايسة لم تخضع للدراسة والبحث والاستكشاف، الأمر الذي جعل من الصعب مساعدة أحد في فهم مصدر وطبيعة التهديد بشكل أفضل.

وهكذا أصبح السؤال المنقح والمحدد: "لماذا يحاول المتطرفون الإسلاميون قتلك؟". للسؤال وظيفة رئيسية، تتمثل في استكشاف الفوارق التي تميز ما بين "نحن" و"هم"، لأن الفروقات والاختلافات، كما يتوقع الجميع، تفسر القوة الدافعة التي تطلق الإرهاب من عقاله. إن الملامح والعناصر والمثل التي تعرف وتحدد أمريكا هي التي يقف ضدها الإرهابيون، ذلك هو الاقتراح المباشر التي تتحول إليه كل المعلومات والنقاشات الموجهة والمنظمة. وبالنسبة للطلاب في المسلسل، يتمثل الفرق المميز بين "نحن" و"هم" في مجرد "الحرية والديمقراطية".

معظم التحليلات اليمينية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر اختارت ـ دون ترو ـ العزف على هذا الوتر أيضا. على سبيل المثال، أشار ريتشارد بروكهيسر، في عموده في صحيفة "نيويورك اوبزرفر" (The New York Observer) إلى أن الإرهابيين يكرهون حقيقة أن أمريكا "قوية وخيرة"، فهي تعتبر بحق:

تجسيدا للنظام العالمي المهيمن - إمبراطورية الرأسمالية والديمقراطية. مدينة نيويورك تعتبر أيضا محورا لأحد تلك الأنظمة الفرعية، "الدينامو" المحرك المزمجر للثروة. كل إنسان في العالم ينظر إلى قسمته ونصيبه ويجد نفسه تعيسا محزونا، يتطلع إلينا - مدينة وبلدا - ويرى بديلا. فإن امتلك ذهنا طمّاحا، فقد يحاول القدوم إلينا أو تقليدنا. أما إن عانى من شعور بالظلم فسوف يلقي باللائمة علينا. لكنه إن امتلك موارد دولة معادية، أو ما يماثلها، فلسوف يحاول قتلنا.. الفاشلون في العالم يكرهوننا لأننا أقوياء، وأغنياء، وأخيار (أو على الأقل أفضل منهم). وحين يجازى هؤلاء الذين يتصرفون على أساس ذلك الكره، سنعيد بناء برجي مركز التجارة العالمية ونضيف إليهما طابقا آخر، لمجرد إغاظتهم[2].

موضوع الحسد والغيرة ظهر بقوة في معظم وسائل الإعلام اليمينية. في صحيفة "شيكاغو تريبيون" (Chicago Tribune)، وضع توماس فريدمان، الذي ابتكر تعبير "يكرهوننا" في البدايات المبكرة من عام 2001 قبل شهور من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وضع اللوم على "الحسد المحض". وأشار إلى أنه "حتى في نادي الديمقراطيات الصناعية، هنالك حنق وسخط على وضع ومكانة أمريكا باعتبارها أغنى أمة

في العالم، والقوة العظمى الوحيدة فيه، وثقافتها هي السائدة في كل أرجائه"[3]. أما مراسل مجلة "اتلانتيك مونثلي" (Atlantic Monthy) روبرت كابلان، فأعلن في إحدى محطات الإذاعة (NPR) أن جوهر المسألة يكمن في نوع من الكراهية الوجودية لحضارة الغرب الدينامية النابضة بالحياة، وتحدي الطبقة الوسطى في هذا الجزء من العالم، التي تشكل لذلك منافسا للإسلام التقليدي بطريقة لم تشكلها أية عقيدة أخرى من قبل". صحيح أن المسلمين مناهضون للشيوعية أيضا، لكنهم كما يقترح كابلان "لم يكرهوا الشيوعية أبدا، فهي نظام فاشل سقط بمثل هذه الصورة المذلة"[4]. بل إن نجاح الديمقراطية والرأسمالية في أمريكا هو مصدر الكره الحقيقي.

مما لا شك فيه أن مسلسل "الجناح الغربي" يسمو فوق هذا النوع الابتذالي من التحليلات المسطحة الساذجة. فقد اختار، كما يفعل دوما، أسلوبا مثقفا وخبيرا بشؤون الحياة والناس، لتمجيد القيم الأمريكية الإيجابية مثل الذهنية المنفتحة والتسامح، إضافة إلى القيمة الأخلاقية المفضلة لديه: التعددية. يقول ليمان للطلاب: "إنها لفكرة جيدة أن نعترف بأن لديهم بعض الشكاوى المحددة". أما "الشكاوى" التي يعددها فهي:

"الشعب الذي تدعمه أمريكا"؛ "القوات الأمريكية في الخليج"؛ "الحظر المفروض على العراق"؛ "الدعم الأمريكي لمصر". ونعلم أنه يسمع هذه الشكاوى كل يوم. ولأن بمقدورنا الافتراض بأن نائب كبير موظفي البيت الأبيض ليس على اتصال يومي مع الإرهابيين أو المتطرفين الإسلاميين، فإن هؤلاء ليسوا الوحيدين الذي يجأرون بهذه "الشكاوى". وفي هذه الحالة، لربما يكون من المناسب البدء بعملية استكشاف - تثقيفية تعليمية - لهذه القضايا، حتى وإن بدت "الشكاوى" كلمة محايدة لوصف هذه القضايا السياسية المثيرة للخلاف. قد يكون من المهم مثلا التفكير بحقيقة أن مثل تلك "الشكاوى" تأتي من العديد من المصادر المختلفة - من الأمريكيين، والأوروبيين، وشعوب وحكومات العالم الثالث - إضافة إلى المسلمين. وحين تعلن هذه "الشكاوى" على هذا النحو المتكرر، ويرددها العديد من المصادر، أفلا تسهم في خلق الإرهاب، أو توجد الظروف المناسبة لرعايته وتسهيل مهمة تجنيد أتباعه؟ لكن المسلسل يجد أن هذا السؤال لا ضرورة له البتة. إذ يكتفي ليمان بالقول للطلاب: "أعتقد أنهم على خطأ". ولذلك لا ينبغي أن يعيق ذلك درس الحقوق المدنية عن متابعة تناوله للقضايا ذات الأهمية الفعلية.

العامل الذي يفسر حقيقة الإرهابيين، ويحدد اختلافهم عنا، يتصل فقط بطبيعة وتاريخ معتقداتهم. هذا هو جوهر العبرة التي سنستخلصها. إذن ما هو التطرف الإسلامي؟ "إنه التزام حرفي صارم بتأويل تفسيري نصي محدد للشريعة الإسلامية في القرن السابع الميلادي، مثلما مارسها النبي محمد". ويضيف ليمان مؤكدا: "حين أقول 'التزام حرفي صارم' فأنا أعني ما أقول". وبقفزة واحدة، في بداية درس الحقوق المدنية، أجبرنا على الغوص في بحر من المعلومات المضللة التي تسبب ضررا خطيرا للحكم المنطقي الحصيف. فقد بشر النبي بالإسلام في القرن السابع، وفي هذه الحالة، وعبر هذا التعريف، يصبح الإرهاب متأصلا في صلب الإسلام. وإذا كان "الالتزام الحرفي الصارم بالإسلام" كما مارسه النبي محمد (سنته الشريفة) هو ما يشكل التطرف. وعلمنا قبلا أن التطرف لا علاقة له بملايين المؤمنين والمؤمنات بالإسلام. إذن ما هي بالضبط الرابطة بين هذه الملايين ودينها، أو نبيها؟ من المفترض أن هذه الملايين أقل صرامة في الالتزام بدينها. إن سنة محمد تحتل المرتبة الثانية في التشريع الإسلامي بعد القرآن، وذات أهمية جوهرية بالنسبة لكل المسلمين، الذين يهتدون بهديها ويعتبرونها نموذجا يحتذى للحياة؛ كما تزودهم بالقيم المعنوية والمبادئ الأخلاقية للإسلام، إضافة إلى تلك التفاصيل المهمة التي تبين لهم مثلا عدد

الركعات وكيفية أداء الصلاة ومواقيتها. علاوة على ذلك، فإن كافة المذاهب الفقهية الرئيسية، التي تطورت فعلا بعد القرن السابع الميلادي، إضافة إلى جميع الآراء والتفسيرات التي يتبناها المسلمون، تعتبر مؤسسة على/ وتستمد سلطتها المرجعية ومبرراتها من العقل المعتمد على النقل، أي سنة الرسول الكريم. وهكذا، يقدم إلينا المسلسل حدا تمييزيا فاصلا يؤدي إلى الفوضى والتشوش ويفقدنا القدرة على التفريق بين المتطرف الإسلامي والمسلم العادي.

في الحقيقة، وعلى الرغم من أن التحليل الليبرالي في مسلسل "الجناح الغربي" يقدم بلغة أكثر حذرا وتفهما، لكن سرعان ما يتبين لنا أنه لا يبتعد كثيرا عن وجهة النظر اليمينية حول الإسلام والمسلمين. فلغة اليمين عدائية ومتطرفة ومتشددة، كما تتبدى، مثلا، لدى كارينا رولنز كبيرة محرري "أمريكان انتربرايز" (The American Enterprise)، التي كتبت تقول: "إنها لخطيئة فادحة وخطرة، أن نقفز من حقيقة أن المسلمين كأفراد هم أناس أبرياء ومسالمون إلى فكرة أن الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها حميدة وغير خطرة". فالثقافة الإسلامية معادية للغرب جوهريا، ومترعة بالكراهية المتأصلة في صلبها: "ليس ثمة دليل يثبت أن المسلمين المقيمين في

أمـريكـا وطنـيون غـيورون بالضـرورة". وفي حـين أن تعلـيقات الرئيس بوش التي أشـار فيها إلى أن "الإسـلام ليس هو العدو"، تظل طيبة النية، إلا أنهـا "توكيدات لا أسـاس لها من الصحة". لأن "الإسـلام دين إمبريالي"؛ واليوم يقف "هذا العدو الجديد على بوابة الحضـارة"[5]. مجلة "نيوزويك" (Newsweek) طرحت سؤال الكراهية على غلافها؛ وفي الصفحات الداخلية، أشـار محـرر الشـؤون الدولـية المعـين حديـثا فـريد زكـريا إلى أن"[المسـلمين] ينتمون إلى ثقافة تقوي وتعزز ما فيهم من عدائية وكراهية وريبة تجـاه الغـرب - ولا سـيما أمـريكا. هـذه الـثقافة لا تتسـامح مـع الإرهـاب، لكنها تلهب وتثير التعصب الكامن في صلبها"[6]. أما في مجلة "انسـايت" (Insight) المحافظة فقد اقترح الصحفي الذي يكتب افتتاحية "بوسطن هيرالد" (Boston Herald) أن يـرفض "الأمريكـيون العـاديون" نسـخة الرئـيس بـوش "المسـلية عـن الإسـلام"، الـتي تقدمـه باعتـباره ديـنا مسـالما. فالإرهـاب لـيس "انحرافا ضلاليا" عن الثقافة الإسلامية بل هو "المعيار الفعلي" لها:

منذ انطلاقته من الجزيرة العربية في القرن السابع، وحتى أواخر القرن السابع عشر، تقدم الإسلام بحد السيف، لينتشر في رقعة واسعة تمتد من البرينيه إلى الفليبين. ولم يتوقف موجه الكاسح إلا على أبواب فيينا. ومنذ انحطاط السلطنة العثمانية

وحتى السبعينيات ظل مده في انحسار. واليوم ينبعث وقد قويت شوكة الإسلام من جديد، بفعل الثروة النفطية، وازدياد عدد السكان، والهجرة، والهبة الأصولية. لقد استعاض عن الفرسان الهمج المتوحشين برجال حرب العصابات، والإرهابيين، والمتدينين، والطغاة ليحملوا راياته(7).

موقف اليمين برمته أوجزته بأسلوب ناعم متقن مقالة مطولة كتبها المؤرخ العسكري فيكتور ديفيز هانسون، وأعيد نشرها مرارا بعد أن ظهرت لأول مرة في عدد فصل الشتاء من مجلة "سيتي جورنال" (City Journal) يقول هانسون: "إنهم يكرهوننا، لأن ثقافتهم متخلفة وفاسدة" ولأنهم "يحسدون قوتنا وهيبتنا ونفوذنا". أما الافتراضات العامة في الأوساط اليسارية والمتعددة الثقافات التي تشير إلى أن "هنالك بعض التكافؤ - السياسي والثقافي والعسكري - بين الغرب والعالم الإسلامي"، أو إلى أن "أمريكا ظلت تتبع سياسة قاسية وفظة تجاه الشرق الأوسط" فهي مزورة مضللة. الديمقراطية، والحكم القائم على رضا المحكومين، والدستور، والحرية، والمواطنة، تعتبر جميعا ابتكارات غربية (إغريقية ولاتينية) بالنسبة لهانسون؛ وليس لها علاقة مع بقية الأمم عموما، وأمة الإسلام على وجه الخصوص. فالمسلمون يشعرون بالغيرة من نجاح وتفوق أمريكا "اللذين لم

ينبثقا من الحظ ولا من الموارد، ولا الموروثات ولا الجغرافيا"، بل من سوقها الحر، ومجتمعها الحر، وقوتها العسكرية قبل كل شيء. هنالك هوة لا قرار لها تفصل أمريكا عن العالم الذي نعيش فيه: "هوة تدعى القوة". ويلاحظ هانسون أن "علينا أن نتذكر أن الطريقة الحربية القتالية التي اتبعها الغرب طيلة ألفين وخمسمائة سنة هي انعكاس لأفكار شديدة الاختلاف فيما يتعلق بالحرية الشخصية، والإمدادات اللوجستية، والمعركة الحاسمة، والانضباط الجماعي، والتدقيق المدني، ونشر المعرفة". فالأوروبيون، لا العثمانيون أو العرب أو الصينيون، هم الذين" استعمروا وسط وجنوب أفريقيا، وآسيا، والمحيط الهادي، والأمريكيتين ولا يعود السبب فقط إلى أن موانئهم مطلة على الأطلسي أو أنهم امتلكوا سفنا عابرة للمحيط، بل نتيجة مواقفهم وتقاليدهم التي تشبثوا بها ردحا طويلا من الزمن حول الاستقصاء العلمي، والتفكير العلماني، والأسواق الحرة، والبراعة الفردية، والتلقائية العفوية". وأضاف موجزا ما سبق:

نحن أقوياء عسكريا، والعالم العربي ضعيف ذليل، لا بسبب تفوقنا في الشجاعة، والعدد، وحاصل الذكاء، أو نتيجة وجود كمية أكبر من الخامات والمعادن النفيسة لدينا، أو الجو الأنسب، بل بسبب ثقافتنا. وحين يتعلق الأمر بالحرب، فإن مليارا

من البشر وبترول العالم كله لا يفيدان من الناحية العسكرية مثل معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، أو كلية "ويست بوينت"، أو مجلس النواب، أو سي - سبان (Span. C)[8] أو"قانون اوريلي" أو "قانون العاملين في القوات المسلحة"[9]. فما بين [ملك الفرس] احشورُس* على عرش الطاووس المشرف على سالاميس وصدام حسين الواقف على شرفته مستعرضا جنوده، وبين الإغريق وهم يتجادلون ويتحاورون قبل أن ينطلقوا مجدفين مع ثيمستكليز**، والأمريكيين ينتقدون بعضهم بعضا عشية حرب الخليج، يكمن تراث ثقافي على امتداد ألفين وخمسمائة سنة، تراث يفسر السبب الذي يجعل العالم ينقل عنا أسلحتنا، ولباسنا الموحد، وتنظيمنا العسكري، وليس العكس[10].

---

* احشورس الأول (519؟ - 465 ق.م): ملك فارسي (487-465)، حشد جيشا ضخما وهزم الإغريق ودمر أثينا. لكن بعد هزيمة أسطوله (في معركة سالاميس عام 480 ق.م) وجيشه (479)، تراجع إلى فارس، ثم اغتيل فيما بعد. (م).

** ثيميستكليز (527 - 460 ق.م): قائد عسكري وسياسي أثيني. قاد الأسطول الجديد (الذي اقنع الأثينيين ببنائه) وهزم الفرس في معركة سالاميس. (م).

بالطبع، لا يمكن لمسلسل "الجناح الغربي" أن يكون على هذا القدر من الفظاظة والتطرف الشوفيني. لكن بعد أن يحدد الفارق بين "نحن" و"هم" فيما يتعلق بجوهر الإسلام الأصيل كما افترض، فإنه لا يترك أمامنا سوى قلة قليلة من الخيارات. وهو يستخدم نظام طالبان ليضرب مثلا نموذجيا على هذا الفرق: رجال يُجبرون بالقوة على أداء الصلاة وإطالة لحاهم، ونساء يحرمن من حقهن في التعليم والعمل، ويرجمن أمام الملأ عقوبة على جرائم مثل عدم ارتداء الحجاب، إضافة إلى تحريم السينما والتلفزيون. إن جوهر الفارق المميز الذي يفصل بين "نحن" و"هم" هو افتقاد الخيار الشخصي. " ليس ثمة خطأ في دين تطلب شرائعه من أتباعه إطالة اللحى أو ارتداء الحجاب، بل عندما يصبح انتهاك هذه القوانين جريمة ضد الدولة، وليس ضد الأهل. هذا ما نعنيه بافتقاد الخيار الشخصي"، حسب ما يعلمنا به المسلسل. علاوة على ذلك، إذا كانت جماعة "كلو كلوكس كلان" توفر مقايسة دينية جيدة للمتطرفين الإسلاميين، فإن هناك مقارنة سياسية أيضا. وهنا يستشهد المسلسل بشكل مباشر برسالة واسعة الانتشار كتبها أفغاني أمريكي يدعى تميم أنصاري. المشابهة السياسية تتم هنا بين الطالبان والنازيين، ليحل الشعب الأفغاني محل اليهود في معسكرات الإبادة. إن

معارضة النازيين كانت أمرا أخلاقيا فاضلا، وبالقياس التمثيلي، لابد أن تكون الحرب على الطالبان مبررة كذلك.

ركز عدد من الكتاب اليساريين على هذه النقطة أيضا. وأشهر مثال هو الصحفي كريستوفر هيتشنز الذي استعرض هذا التوكيد بابتذال يفتقد الذكاء والحنكة. لكن المشابهة ليست مربكة وغير ملائمة فقط، بل هي سخيفة كلية أيضا. لسبب واحد، هو أن الطالبان لم يكونوا عنصريين. وفي الحقيقة، فإن المساواة العرقية مثلت معتقدا أساسيا في وجهة نظرهم. صحيح أنهم اتبعوا أيديولوجيا تطهرية متعصبة بالتأكيد، لكنها لم تكن مؤسسة على أية فلسفة مترابطة منطقيا، ناهيك عن أن تكون مفصلة ومتقنة مثل الرايخ الثالث. ولم يكن لديهم لا هايدغر ولا فاغنر. وفي حين أن نظام طالبان قمعي متطرف، إلا أنه لم يمارس التطهير العرقي ولم يرتكب مجازر جماعية، ولا ابتكر غرف الغاز. فأساليبه القمعية تركزت على شعبه فقط. كما لم ينزع إلى الهيمنة على العالم - حتى وإن سمح لابن لادن بالعمل في أفغانستان، ولربما تنازعته مثل هذه الرغبات. لا يمكن أن تصبح نازيا لمجرد أنك ترفض العالم الحديث، أو تجبر شعبك على الالتزام بمعايير سلوكية صارمة، أو التصرف بطريقة شوفينية بشكل عام. إن التشبيه

بالنازية يحقق شيئا واحدا: كبت وقمع الأسئلة ذات الصلة: من أين أتى الطالبان؟ ما هي الظروف والخلفية التي أدت إلى نجاحهم في إسقاط حكومة أفغانستان السابقة؟ لمَ قامت الأغلبية الساحقة من علماء الدين في حركة طالبان ذاتها بإدانة الهجمات على أمريكا باعتبارها محرمة في الشرع الإسلامي؟

لكن إذا مثل الطالبان كافة المتطرفين الإسلاميين، فبالقياس التمثيلي أيضا يصبح كافة المتطرفين إرهابيين. مما دفع الطلاب المجتمعين في العالم الافتراضي لمسلسل "الجناح الغربي" إلى طرح السؤال التالي: متى ارتكبت أول عملية إرهابية؟ يقال لنا إن طائفة سرية بزعامة الملا المتعصب حسن بن الصباح، ارتكبت أول عمل إرهابي في القرن الحادي عشر. إذ قام أتباعه، الذين لقنوا عدم الإيمان بشيء والتجرؤ على كل شيء، بارتكاب جرائم غادرة ضد أبناء جلدتهم المسلمين، وهم في حالة من النشوة الدينية التي استحثها الحشيش، يدغدغ أحلامهم وعد مأمول بدخول جنان الخلد. إذن، لا يعتبر التطرف مكونا أصيلا في الإسلام فقط، بل إن أول الإرهابيين كانوا من المسلمين الذين افترسوا إخوانهم المسلمين! ولذلك، يخلو تاريخ العالم قبل القرن الحادي عشر من أي نوع من الإرهاب. ما تغفله هذه الانتقائية لحقبة معينة من التاريخ هو حقيقة أن "الحشاشين"

(اشتقت الكلمة اللاتينية "Assassin" /سفاك/ من لفظة "حشاش" العربية) ظهروا في سياق الحروب الصليبية؛ واستخدموا من قبل الصليبيين وبعض الجماعات الإسلامية المتنافسة على السلطة. إن استخدام "عجوز الجبل"، كما كان يعرف حسن بن الصباح الغريب الأطوار، لفهم وتحديد أنشطة بن لادن الشائنة، هو شيء، والإيحاء بأن التاريخ الإسلامي هو أصل ومصدر القتلة والإرهابيين الرئيسيين، شيء مختلف تماما. فمن يقوم بعمليات الاغتيال يختلف عن الإرهابي؛ هنالك فرق بين التعبيرين والأفعال المتضمنة في كل منهما. فالذي يقوم بعملية الاغتيال يرتكب جريمة سياسية: يستهدف فيها ملكا أو وزيرا تعرض لظلمه. أما أول من صاغ تعبير "إرهابيين" فهو السياسي والكاتب البريطاني (الايرلندي المولد) ادموند بيرك (1729 ـ 1797)، في معرض إشارته إلى أولئك الذين مارسوا "الإرهاب" بحد المقصلة في تلك المرحلة الدموية من الحملة في سبيل الحرية والإخاء والمساواة التي عرفت باسم الثورة الفرنسية. الاغتيال جريمة ذات دوافع سياسية موجهة ضد أفراد معينين، وليست مصممة لقتل عابري السبيل والمتفرجين الأبرياء. أما الإرهاب فهو عدوان ذو دوافع سياسية، صراع حربي، يحدد طبقات وجماعات بأكملها من الناس، أو الأمم، كأعداء يتحملون المسؤولية والذنب بشكل جمعي. الإرهابي لا يعتبر ـ حسب الخطة المرسومة ـ أحدا من العدو بريئا،

فكل فرد من أفراده هدف محتمل، وإن لم يكن بالضرورة مستهدفا بالنية في كل حالة محددة.

مما لا شك فيه أن هذه الفروقات التمييزية شديدة التعقيد وبالغة العمق ليس فقط بالنسبة لمسلسل تلفزيوني، بل حتى للتحليل المعياري المقدم من قبل الكتاب اليساريين واليمينيين على حد سواء. في مناقشة مسلسل "الجناح الغربي" لقضية الإرهاب، سئل سام سيبورن، الذي يقدم إلى الطلاب باعتباره خبيرا مقيما في البيت الأبيض تخصص في هذا الموضوع، عن أكثر الأشياء التي صدمته في الإرهاب، فأجاب دون تردد: "معدل فشله البالغ 100٪". ولربما كان المقصود بالجواب تهدئة مشاعر القلق لدى الرأي العام، لكن من الصعب أن يصدق على تاريخ الإرهاب. يقول سيبورن أن معدل الفشل التام للإرهاب ناتج عن: 1) إن الإرهابيين "يخفقون فيما يسعون عليه"؛ 2) و"ينجحون دوما في تعزيز وتقوية ورص صفوف من يتصدون لمواجهتهم". حتى مجموعة من طلاب المدرسة الثانوية لا يمكن أن يترددوا في الاعتراض على ذلك. فماذا عن الجيش الجمهوري الايرلندي (IRA)؟ يرد سام قائلا: "حسنا، ما زال البريطانيون والبروتستانت هناك". لكن ذلك لا يمثل بالضبط الأهداف السياسية للجيش الجمهوري الايرلندي. الجواب إذن يتجاهل أن

إخراج البريطانيين يشكل الآن، وشكل منذ عهد بعيد، اقتراحا مقبولا سوف يقرره الناخبون البروتستانت والكاثوليك. كما لا يدرك القصة المعقدة لنهوض جمعية "الشين فين"، التي أصبحت لها الآن مكاتب تعمل منها في منطقة ويستمنستر حيث يقع البرلمان البريطاني. ثم يقول سيبورن إن متطرفي الباسك لم يحققوا أية نتائج حتى الآن، وهذا يغفل مرة أخرى التنازلات الكبيرة التي قدمتها إسبانيا متمثلة في منح إقليم الباسك مزيدا من الحكم الذاتي. كما أن "الأولوية الحمراء، وجماعة بادرماينهوف، والوذرمن، سعت جميعا لقلب الأنظمة الرأسمالية، لكن الرأسمالية أبلت بلاء حسنا". كل هذا صحيح، لكن الاضطراب ما زال كامنا تحت السطح، ولم يتوقف انتقاد الرأسمالية (أنتج المسلسل قبل موجة أعمال العنف الأخيرة التي قامت بها الأولوية الحمراء في إيطاليا). يظل كل من هذه التوكيدات عرضة للتشكيك والمساءلة، مثلما هو الهدف الذي استخدمت هذه الجماعات المختلفة العنف السياسي لتحقيقه في كل سياق تاريخي. لكن مسلسل "الجناح الغربي" تجنب كلية أي اعتبار لحقيقة أن حملات الإرهاب قد أدت في نهاية المطاف إلى المفاوضات السياسية، والتنازلات، وحتى "العلاقات الودية"، ثم أفرزت التغيير.

بدون أية عقبات، انتقل النقاش إلى مسألة الاحتجاج السلمي، وهو موضوع وثيق الصلة على ما هو مفترض، رغم أن طبيعة هذه الصلة تستحق مزيدا من المناقشة والتفكير بدلا من وضع كل النقائض في بوتقة واحدة. إذ ينبغي علينا توضيح هذه العلاقة أكثر من أي شيء آخر في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر. نحتاج لأن نأخذ بالاعتبار الفوارق المميزة بين الأفراد والمجموعات التي تسعى لتحقيق أهداف متشابهة - بل حتى متماثلة - تولد برغم ذلك حملات مختلفة، وسياسات متباينة، وأنواعا متفاوتة من الحشد والتعبئة. ويكتفي المسلسل بالتوكيد لنا على أن الاحتجاج السلمي نجح مع غاندي وحركة الحقوق المدنية. وبالتالي فإن الإرهاب، من هذا المنظور، مكون من عدة أشياء - مصطلح واسع بما يكفي ليشمل كل شيء، بدءا من القاعدة (التي لم يأت المسلسل على ذكرها صراحة) وانتهاء بغاندي، مرورا بالثوار الأمريكيين في "حفلة شاي بوسطن" (حيث يعلمنا المسلسل بأنهم أعلنوا الحرب بدماثة وكياسة!)، ومع ذلك يبقى التعهد قائما بضمان صوابية الحكم القائل بأن الإرهاب يفشل دائما.

ننتقل الآن إلى الخيارات المروعة التي يقدمها الإرهاب للمجتمع: التوازن بين الحرية والأمن. أحد الطلاب استشهد

بالقول المأثور عن بنجامين فرانكلين: "أولئك الذين يستطيعون التخلي عن الحرية الأساسية للحصول على بعض الأمن المؤقت لا يستحقون لا الحرية ولا الأمن". المسلسل يدافع دفاع المستميت عن دولة الأمن القومي، كما عرضتها سي. جي. كريغ، السكرتيرة الصحفية للبيت الأبيض. أما الاعتراضات الليبرالية فيقدمها مدير الاتصالات توبي زيغلر. جوهر النقاش يتركز على إقناع الطلاب بالحاجة إلى تجنيد جواسيس، ولربما يتطلب الأمر تسجيل المكالمات الهاتفية، وبالتالي يجب التضحية ببعض الحريات التي يتمتع بها المواطنون الأمريكيون إن أرادوا الشعور بالأمان. فواقع الإرهاب يفرز خطرا واضحا وداهما وراهنا، وفي سبيل مكافحته تحتاج أمريكا إلى شركاء لا يؤمنون كثيرا بالحرية والديمقراطية، ولا يختلفون كثيرا عن طالبان. وكما تعترف كريغ، فإن لهذه "الأجندة" تبعات وعواقب على حرية الكلام والتعبير، ولا تبدأ بالتعامل مع مشكلة المواطنين الذين" يتعرضون للقتل على أيدي قوات الشرطة الوطنية لأنهم صرحوا بآرائهم". ومع ذلك فهي تلح على أننا بحاجة للإقرار بأن العمليات السرية التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزية (CIA) ليست ضرورية ومفيدة فقط، بل إن نجاحها وتأثيرها لا يحتاجان إلى إثبات. وتعدد كريغ الانتصارات التي تحققت في الماضي القريب: لم يتمكن السوفييت أبدا من عبور نهر البا، وبقي الكوريون

الشماليون خلف خط العرض 38، والألفية مرت بسلام. وبالرغم من كل الأخطار المتأصلة التي تهدد الحرية، مثل اللوائح السوداء، والحملات الشعواء على المنشقين والمعارضين (على الطريقة المكارثية)، والاعتقال غير القانوني، فإن الأمن يدين بفضل إلى هذا النوع من الحلول العلاجية المطلوبة لإلحاق الهزيمة بالإرهابيين. وإذا بدا كل ذلك مبالغا في التطرف والشدة "فلا شيء أكثر التصاقا بأمريكا من بناء التحالف مع الأصدقاء"، كما أخبرت كريغ الطلاب. و"أول شيء فعله جون واين على الدوام كان حشد الأنصار". إذن، بالنسبة لمسلسل "الجناح الغربي" الذي لا يترك مناسبة إلا ويستعرض فيها أوراق اعتماده الليبرالية الجديدة، فإن قانون حشد الأنصار، والعمليات السرية، وتدخل الولايات المتحدة (العسكري وغيره) في مختلف دول العالم، لها جميعا مسوغاتها التبريرية باسم الأمن والأمان والطريقة الأمريكية. ولا يثير المسلسل مسألة أن هذه الأنشطة قد تكون إحدى "الشكاوى المحددة" التي يجأر بها أولئك الذين "يكرهوننا".

لكن بالنسبة لتشالمرز جونسون، المتقاعد من الحرب الباردة والذي يدرس الآن في جامعة كاليفورنيا، ليس ثمة مجال للشك في هذه الحقيقية. فهذه العوامل والجوانب في

السياسة الأمريكية الخارجية بالضبط هي التي ولدت الكراهية للولايات المتحدة وسلطت سيف الإرهاب على عنقها. ففي حديث له بعنوان "أخذ كل الأمور بعين الاعتبار" بثته محطة "NPR" الإذاعية، حلل جونسون ما حدث مستخدما تعبير "الضربة التي ترتد إلى النحر"، الذي ابتكرته وكالة المخابرات المركزية (CIA) في الخمسينيات للإشارة إلى النتائج العكسية غير المقصودة للعمليات السرية التي عادت لتستحوذ على الولايات المتحدة من جديد. حين استخدم التعبير لأول مرة، كان يشير إلى عواقب محاولة الوكالة اغتيال محمد مصدق رئيس الوزراء الإيراني آنئذ. "نتيجة هذا التدخل الفاضح في شؤون إيران، عاد الشاه إلى السلطة لتتبع ذلك حقبة امتدت ربع قرن من القمع والاستبداد والديكتاتورية، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى اندلاع ثورة آية الله الخميني واحتجاز كل العاملين في السفارة الأمريكية في طهران رهائن لمدة زادت عن السنة"، كما قال. ثم قدم الحجة على أن التوسع الدائم للإمبراطورية الأمريكية، و"امتدادها المفرط في انتشاره" يشكلان السبب الأساسي "لأحداث الحادي عشر من سبتمبر"[(11)]. نعوم تشومسكي، أستاذ اللسانيات في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، الذي أمضى حياته كلها معارضا، عبر عن آراء مشابهة. فقد استبعد تشومسكي الأعذار الذرائعية "الدارجة" التي يقدمها اليمين

واليسار على حد سواء. وقال في مقابلة مع محطة إذاعية في بلغراد: "مثل هذه التبريرات تناسب الولايات المتحدة ومعظم دول الغرب". واستشهد بتحليل نشرته صحيفة "نيويورك تايمز" (بتاريخ 16 سبتمبر) أشار إلى أن "المتآمرين ارتكبوا فعلتهم بدافع الكره للقيم التي يتعلق بها الغرب مثل الحرية، والتسامح، والرخاء، والتعددية الدينية، وحق الانتخاب للجميع". أما تصرفات وأفعال الولايات المتحدة فلا علاقة لها بالأمر، ولذلك لا ينبغي حتى ذكرها. وتلك صورة مريحة، لكنها "تتعارض كلية مع كل ما نعرفه، وتتمتع بكل مزايا تملق الذات والتأييد المنحاز للقوة"[12]. في مناسبة أخرى، طلب تشومسكي من الأمريكيين "إدراك حقيقة أن الولايات المتحدة تعتبر في معظم أنحاء العالم دولة إرهابية مجلية، وهنالك أسباب وجيهة لذلك. ولا يجب أن يغيب عن بالنا أن محكمة العدل الدولية، مثلا، أدانت الولايات المتحدة عام 1986 بتهمة استخدام القوة غير القانوني، (الإرهاب الدولي)، كما عارضت الولايات المتحدة قرارا أصدره مجلس الأمن يطالب فيه كل الدول (ويقصد الولايات المتحدة) بالالتزام بالقانون الدولي"[13].

تعريف مسلسل (الجناح الغربي) للإرهاب أكثر تبسيطا: إنه نتاج للتعصب الذي يحرضه ويحفزه عدم القدرة على القبول

بوصفة المسلسل السحرية لكافة المشاكل: التعددية. التعددية بطبيعتها إذن تشكل تهديدا داهما لوجود كل المؤمنين الملتزمين بنظام لا يسمح بأي انحراف عن شريعته وممارسته، ويفرض على اتباعه خضوعا شموليا. وأولئك الملتزمون بهذه الأنظمة الصارمة المتصلبة لا يتعرضون فقط لتهديد الطبيعة التعددية للمجتمع الأمريكي، ووجود أديان ومعتقدات مختلفة، وأعراق وأجناس وأساليب حياة تتعايش جنبا إلى جنب وتمارس بشكل حر ومفتوح، ولكن تتهددهم أيضا القدرة على التفكير بجملة متعددة من الأفكار حول أي موضوع. مرة أخرى، يغطي النموذج المنمط على التاريخ ويحشد المعلومات الضرورية التي يحتاجها الرأي العام - الناقص المعرفة - كي يفكر. إن تاريخ المجتمع الإسلامي والإسلام كدين وتشريع مؤسس على تسامح التعددية. فالإسلام نظرة تعددية في الجوهر للعالم، مثلما يؤكد تاريخه بكل وضوح. فعلى سبيل المثال، شهد أحبار وعلماء اليهود عصرهم الذهبي في إسبانيا حين كانت تحت حكم المسلمين. وعندما شنت مملكة "الملوك الكاثوليك" بزعامة فيردناند وايزابيلا حرب استرداد الأندلس من المسلمين، تطلبت روح النقاء العرقي/ القومي السائدة آنذاك طرد اليهود، ولم يجد هؤلاء ملجأ يلوذون به ويستقبلون فيه بالترحاب في طول العالم وعرضه إلا في السلطنة العثمانية المسلمة. إن للتعددية تاريخا أيضا، وذلك

بغض النظر عن كونها تطورا اقتصر على المجتمع الحديث. لكن هذا لا يجب أن يعكر صفو درس الحقوق المدنية وتوكيداته في الحلقة الخاصة من مسلسل "الجناح الغربي".

يقر المسلسل فعلا بأن ثمة مشكلة في كون المرء مسلما. ويظهر ذلك في الحبكة الفرعية، التي تدور حول التحقيق مع رقيم علي. فهذا الموظف في البيت الأبيض الذي يحمل اسم أحد الإرهابيين المطلوبين، من أصل عربي تخرج من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. ألقي في مكتب مغلق حيث يتوجب عليه تفسير مساهمة أبيه في منظمة اسمها "المدافعون عن الأرض المقدسة"، ومشاركته في تظاهرات تحتج على وجود القوات الأمريكية في منطقة الخليج. يشرح علي قائلا إن الهدف الحقيقي - في رأيه - للتدخل العسكري الأمريكي هو حماية المصالح النفطية الأمريكية. لكن اعتراضه الأساسي ينصب على المعايير المزدوجة. اعتراضات علي استحثت دفاعا أبويا عن السياسة الخارجية الأمريكية من جانب ليو مكغاري، كبير موظفي البيت الأبيض الذي يتمتع بقدر استثنائي من اللطف والدماثة. يقول: "لربما نستطيع أن نعلمه". وبالرغم من كل المؤهلات الليبرالية، تظل هذه الحبكة الثانوية واضحة ومثيرة ولا تقدم أي اعتذار. إذ يقول علي إنه ليس من غير الشائع بالنسبة

للعرب الأمريكيين أن يكونوا أول من يشتبه بهم "حين يحدث مثل هذا النوع من الأمور"، وهذا شيء "مروع". ويرد ليو اللطيف الدمث ناطقا باسم الجماهير: "لا يمكن أن أتخيل السبب. لا! أنا أحاول أن أكتشف لماذا يفترض الناس كلما حدثت عملية إرهابية أن المنفذين هم من العرب". ثم أوصل نفسه تدريجيا إلى قمة الإثارة مع الملاحظة الحاسمة: "إنه ثمن تدفعه". إذن، تلك هي الحقيقة. فهناك ثمن يجب أن تدفعه إذا كنت مسلما: وهذا جهل انفعالي يخلط العربي مع المسلم، والشرق الأوسط مع الإرهاب (حتى وإن أكد تقرير لوزارة الخارجية صدر عام 1997 على أن الإرهاب المنطلق من الشرق الأوسط يحتل المرتبة السادسة من حيث الوتيرة)، والسياسة مع الدين، لإنتاج الأرضية المنطقية للسيناريو الذي يشير إلى وجود عدو حقيقي في الداخل. وكما يفترض، يجب على علي أن يدفع نفس الثمن الذي دفعه الأمريكيون اليابانيون الذين شاء لهم حظهم التعيس أن تكون وجوههم كوجه العدو خلال الحرب العالمية الثانية، ولذلك من المباح اعتقالهم وحجزهم وتجريدهم من ممتلكاتهم ووسائل كسب عيشهم من أجل الأمن القومي. أنهيت الحبكة الثانوية فجأة حين ظهر رقيم علي "الآخر"، المشبوه الحقيقي، في ألمانيا، تاركا بطل هذه المشاهد، ليو اللطيف الدمث المترع بالمشاعر الإنسانية، ليفكر متأملا بما قال.

لكن آراء ليو لا يوافق عليها كافة الأمريكيين. هل يعتبر الأمريكي المسلم مختلفا عن الأمريكي الايرلندي أو الإيطالي مثلا؟ هل يجب على المسلمين دفع ثمن مجرد كونهم مسلمين؟ هل ينحصر تطبيق المساواة في أنواع وأعراق معينة من الأمريكيين دون سواهم؟ ليس ثمة أي شك بذلك لدى دينيس كوسينيتش، عضو الكونغرس عن كليفلاند (اوهايو)، والمدافع القديم المحنك عن حرية التعبير والكلام والحريات المدنية. فقد ألقى خطابا أمام "حركة الأمريكيين في جنوب كاليفورنيا من أجل الديمقراطية" في لوس أنجلوس صاغه على شكل صلاة ابتهالية بدأها بإعلان يقول فيه:

إن هنالك حقيقة أشد عمقا تعبر عنها وحدة الولايات المتحدة. وما يتضمنه اتحاد بلادنا هو اتحاد كل الشعب. الشعب الأمريكي برمته بكل شرائحه وأفراده مهم وجوهري. والعالم لا تترابط أجزاؤه على المستوى المادي فقط، من خلال الاقتصاد، والتجارة، والاتصالات، والمواصلات، لكنها تترابط أيضا بواسطة المشاعر القلبية الإنسانية، عبر قلب العالم، عبر نبضاته التي يعبر عنها بأبسط الأشكال، والتوق المتلهف للتحرر وتنفس الحرية. لذلك أبتهل وأصلي من أجل أمريكا.

وفي تعارض حاد مع توكيد مسلسل "الجناح الغربي" على أهمية وضرورة أنشطة وكالة المخابرات المركزية(CIA) ومكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، من أجل الحفاظ على الحرية والديمقراطية، أشار كوسينيتش إلى أن إطلاق العنان لمثل هذه الوكالات يضعف القاعدة المؤسسة للدستور الأمريكي ذاته إضافة إلى أفكار الحرية والديمقراطية. وابتهل إلى الله أن لا تسقط أمريكا في شرك "ذهنية الحصار"، في فخ "مناورات الوطنية المتعصبة، ومناورات الفكر، ومناورات الحرب التي يقوم بها رئيس غير منتخب ونائبه غير المنتخب". صلى من أجل ألا تنبذ أمريكا "ضمانات العدالة الدستورية"، وتلغي التعديل الأول للدستور (الحق بحرية الكلام والتجمع السلمي)، والتعديل الرابع (حظر الاعتقال لمدة غير محددة دون محاكمة)، والتعديل السادس (الحق بمحاكمة علنية عاجلة)، والتعديل الثامن (الذي يحمي المواطن من العقوبة الوحشية والاستثنائية). صلى من أجل أن تصغي أمريكا لصوت الشعب، وعدّد مجموعة مختارة من الممارسات والأفعال التي ارتكبت باسمه لكن بدون أن يصادق أو يوافق عليها:

لأننا لم نفوض أحدا بغزو العراق.

لم نفوض أحدا بغزو إيران.

لم نفوض أحدا بغزو كوريا الشمالية.

لم نفوض أحدا بقصف المدنيين في أفغانستان

لم نفوض أحدا بحبس المعتقلين إلى الأبد في سجن غوانتانمو.

لم نفوض أحدا بالانسحاب من اتفاقية جنيف.

لم نفوض المحاكم العسكرية بتعليق العمل بالاجراءات المتبعة وأوامر المثول أمام القضاء.

لم نفوض أحدا بتشكيل فرق الاغتيالات.

لم نفوض أحدا بإحياء "برامج مكافحة التجسس"[(14)]

لم نفوض أحدا بإلغاء وثيقة الحقوق.

لم نفوض أحدا بإصدار بطاقات هوية وطنية.

لم نفوض "الأخ الكبير" بمراقبتنا ليل نهار في مدننا.

لم نفوض أحدا بتبني "مبدأ العين بالعين".

ولم نطالب بالثأر لدماء الأبرياء الذين قضوا في الحادي عشر من سبتمبر، من دماء القرويين الأبرياء في أفغانستان.

لم نفوض الإدارة بشن الحرب في أي وقت، وفي أي مكان، ومتى شاءت ورغبت.

لم نفوض أحدا بشن حرب لا نهاية لها.

لم نفوض أحدا بتبني اقتصاد الحرب الدائم(15).

وعلى شاكلة كثير من النقاد والمعلقين الغاضبين الذين أرغوا وأزبدوا، امتنع مسلسل "الجناح الغربي" بدون تحفظ عن التفكير بتاريخ أمريكا ذاته، إضافة إلى تاريخ تفاعلها مع العالم خلال العقود الخمسة الأخيرة. بعد الحادي عشر من سبتمبر، هيمن هذا التاريخ على عقول الكتاب والمفكرين اليسارين، والعديد منهم اعترضوا على الموقف الأخلاقي السامي الذي تتخذه أمريكا بشكل آلي. تميزت معظم هذه الانتقادات بحدتها اللاذعة. فعلى سبيل المثال، أعلنت مجلة "لندن رفيو اوف بوكس" (London Review of Books)، وهي مجلة أدبية نصف شهرية تحررها مجموعة من الكتاب الذين يسهمون بمقالاتهم بانتظام، أن أمريكا تستحق أن يكرهها العالم. وفي مقالة تعرضت لكثير من النقد قالت ماري بيرد المحاضرة في الآداب الكلاسيكية في جامعة كمبردج: "إن الولايات المتحدة نالت جزاء ما فعلت". "فالمستأسدون في العالم، حتى وإن كانت قلوبهم في مكانها الصحيح، لابد أن يدفعوا الثمن في نهاية

المطاف"[16]. أما الروائي والناقد الهندي اميت شودري فقارن الحكومات الأمريكية برئيسة وزراء الهند السابقة انديرا غاندي. إذ تظاهرت السيدة غاندي بأنها ديمقراطية، ومحبة للحرية، وعلمانية، في حين استخدمت في الواقع كل وسيلة لا ديمقراطية، وقمعت وكبتت كل حرية، وأججت النيران الدينية لتأبيد حكمها وحكم حزبها وهيمنته. كما تلاعبت ببنية الهند الفيدرالية، وسببت الاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار في الولايات التي تحكمها أحزاب المعارضة، وأوقعت بين السيخ والهندوس والمسلمين لتحقيق مآربها. ودعمت وشجعت على وجه الخصوص الأصوليين السيخ، مثل جارنيل سينغ بيندرانوال وحزبه (حزب اكالي دال). وحين انقلب بيندرانوال على السيدة غاندي واتخذ ملجأ له في المعبد الذهبي في امريتسار، استخدمت الجيش لمهاجمة المعبد وقتله. وما حدث بعد ذلك لا يشكل مفاجأة: اغتيلت السيدة غاندي على يد حراسها السيخ؛ وقتل الغوغاء من حزبها آلاف الأبرياء من السيخ في نيودلهي. يضيف شودري قائلا:

وعلى شاكلة السيدة غاندي في الهند، نصبت أمريكا نفسها نصيرا عظيما للديمقراطية في العالم الحديث، بينما تعاملت معها في واقع الأمر باعتبارها إزعاجا

مريكا وعقبة كأداء حين تعترض مصالحها الذاتية. فهي تبرر الآن الحرب بذريعة التحدث "باسم الشعب"، لكن إرادة الشعب في فلسطين ظلت طيلة عقود من السنين لا تعني أكثر من حطام حجارتها. ولكي تستأصل الشيوعية من أفغانستان، قامت بتسليح جماعة دينية متطرفة؛ وخلقت، في واقع الأمر، بيندرانوال آخر. لقد بقيت سياسة أمريكا الخارجية طيلة سنين عديدة، مثل السياسة الداخلية التي تبنتها السيدة غاندي، مهتمة فقط بتوسيع مجال نفوذها مهما كان الثمن. لا يستطيع إلا الرأي العام الأمريكي أن يمارس الضغط على/ ويغير السياسة الضالة المنحرفة: لكن المصدر الرئيس لمعلومات الرأي العام الأمريكي حول سياسة الحكومة الخارجية هو هوليود بكل صورها الخيالية المريعة وخطابها المنمق المرعب عن "الخير" و"الشر"[17].

وتبعا للروائية دوريس ليسنغ، تعتبر أمريكا بلدا "يؤخذ فيه كل شيء إلى حدوده القصوى". وفي مساهمتها في منتدى مجلة "غرانتا" (Granta) حول "رأينا بأمريكا"، أشارت ليسنغ إلى أن "ردة الفعل على أحداث الحادي عشر من سبتمبر. بكل فظاعتها . تبدو مغالية في تطرفها من منظور الأجانب خارج الولايات

المتحدة، وعلينا أن نقول ذلك لأصدقائنا الأمريكان، برغم حساسيتهم الفائقة تجاه هذا الأمر، واستعدادهم لقطع العلاقات مع مطلقي الاتهامات التي تتصف بقساوة القلب وانعدام الرحمة". ودافعت عن تعليقات ماري بيرد عبر الإشارة إلى أن "الحكم 'بأنهم نالوا جزاء ما فعلوا'، الذي قوبل باستياء غاضب، ربما أسيء فهمه. ما شعر به الناس هو أن الأمريكيين قد عرفوا أخيرا بأنهم مثل غيرهم، عرضة لثعابين الحسد والانتقام، ولانفجار القنابل على ناصية أي شارع (مثل ايرلندا)، أو في فندق تنزل فيه الحكومة (مثل برايتون). لقد قالوا بلسانهم بأنهم طردوا من جنة عدن الخاصة بهم. وكم هو غريب أن يظنوا بأنهم عاشوا في الجنة الحقة". وبعد أن استحوذت عليهم حمى المشاعر الوطنية المتطرفة، يرى الأمريكيون أنفسهم "أمة فريدة، وحيدة، مطوقة، أساء الآخرون فهمها، ويعتبرون أي انتقاد لهم بمثابة خيانة"[18]. أما هارولد بنتر الكاتب المسرحي الشهير فكان أشد قسوة في انتقاده. إذ كتب يقول إن الولايات المتحدة "مارست سياسة القوة بطريقة مستدامة، ومنهجية، ووحشية، ورصينة، وغير قويمة في مختلف أرجاء العالم، في حين قنعتها بقناع القوة الهادفة لصلاحه وخيره". وهي دولة "متغطرسة تزدري القانون الدولي ولا تبالي به، وتتجاهل وتستغل وتتلاعب بالأمم المتحدة: هذه هي الآن أخطر قوة عرفها العالم في تاريخه.

'الدولة المارقة' الأصيلة، لكنها 'دولة مارقة' تمتلك قوة عسكرية واقتصادية هائلة". العالم عانى ما فيه الكفاية من أمريكا. والآن، هنالك "شعور طاغ بالتقزز والقرف من استعراض وتمظهر قوة الولايات المتحدة والرأسمالية العالمية التي تنمو وتتفاقم في العالم لتصبح قوة مرعبة بحكم حقها الذاتي"[19].

بالطبع، لم تمر كل هذه الآراء دون اعتراض ودحض. فنفس الفكرة التي تقول بأن الولايات المتحدة تقطف ثمار الاستعمار اليانعة تعرضت لهجوم العديد من المعلقين باعتبارها موقفا يصفح عن الشر ويتغاضى عنه. جو كلاين، مؤلف كتاب "ألوان أساسية"، ومراسل صحيفة "نيويوركر" في واشنطن، رفض الفكرة باعتبارها مجرد "شكوى مفلسة أخلاقيا"[20]. ومعظم الذين انتقدوا أمريكا وسياستها الخارجية جرى التعامل معهم بأسلوب لا يختلف كثيرا عن معاملة رقيم علي في مسلسل "الجناح الغربي". كما ذكرت صحيفة "الغارديان":

بعد أيام من الهجمات القاتلة على نيويورك وواشنطن، بدا أن كل الذين انتقدوا أمريكا أو العولمة علنا قد وجدوا أنفسهم فجأة متهمين بالتواطؤ مع أسامة بن لادن في ارتكاب الجريمة - بل أسوأ. في الصحافة البريطانية وحدها وصفوا بأنهم: "انهزاميون" و"غير وطنيين"

و"عدميون" و"مازوخيون"، "وستالينيون" و"فاشست" في آن معا؛ وبأنهم من "عصابة بادر- ماينهوف"، و"خدام لأسامة" و"أعوان للديكتاتوريين"؛ وبأنهم "ضعفاء"، "رعاديد"، "حمقى تحجرت قلوبهم"؛ "أكلهم عث الدعاية السوفييتية"؛ وأنهم متخمون "باللغو الفارغ"، "والعناد وخداع الذات"، وفي حالة من "الانحطاط الفكري"؛ وبأنهم مجموعة من "الأغبياء النافعين"، "والموتى الأحياء"؛ وأنهم "أناس يكرهون الناس"[21].

الأحداث الكونية، مثل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، لا تسمح لك بالوقوف على الحياد. ولا ينبغي أن يفاجئ المرء كثيرا بسيل الشتائم التي تنهال عليه لأنه اتخذ موقفا لا يستسيغه الآخرون. لكن الأحداث الكونية الجسام تتطلب أيضا استخلاص نتائج شمولية. قبل انتهاء حلقة "الجناح الغربي" الخاصة، طرح درس الحقوق المدنية سؤاله الختامي: كيف بدأ كل هذا؟ بحلول ذلك الوقت، ظهرت السيدة الأولى في "المطعم"، واختيرت لتجترح الجواب الذي شكل عنوان هذه الحلقة الخاصة من المسلسل: "اسحق وإسماعيل". وتبعا للسيدة الأولى، تبدأ المشكلة بالقصة التوراتية التي تناولت إبراهيم وأولاده. "وهكذا بدأت: اليهود، أبناء اسحق والعرب، أبناء إسماعيل". وفي هذه

الحالة، يفهم الهجوم على أمريكا عبر صلته المباشرة بقضية إسرائيل، وقضية إسرائيل تفسَّر بواسطة جدل خلافي مع الأصول التوراتية، خلاف عَبَر الزمان ليوقع الفوضى والاضطراب والكارثة. وإذا كان الخلاف - الذي هو أبعد ما يكون عن النزاع على الأرض - ذا أصول توراتية وبأحجام توراتية، فإن من الصعب العثور على حل سياسي حقيقي أو معتمد على السياسة. ليس بأيدينا - كأفراد، وأمريكيين، وشعوب - أن نفعل الكثير. وهكذا يصبح المسار الذي اقترحته وزيرة العدل الكندية، آن مكلينان - "يجب علينا أن نخمن بصدق لماذا نعتقد بأن هذا يحدث"، وإذا "كان هناك أية ضرورة" لتغيير "سياستنا أو مقارباتنا" - يصبح طويلا ومسهبا[22]. ليس ثمة ضرورة للتغيير. وعندما يقال كل شيء، يرفض مسلسل "الجناح الغربي" مجابهة القضية الحقيقية ويفضل تجنب ما ينبغي عليه فعله.

تنتهي الحلقة بنصيحة أخيرة للطلاب، قبل أن يغادروا، تحضهم على التفكير بأكثر من فكرة واحدة. لكن المشكلة تكمن في أن التفكير بدون "معلومات" لا يؤدي إلى تحسن الفهم. فما ينتج الفهم، ويحرر المعنى المغلق الدلالة، ويوفر أجوبة محتملة للمشكلات المستعصية، هو نوعية ودقة المعلومات، بالاقتران مع الفكرة الأصلية. ومدركات "الجناح الغربي"، ووصفته لمعالجة

مشكلة الإرهاب، تظل كالعادة، معبرة عن التقدير والإجلال لأفضل القيم الأمريكية. والمعلومات المتوفرة له تتحول إلى نقطة ضعف يتعذر تجاوزها، وخلل يدفعه للجوء إلى المعلومات المضللة، والتشويش والتعتيم، والنمذجة والتنميط، أي المرآة المثالية التي تعكس الرأي، والملاحظة، والخبرة، والمعرفة، في العالم الموازي الذي هو العالم الحقيقي.

الحلقة الخاصة التي حملت عنوان "اسحق وإسماعيل" من مسلسل "الجناح الغربي" قدمتها نفس الشخصيات. حيث ناشدت المتفرجين التبرع بالمال لضحايا هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ كما قدمت أرباح المسلسل هبة لمساعدتهم. أما ردة الفعل على الحلقة فقد توزعت على قطبين متعارضين، مثلما هي آراء اليمين واليسار حول أسباب الحادي عشر من سبتمبر، والسؤال المريك المحير الذي أثارته الأحداث الفاجعة في ذلك اليوم: "لماذا يكره العالم أمريكا؟". فمن جهة، كان هنالك تأييد للمحاولة الإبداعية لاستكشاف وتقصي أبعاد القضية، ومن جهة أخرى، أدين المسلسل بتهمة المبالغة في الفخر والثقة والاعتداد بالنفس، والتحذلق والافتقار إلى الحكمة العملية، واللجوء إلى أسلوب الوعظ المباشر، والتعجرف والزهو. لكن النقطة المهمة هي أنه لم يكن مجرد "مسلسل تلفزيوني". فالمنطق واللامنطق، والحجج

والبراهين، والتعتيم والتشويش، والأسس المنطقية والذرائع التبريرية، والعبر والتحليلات التاريخية التي قدمها المسلسل حذت حذو كافة التغطيات الإخبارية، والتعليقات، والتحليلات، والمناظرات والمحاورات في العالم الحقيقي. وفي هذه الحالة، كان الواقع الحقيقي مرآة عاكسة؛ لاحت فيها المقدمات المنطقية والمواقع المحصنة التي شيدت على سؤال لماذا يشعر العالم بالكره لأمريكا. وما يوضحه هذا الانعكاس الافتراضي هو أن شروط النقاش والحوار جرى النظر إليها من خلال مرآة داكنة، وضبابية، ومشوهة، وغير دقيقة. لم يكن حظ المسلسل من النجاح أفضل أو أسوأ من حظ السياسيين، والخبراء، والصحفيين. أما أشد ما قدمه تأثيرا، إن كنا على استعداد لتقييمه بذهنية منفتحة، فهو المدى الذي نحتاجه لتجاوز السؤال الوحيد واكتشاف المعنى الكامن وراء ما حدث، وكيف توجب على الرد أن يكون، وأين يمكن العثور على الأمن والآمان والحل الناجع. حتى الآن، مازال التساؤل عن سبب كره وعداء العالم لأمريكا يتقدم التحليلات والدراسات. ولربما يتوجب علينا معاينة السؤال ذاته ورؤية الافتراضات التي تكمن تحته.

الفصل الثاني:

"هم" "الأشرار"، "يكرهون" "أمريكا".

بدءا بأول بيان متلفز، وخطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه الرئيس "الحقيقي"، مرورا بالبيت الأبيض "الافتراضي" في مسلسل "الجناح الغربي"، ووصولا إلى عدد لا يحصى من التغطيات الإخبارية والتعليقات والآراء في وسائل الإعلام المرئية والمطبوعة، تكرر السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" إلى ما لا نهاية. العبارة أخذت صيغة خبر، مقدمة منطقية مقبولة ينطلق منها النقاش. لكن العبارة، كسؤال، صفت ونظمت مصطلحات وتعابير تجاوزت كثيرا - في المعنى والمضامين - أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ولم تكن مجرد سؤال عاطفي يطرح في حمأة اهتياج اللحظة الراهنة - بل سؤال يستخدم التعابير الانفعالية لوضع هذا الاهتياج في سياق أوسع، سياق الأحداث والأفكار قبل وبعد الحادي عشر من سبتمبر.

إذا كان السؤال عبارة عن بحث عن مزيد من المعلومات والأفكار وتجاوز ما هو معروض منها، فنحن بحاجة للبدء بفهم عناصره التكوينية. سؤال "لماذا يكره العالم أمريكا" يتألف من ثلاثة مكونات أساسية: "العالم"، "الكره"، "أمريكا".

وإذا قصدنا بالعالم "الناس"، فمن هم هؤلاء الناس؟ كيف صنف الأفراد أو الجماعات ضمن هذه الفئة - ما الذي يميزهم؟ "الناس" يعرَّفون بواسطة الخاصية/ السمة التي نسبت إليهم: الكره. الكره يحض الناس على اتخاذ موقف الدفاع ويجعلهم على استعداد للهجوم إضافة للدفاع. للكراهية تاريخ؛ فهي تشكل في أغلب الأحيان قوة دافعة في حياة البشر وشؤونهم. الكراهية تحدد التخوم الفاصلة بين الشعوب، وتباعد الشُّقة بينها، وتخلق مشاعر الشك والعداوة التي تجعل من الممكن ارتكاب جرائم بشعة. الكراهية توفر السياق، مجموعة من التقاليد والعادات المفهومة. لكن هل تفسر هذه التقاليد والعادات لِمَ تُستهدف أمريكا؟

الكراهية شعور بالاستياء والغيظ يستحضر دوما رد فعل، وهو يخلق جملة من المدركات المتبادلة بين الأشخاص الذين يبغضون موضوع كراهيتهم. ومن الخطورة بمكان، كما يشير التاريخ، أن يعتبر المرء نفسه موضوعا وهدفا للبغضاء، ويخاف انقضاض كره الآخرين عليه، وهذا يعادل تماما خطر جعل "الآخر" هدفا للكراهية. بين "الناس/ العالم" الذين يسعى السؤال لتحديد هويتهم، و"أمريكا"، لا يوجد خط واحد من

التفسير بل علاقة تبادلية ينبغي كشفها، وفهمها، وتقييمها، وحل إشكاليتها.

في النهاية، يأتي السؤال إلى أمريكا. أية أمريكا يستهدفها الكره، وكيف تتصل بأمريكا التي يحبها ويفهمها أولئك الذين يسعون لتحديد هوية المتورطين في جريمة كراهيتها؟ إذن، سؤال مثير بسيط يقدم افتراضات حول بعض من أعقد القضايا، ولهذا السبب علينا تقصي واستنطاق السؤال بدلا من الانخداع بالأجوبة السهلة الجاهزة.

في صبيحة الحادي عشر من سبتمبر، حين كان العالم يشاهد الحدث والرعب يتملكه، لم يكن ثمة شك في هوية المسؤولين. الفكرة الأولى التي خطرت للجميع كانت بسيطة: الإرهابيون كانوا من المسلمين/ العرب/ الإسلاميين / المتطرفين / الأصوليين؛ كانوا "الآخرين"، "هم". النتيجة ظهرت قبل التحقيق أو الاستقصاء أو البينة، لأنها فكرة شمولية، معتقد راسخ، "كليشيه" ثقافية، أسهل افتراض جرت "برمجتنا" مسبقا لقبوله. كيف أثر هذا النزوع والقابلية والاستعداد، هذا الارتياب الجاهز، في الاستجابة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر؟ هل عقد ذلك القضية وصعّبها أم جعلها أسهل وأيسر؟ هل ساعد حقا على تحديد هوية مرتكبي هذه الجرائم واقتفاء أثرهم، أم عتمّ

على الطبيعة الواضحة للجريمة والمجرمين المسؤولين عبر الإشارة إلى طبقة عامة لا متمايزة، "ناس/ عالم"، هم جزء من الظروف التي جعلت هذه الجريمة ممكنة؟ هذه الأسئلة أوجدت سياقا أوسع: تاريخا من الأفكار والمعارف والتقاليد الثقافية. هذا السياق الثقافي الأوسع هو الذي يجب أن نشبعه بحثا ونقتله استقصاء ودراسة.

تحدت الأعمال الإرهابية سذاجتنا بمعنى واحد فقط. فهي حقيقة وليست خدعا سينمائية من إنتاج هوليود. إلى أي مدى وفرت السيناريوهات الخيالية لعدد لا يحصى من الأفلام والروايات السياق الذي فهمنا في إطاره هذه الجريمة الحقيقية والسؤال الذي أفرزته؟ لا يوجد في أرشيف هوليود فيلم زود أحدا منا بالمناعة ضد صدمة وترويع أحداث الحادي عشر من سبتمبر. لكن من الأسهل بكثير تحديد كيف عتمت الأفلام المزيفة التي شاهدناها على الاستجابات على هذه الأحداث، في نيسان/ أبريل من عام 2000 عرض فيلم بعنوان "قواعد الاشتباك" لاقى نجاحا كاسحا طيلة أسبوعين كاملين. وصفت "لجنة الأمريكيين العرب لمناهضة التمييز" الفيلم بأنه "قد يكون أشد الأفلام العنصرية وحشية وضراوة في معاداة العرب، تنتجه شركة هوليودية في تاريخ السينما". وردت شركة "بارامونت

بيكتشرز" (Paramount Pictures) بالقول إن الفيلم عبارة عن "رواية خيالية تصف عواقب التطرف بكل أشكاله"، وألحت على أنه "لم يكن اتهاما أو تجريما لأية حكومة، أو ثقافة، أو شعب". لكن في مراجعته النقدية على موقع الويب "film.com"، ذكر بيتر برونيت أن " المتفرجين هللوا وصفقوا حين ذبح مشاة البحرية المدنيين"[1].

"قواعد الاشتباك" فيلم يتناول المدركات عن الناس والأحداث، ويركز خصوصا على حدث مروع يطلب منا مرارا وتكرارا معاينته بتفاصيل أدق حتى اقتنع المخرج أخيرا بأننا عرفنا ما ينبغي معرفته. الحدث المركزي يدور في اليمن، حيث حوصرت السفارة الأمريكية من قبل عدد من المحتجين. ثم أرسلت وحدة من "مشاة البحرية" ("المارينز") من حاملة طائرات قريبة لتعزيز أمن السفارة، وإجلاء العاملين فيها إذا دعت الحاجة. حين اقتربت الحوامة، احتل مسلحون مواقع لهم على أسطح المنازل المجاورة وأخذوا بإطلاق النار على السفارة. في الساحة التي تطل عليها السفارة، ما زال المتظاهرون المحتجون متجمهرين، يرددون الهتافات، ويلوحون القبضات، ويلقون الحجارة على المبنى. دخلت وحدة "المارينز" مجمع المباني وتعرضت لرصاص القناصة المتمركزين على الأسطح المجاورة. وما إن تم

إجلاء السفير وعائلته، وأصيب بعض أفراد الوحدة، حتى أصدر الضابط المسؤول أمرا بفتح النار، لا على القناصة، بل على الحشد المتجمع في الساحة. قتل "المارينز" عددا كبيرا من الرجال والنساء والأطفال (عند هذه اللحظة هلل المتفرجون في الصالة تبعا لما ذكره برونيت). وحين أوقف مشاة البحرية إطلاق النار، هدأ المشهد، ولم يبق أحد في الساحة - كانت مجزرة راح ضحيتها ثلاثة وثمانون قتيلا ومئات الجرحى.

تحولت قصة الفيلم بعد ذلك إلى دراما مؤثرة تدور داخل قاعة المحكمة. فقد وجهت تهم بالقتل، والسلوك غير اللائق، وخرق السلام ضد عقيد مشاة البحرية الذي أصدر الأمر بارتكاب المجزرة. مع تقدم المحاكمة نشاهد المعركة الدموية (التي استخدمت فيها الأسلحة الرشاشة) عدة مرات من زوايا مختلفة تمنحنا رؤية أوضح، ليضيف كل منها مزيدا من التفاصيل، إلى أن تكشفت كل الجوانب في نهاية المطاف. ما الذي نعرفه عن الناس الذين قدموا في البداية على أنهم ضحايا مدنيين أبرياء؟ ليس هؤلاء شخوصا، بل حشد، جمهرة. نعلم بأنهم يتظاهرون كل أسبوع أمام السفارة الأمريكية. ما هي الدوافع وراء هذه المظاهرات؟ وجدت نسخ من أشرطة التسجيل على أرض السفارة المدمرة، بل حتى إلى جانب أسرة الجرحى

المحتضرين في المستشفى. ترجمت هذه الأشرطة في المحكمة. ونعلم بأنها تحتوي إعلان "الجهاد الإسلامي المقدس ضد الولايات المتحدة"، ودعوة إلى قتل كافة الأمريكان، مدنيين وعسكريين. هذا كل ما يتعلق بالدوافع. وما هو تأثير هذه الأشرطة في إدراكنا للأحداث وما حصل لحشد الناس المتجمهرين؟

في المرة الثانية التي أخذنا فيها الفيلم إلى موقع الحدث خارج السفارة، أصبح الناس هناك حشدا من المخدوعين المستعدين للسماح للرجال المسلحين الموجودين بينهم بإطلاق النار ثم الإفلات دون عقاب. لم يتفرق الحشد عند سماع صوت الرصاص - بل على العكس كثف من احتجاجه. وظهر المسلحون على أسطح المنازل وهم يأخذون مواقعهم أمام نساء يرتدين الشادور؛ وقفت واحدة هناك تحمل طفلا على ذراعيها. في المرة الثالثة التي نزور فيها الموقع نعرف - على العكس من الدليل المقدم من قبل الطبيب الذي عالج الجرحى - أن هناك مسلحين بين حشد المتظاهرين. في المرة الأخيرة، يكشف المشهد عن أن كل المتظاهرين يحملون أسلحة، بمن فيهم النساء والأطفال. بل إن النساء كن يخرجن السلاح من تحت العباءات السوداء - وأطلقوا جميعا النار على "المارينز". حتى الفتاة الصغيرة العرجاء

التي ظهرت في عدة مشاهد وهي تتعثر على عكازين، وبدا شكلها مؤثرا بوجهها الجميل وعينيها النجلاوين، تحولت إلى قاتلة شيطانية تسدد مسدسا على الجنود الأمريكيين المدججين بالسلاح.

ما رسخته قاعة المحكمة في الأذهان هو أن تقييم عقيد مشاة البحرية للوضع كان صائبا. برئت ساحته، وأظهر الفيلم أن السياسيين والديبلوماسيين قد كذبوا ، وعرقلوا سير العدالة ، وحاولوا التغطية على الحقيقة. وقبل انتهاء الفيلم، حصلنا على سلسلة من التعليقات والشروح، وهذه وسيلة معيارية تستخدمها كافة الأفلام التي "تعتمد على قصة حقيقية". التعليقات أخبرت المشاهدين عن مصير الشخصيات بعد الأحداث التي صورها الفيلم، حيث نال مستشار الأمن القومي والسفير الأمريكي جزاءهما العادل. وتعمد الفيلم الإشارة إلى أن القصة قد حدثت في تاريخ أمريكا القريب، الأمر الذي دفع السفير اليمني في الولايات المتحدة، عبد الوهاب الهاجري، إلى القول إن العديد من المشاهدين قد سألوا : "متى حدث ذلك؟"[2].

في الواقع شارك البنتاغون (وزارة الدفاع) في إنتاج الفيلم، مثلما فعل في كثير من الأفلام التي تمجد المؤسسة العسكرية. وحين قدمت الشكاوى ضده، صرح الناطق باسم وزارة الدفاع

كينيث بيكون شارحا رأي وزارته في الموضوع، حيث أشار إلى أن "الأفلام السينمائية توفر صورة نزيهة، ودقيقة، كما يأمل، للجندي الأمريكي". وفيما وراء هذا الاهتمام المحدد للوزارة، فإن للشركات السينمائية "الحق بإنتاج الأفلام بالطريقة التي تختارها"[(3)]. لكن من هي الجهة التي تدقق وتتفحص وتقدم المشورة فيما يتعلق بتقديم "الناس"، وحشد الأعداء، على الشاشة؟ رد السفير اليمني محتجا: "فجأة، أصبح اليمنيون، رجالا ونساء وأطفالا، إرهابيين، ويريدون قتل الأمريكان. إنه لأمر شائن وفاضح"[(4)] أما جاك شاهين، مؤلف كتاب "صورة العرب على شاشة التلفزيون"، فقد قال لمجلة "الأهرام الأسبوعي" إنه يعتبر الفيلم "الأسوأ في تاريخ السينما"، فهو ينقل رسالة بسيطة: "من المناسب والصائب أخلاقيا قتل العرب، وذبح حتى أطفالهم". وأضاف إن هوليود تجد "من المقبول تماما ذم وقدح وأبلسة كل عربي ومسلم كائنا من كان"[(5)]. وأكد رأيه السفير الأمريكي السابق في اليمن، وليام رو، الذي يشغل الآن منصب رئيس منظمة "اميد ـ ايست" (EAST- AMID) التي تعمل على تشجيع فهم أفضل للشرق الأوسط بين الأمريكيين. ونقل عن وليام أنه قال: "إنه فيلم منحاز يعزز الأحكام المسبقة المتحيزة ضد العرب"، وأضاف إن "تشويه الحقائق" ناتج عن الجهل[(6)].

ما علاقة السينما، وسيلة الترفيه الشعبية، بسؤال ("لماذا يكرهوننا؟") طرح في خضم أشد الوقائع إثارة للقلق والضيق؟ تشكل الثقافة الشعبية وتقاليدها جزءا من السياق والظروف، والأفكار والمعلومات التي يتأطر ضمنها السؤال وتقدم الأجوبة. "الناس" الذين يسعى السؤال لفهمهم، تغلفهم وتطوقهم "كليشيه" ثقافية مبتذلة. هؤلاء "الناس" هم "عمومية"، مبدأ عام، ستارة المسرح الخلفية التي روي أمامها عدد لا حصر له من الحكايا، بموازاة مقلقة مع الرعب الحقيقي الآن. أما تقاليد سرد الحكاية فقد استمرت في التعتيم على الفارق المميز بين جمهور "الناس" والعدو المحدد: الإرهابي. فكلما زاد فيلم "قواعد الاشتباك" في استقصائه وسبره لمدركات الحدث المحوري فيه، كلما كرر التوكيد على الفرضية التي تبناها العديد من أفلام هوليود الأخرى التي ظهرت مؤخرا، مثل "النسر الحديدي"، و"الأكاذيب الصادقة"، و"الحصار"، حيث يشكل "الإرهاب الإسلامي" حبكة الرواية، "الخطاف" الذي يعلق عليه التشويق أو الإثارة أو حركة الصورة. لم يعد الإرهابي وحده هو الشخصية المنمطة المبتذلة ذات البعد الواحد، التي ليس لها وظيفة إلا تجسيد المتعصب المتزمت، حائك المؤامرات لإنزال الضرر بأمريكا وقتل الأمريكيين. وإنما جرى تقديم "الناس"، عمومية الناس العاديين الذين أتى الإرهابيون منهم، باعتبارهم يشتركون

في نفس سمات وخصائص أولئك الذين ينفذون العمليات الإرهابية. في أفلام مثل "قوة دلتا"، حيث يستولي عدد من الإرهابيين الفلسطينيين على طائرة تجارية، و"الحريم"، حيث يسعى أمير عربي لاستعباد البيض، لا يرتبط الذنب/الإثم/الوزر بالأفراد المعنيين فقط، بل ينزاح ليشمل كل الفلسطينيين والعرب والمسلمين عموما.

في فيلم "قرار تنفيذي" (1996)، تقوم جماعة من الإرهابيين الإسلاميين الأصوليين بخطف طائرة ركاب لنقل سلاح كيماوي إلى الولايات المتحدة. القرار التنفيذي (عنوان الفيلم) هو أمر رئاسي بإسقاط طائرة الركاب، وهو أمر طبق بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. في فيلم "الحصار" (1998)، أدت سلسلة من الهجمات المدمرة بالقنابل على نيويورك إلى إقامة معسكرات اعتقال للأمريكيين العرب والمسلمين. بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، صدر "قانون الوطنية" (في 10/26/ 2001، حيث دمج وظائف ومهام وكالات الاستخبارات مع تنفيذ القانون المحلي، مما أعطاها سلطات واسعة وكاسحة، وبالتالي ألغى عمليات التحقيق والتدقيق والموازنة التي كانت تعطي المحاكم في السابق الفرصة لضمان عدم إساءة استخدام هذه السلطات)، ونتيجة لذلك اعتقل عدد يقدر بألف ومائتي

شخص وحرموا من حقهم باستشارة المحامين، كما أن هنالك سجنا في خليج غوانتانمو في كوبا، حيث لم يتضح حتى الآن الوضع القانوني للمساجين. وبما أن الأفلام التي شاهدناها وفرت سياقا مناسبا لكل هذه الأحداث الحقيقية، أفلا يتوجب علينا تفحص واستقصاء المدى التي وصلت إليه الأنماط السينمائية الخيالية في توفير المعلومات التي لا يعرفها أو لا يفهمها معظم الناس في مختلف أرجاء العالم عن الحقائق في الحياة الواقعية؟

تبهت مشاهد الدمار السينمائية المذهلة أمام أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ويتضاءل تأثيرها. لكن تبقى الصلة قوية وواضحة بين جو الخوف الحقيقي، والتهديد الداهم، والخطر الراهن، وبين تمثيلاتها على الشاشة. يمكن للخوف الحقيقي أن يستخدم المناظر السينمائية المؤثرة لتقديم الأسباب. فالسينما تزود "الناس" المجهولين، البعيدين، "كتلة" الحشد غير المحددة، بالوجوه والملامح، وتسلط الضوء على فكرة واحدة ملحة تبين الباعث المحرك الذي يدفعهم: الكراهية.

استخدمت الكراهية على الدوام النماذج المنمطة لتبرير العداوة والعدوان، وتفسير السبب الذي يدعو جماعة لحرمان جماعة أخرى من حقوقها الأساسية أو انتهاك هذه الحقوق. النماذج النمطية تجعل الكراهية أمرا سهلا. والثقافة الشعبية

على مر التاريخ أنتجت المادة التي تجعل الأنماط أشد وضوحا، وكانت أكثر فاعلية في تحفيز واستدامة مشاعر الكراهية. فعلى سبيل المثال، ظل التشهير باليهود واتهامهم بالخيانة والغدر يتشبثان بالمخيال الشعبي الأوروبي طيلة قرون عديدة، وغدا "شايلوك"، الشخصية التي ابتكرها شكسبير، اصطلاحا عاميا دارجا يشير إلى المرابين المتجردين من المبادئ الأخلاقية، الذين يطلبون فوائد ربوية ضخمة على قروضهم. النازيون أنتجوا أفلاما تستغل هذه النماذج النمطية القديمة وتستخدمها كخلفية لتقديم اليهود كجرذان تغزو ببلائها المدن الألمانية. الثقافة الشعبية لا تشكل الأحزاب السياسية، ولا تسن القوانين التشريعية، ولا تحشد الجيوش الجرارة وتعزز وتؤبد وتدافع عن العنصرية، لكنها ظلت على الدوام أفضل من تجندهم من العملاء. صحيح أن الأفلام السينمائية تزخرف، وتصفي، وتكثف، لكن ما تقدمه موجود بالفعل على أرض الواقع.

إلا أن للنماذج المنمطة حضورا قويا وطاغيا على جانبي خط التقسيم - الفاصل بين أولئك الذين يكرهون وأولئك الذين يزعمون بأنهم ضحايا الكراهية. لنأخذ على سبيل المثال المنشور الذي وزعته في مساجد بريطانيا الجماعة المتطرفة المعروفة باسم "حزب التحرير"، وذلك بعد بضعة أسابيع من أحداث الحادي

عشر من سبتمبر. وتحت عنوان "الحملة الهادفة لتخريب الإسلام كعقيدة ونظام"، يعلن المنشور أن أمريكا قد أعلنت البدء "بحملة صليبية ضد الإسلام والمسلمين". لأن "الكفار يغارون من وحدة المسلمين ويحسدون الإسلام على قوته". وأمريكا لا تترك فرصة متاحة دون أن تهزأ بالإسلام وتحقره، "وتذل أبناءه المخلصين، وتفسد مجتمعاته، وتنهب ثرواته، وتقتل الأبرياء، وتتحدى المسلمين ليل نهار في معتقدهم. وبينما استهدف الصليبيون في الماضي احتلال أجزاء من ديار الإسلام، فإن صليبيي اليوم يستهدفون في هجمتهم على الإسلام والمسلمين تدمير الإسلام بدفع المسلمين إلى التخلي عن عقيدتهم واعتناق عقيدة العلمانية". ويحث المنشور المسلمين على القبول "بالرأي الإسلامي الصحيح": "فالإسلام دين الحق وكل ما عداه باطل"، ويحضهم على قتال الأمريكان. فقتال الكافرين، كما ذكر، فرض عين على كافة المسلمين، لأنه تعالى "أرسى أساسا واضحا للعلاقة بين الإسلام وغيره من الأديان والملل. هذا الأساس يتمثل في أن الإسلام والكفر لا يلتقيان تحت أي ظرف مهما كان". الحل الوحيد هو الجهاد، الذي يجب فهمه فقط بأنه قتال[7]، مثل هذه الكراهية المدفوعة بدافع ديني ليست مقتصرة على "حزب التحرير" حصرا - إذ يمكن أن نجدها في بيانات

وخطابات العديد من الجماعات الأصولية والمتطرفة في الشرق الأوسط، وباكستان، وجنوب شرق آسيا.

لكن لمثل هذه الآراء نقيضها المعكوس أيضا، فبعد أن اتخذت الصحيفة السعودية الناطقة بالإنكليزية "عرب نيوز" (Arab News)، موقفا مناهضا لقصف أفغانستان بالقنابل، تلقى رئيس تحريرها سيلا دافقا من الرسائل عبر البريد الإلكتروني من أمريكا. أحد القراء من مونتانا كتب في الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر 2001 يقول: "أكرهكم جميعا. القرآن كتاب الشيطان، إبليس، تعاليم الشر، الكتاب الذي استخدم لتبرير القتل. كل من يعتنق الإسلام هو ابن الشيطان. لسوف يشهد المستقبل صراعا عنيفا، معركة ملتهبة بين الإسلام والمسيحية. وسوف يخلص مجاهدو المسيحية العالم من الجحيم الشيطاني الذي هو الإسلام..". قارئ آخر اسمه توم كتب في التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير 2002: "أنا أمريكي. أتحرق شوقا إلى الزمن الذي لا نعود فيه بحاجة للنفط السعودي، وعندها لن نضطر للتعامل معكم أيها المجانين. سيكون العالم مكانا أكثر أمانا إذا غاب عنه متطرفوكم المتدينون". اختار رئيس التحرير، وهو رجل محب لأمريكا درس في الولايات المتحدة وأرسل أربعة من أبنائه الخمسة

للدراسة في جامعاتها، اختار عدم تجاهل هذه الرسائل، وانخرط في حوار مع مرسليها. وتمكن بالتدريج، عبر استخدام منهج الاعتدال واللطف، من تهدئة غضب قرائه وإقناعهم بتجاوز النمطية العالقة في أذهانهم(8).

مشاعر الكره تتفاقم في العزلة. ويمكن تجاوزها أحيانا ـ لكن ليس دائما ـ بواسطة اللقاء والحوار. كريس تونسينغ، محرر "تقرير الشرق الأوسط" الذي يحظى باحترام كبير، يصف لقاء تم بينه وبين نادل مصري قابله عام 1998 في ميناء السويس الهادئ. يقول تونسينغ:

ما إن رشفت من قدح الشاي في مقهاه، حتى سحب كرسيا وجلس لنتبادل الحديث، على عادة المصريين مع الأجانب. وبعد وقت قصير من بدء حديثنا الودي، نظر في عيني وقال: "أريد الآن أن أطرح عليك سؤالا فظا: لماذا يكرهنا الأمريكان؟". رفعت حاجبي متسائلا، فاضطر لشرح ما يقصده، وزودني الشرح ببعض الرؤى المتبصرة عن السبب الذي يجعل الآخرين يكرهوننا.

العديد من قرارات الأمم المتحدة أكدت بوضوح على أن احتلال إسرائيل للضفة الغربية، وقطاع غزة، والقدس الشرقية، أمر غير شرعي. ومع ذلك تتلقى إسرائيل 40٪ من كافة

المساعدات الخارجية التي تقدمها الولايات المتحدة، أي أكثر 3.5 مليار دولار في السنة، بمعدل خمسمائة دولار لكل مواطن إسرائيلي (سيبلغ متوسط دخل الفرد في مصر 656 دولارا هذه السنة). وتستخدم إسرائيل كل هذه المعونة المالية لبناء مستوطنات جديدة على الأرض الفلسطينية، وشراء المقاتلات والحوامات الحربية الأمريكية. سأل النادل: "لماذا تدعم الولايات المتحدة إسرائيل التي تقمع العرب وتضطهدهم؟". وتابع قائلا إن الأدلة تثبت بكل وضوح أن الحظر الاقتصادي الذي تقوده الولايات المتحدة على العراق يعاقب المدنيين العراقيين بينما لا يؤثر كثيرا في نظام صدام حسين. وأيدت رأيه دراسة أجرتها "اليونيسيف" عام 1999 أظهرت فيها أن نصف مليون طفل عراقي تحت سن الخامسة سيكونون على قيد الحياة اليوم لو لم تكن العقوبات الاقتصادية موجودة. من المؤكد أن الأطفال العراقيين ليسوا أعداء للسلام والأمن الدوليين، كما أكد النادل في جداله العنيف، حتى وإن كان حاكمهم ديكتاتورا وحشيا. إن الولايات المتحدة تضغط بكل قوة من أجل استمرار العقوبات لأن صدام حسين يستخف ويهزأ بقرارات الأمم المتحدة، لكنها تقف إلى جانب إسرائيل حين استخفت بقرار مجلس الأمن رقم 242 (الذي طالب إسرائيل بالانسحاب من "أراض" احتلتها في حرب عام 1967) طيلة أكثر من ثلاثين سنة.

فالعرب والمسلمون يعانون كثيرا من هذه وغيرها من السياسات الأمريكية.

المنطق الوحيد الذي يستطيع هذا الشاب المصري رؤيته هو أن أمريكا تسعى إلى شن حرب عالمية ضد الإسلام، تكون فيها الغالبية الساحقة من الضحايا من المسلمين. واختتم بالقول إن أمريكا دولة ديمقراطية، ولذلك لابد أن الأمريكيين يكرهون المسلمين وإلا لما صادقوا على شن هذه الحرب[9].

يؤكد تونسينغ للشاب المصري بأنه ربما أصاب في مقدماته المنطقية لكنه أخطأ في النتيجة المستخلصة. فقد تكون الولايات المتحدة دولة ديمقراطية، لكن المواطنين الأمريكيين ليست لهم مدخلات مؤثرة في السياسية الخارجية للولايات المتحدة، فهم لا يختارون حلفاء وأعداء حكومتهم. وهم لا يدلون بأصواتهم حول جدول المعونات الخارجية، ولم تجر استفتاءات حول ما إذا كان من المتوجب دعم / أو عدم دعم إسرائيل في كافة والظروف، أو هل يتوجب على الولايات المتحدة استخدام حق النقض لإجهاض قرارات الأمم المتحدة. إذ يمتلك الأمريكيون، حسبما يقول تونسينغ، إحساسا أساسيا بالعدل والنزاهة، لكنهم نادرا ما حصلوا على معلومات دقيقة حول أثر السياسة الخارجية لبلادهم. ولذلك، بمقدور الشاب المصري أن

يسأل، وهو محق في سؤاله، ما الفائدة من ديمقراطيتكم وحريتكم؟

السؤال الذي تطرحه أمريكا إذن ليس فريدا متفردا. فهو ينعكس لدى "الناس" الذين تحاول فهمهم، وتعريفهم، وتحديدهم، الحشد الذي يخرج منه الإرهابيون. ومن منظور النادل المصري الشاب والعديد من المسلمين، أمريكا هي التي تكره المسلمين؛ وكراهيتهم لأمريكا تنبثق من هذا الإدراك.

يعترف تونسينغ أمام النادل المصري وأصدقائه بأن "النماذج الهوليودية المنمطة للعرب والمسلمين باعتبارهم متعصبين مسعورين يرفعون 'المصاحف'، تعزز الإدراك السائد بأن المسلمين وجدوا ليكونوا هدفا للكراهية والازدراء"[10]. وبمقدوره أن يضيف إن لدى شعوب العالم كله نفس الانطباع المستخلص من معظم الصحف والمجلات والدراسات الأكاديمية الأمريكية. وحين بعثت صحيفة "تورنتو ستار" (Toronto Star) أحد مراسليها للتجول في المكتبات وتقصي "أدب الكراهية" على رفوفها، كان ما اكتشفه مذهلا. ففي قسم المجلات في إحدى المكتبات وجد على غلاف عدد 2001/12/3 من مجلة "ناشيونال ريفيو" (National Review):

رسما لجورج بوش بهيئة أحد فرسان الصليبيين في القرون الوسطى، وضم العدد مقالا بعنوان: "الشهيد: جرائم ومجازر المسلمين ضد المسيحيين"، اقتبس فيه الكاتب النتيجة التي توصل إليها كتاب صمويل هنتنغتون "صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي": "المشكلة الأساسية أمام الغرب ليست الأصولية الإسلامية. بل الإسلام، الحضارة المختلفة التي اقتنع أتباعها بتفوق ثقافتهم وهجسوا بدونية قوتهم". صحيح أن المقال يبتعد كثيرا عن [كتاب هتلر] "كفاحي"، لكننا قد نسامح المسلم الذي يتصفح مجلات المكتبة ويصادف مثل هذا التصريح إذا شعر برعدة اخترقت عظامه من الجو البارد المحيط به[11]

أو كما علّق المفكر الشهير إدوارد سعيد، الذي أقام في نيويورك لسنين عديدة ودرّس في جامعة كولومبيا، في مقالة نشرت في "الأهرام الأسبوعي":

لا أعرف أمريكيا عربيا أو مسلما لا يشعر الآن بأنه ينتمي إلى معسكر الأعداء. إن وجودنا الآن في الولايات المتحدة يجعلنا نمر بتجربة اغتراب وعزلة بغيضة على

نحو خاص، ويحولنا إلى هدف لمشاعر العداء المنتشرة في كل مكان[12].

حين تكون القوالب النمطية الجاهزة هي المعيار، فإن المرآة تعكس المرآة، مثل تلك المرايا المحدبة في مدن الملاهي التي تشوه الصور المشوهة. لنأخذ على سبيل المثال المقالة التي كتبتها آن كولتر محررة مجلة "ناشيونال ريفيو" تحت عنوان: "إنها حرب":

ليس هذا بالوقت المناسب للدقة في تحديد الأفراد المتورطين بشكل مباشر في هذا الهجوم الإرهابي بالذات. إذ يشمل المسؤولون عنه كل من ابتسموا ردا على قتل مواطنين غيورين من أمثال باربرا اولسن، في أي مكان وجدوا فيه.. هؤلاء الذين يريدون تدمير بلادنا يعيشون بيننا، ويعملون في خطوطنا الجوية، ويخضعون في مطاراتنا لنفس التفتيش الذي يخضع له قاطع الأخشاب الذي يقطن ايداهو. وهو أمر يشبه قبول هجرة أفراد سلاح الجو النازي إلى أمريكا والعمل في خطوطنا الجوية خلال الحرب العالمية الثانية، فيما عدا أن هؤلاء لم يكونوا على هذا القدر من التعطش لسفك الدماء..

يجب أن نغزو بلادهم، ونقتل زعماءهم، وندفعهم إلى اعتناق المسيحية. لم نكن حريصين على تحديد مكان هتلر وكبار معاونيه فقط ومعاقبتهم دون غيرهم. لقد أبدنا المدن الألمانية عن بكرة أبيها، وقتلنا المدنيين. فتلك كانت حربا. وهذه حرب أيضا[13].

الغضب الذي اجتاح كيان كولتر لأن مشاعر الكراهية قد استهدفتها، عكس في النهاية نفس الاعتداء الذي اشتكى منه. كان رفضا متحديا لمعرفة أي شيء إضافي عن السياق والظروف التي يعيش فيها الآخرون، ويفكرون، ويتأثرون بالأحداث.

ثم هنالك ريك لوري الذي ذكر في موقع مجلة "ناشيونال ريفيو" على الإنترنت (موقع الويب الأول للمحافظين في أمريكا) أن "شعورا راوده بقصف مكة بالقنابل النووية". وعلق قائلا:

يبدو هذا مبالغة في العنف والقسوة، ولا أدري تماما بم أفكر. قصف مكة أمر متطرف إلى أقصى حد، لكن الضحايا ستكون قليلة وسيبعث بإشارة واضحة. الأديان عانت من مثل هذه النكسات الكارثية من قبل.. وعلى وجه العموم، حان الوقت لاتخاذ موقف جدي - بما في ذلك التفكير بماهية الرد، بحيث يكون له تأثير رادع قليلا - قبل أن يسقط آلاف مؤلفة من الأمريكيين ضحايا[14].

يتماهى كل من لوري وكولتر مع المشاعر العاطفية الشعبية وينطلق بالآراء الشائعة في الشارع الأمريكي. ترى، هل هذه الموجة العاطفية الكاسحة هي التي تصوغ السياسة، وتحدد الاستجابة السياسية والعسكرية؟ يفهم الناس داخل أمريكا أنه يوجد طيف واسع من الآراء، ويعرفون كيف تعمل. للغوغاء والعامة سياق، واستقطاب الرأي أصبح الآن المعيار الثابت في القنوات الإخبارية التي تبث على مدار الساعة، بعد أن تحولت إلى حلبة مصارعة حتى الموت، ولم تعد القضايا تخضع للحوار والجدل بقدر ما تستخدم كأدوات كليلة مثلمة. لكن أمريكا تقدم نفسها كأمة أعادت التوكيد حديثا على وحدة الهدف. إذن، هل يجب على الآخرين تجاهل تعليقات كولتر ولوري أم أخذها على محمل الجد؟ إذا كان خطابهما الطنان مجرد ضجيج في الخلفية، وليس سياسة جدية، فهل ينبغي علينا أن نسأل هل تنطبق هذه الفوارق التمييزية على كل جدل أو حوار آخر؟ هل يحول الضجيج الصاخب في الخلفية، الذي ينطلق من النماذج المنمطة الجاهزة و"الكليشيهات" الثقافية المبتذلة، بين أمريكا وبين تعلم ومعرفة المزيد عن الآراء التي تصدر عن هؤلاء الذين تسعى جاهدة لفهمهم والتعرف عليهم؟

العثور على النموذج المنمط يعني الظن بأننا وجدنا الجواب، في حين أن كل ما تخبطنا للوصول إليه هو جزء صغير من المشكلة. إذن، ما هو السبيل، وإلى أين الوجهة؟ سؤالنا يحتاج إجابات مؤسسة على المعرفة. إلى أين نلجأ لملء فجوة المعلومات؟ ومثلما بيّن إدوارد سعيد في مقالته في "الأهرام الأسبوعي":

تجاوزت وسائل الإعلام الحدود في تناول "الخبراء" و"المعلقين" للقضايا المتعلقة بالإرهاب، والإسلام، والعرب، وكان خطها تكراريا واختزاليا إلى ما لانهاية، ومعاديا ومشوها لتاريخنا، ومجتمعنا، وثقافتنا إلى درجة أن وسائل الإعلام ذاتها قد أصبحت أكثر قليلا من ذراع ضاربة في الحرب على الإرهاب في أفغانستان وغيرها..(15).

إدوارد سعيد هو مؤلف الدراسة الكلاسيكية "الاستشراق" (1978)، التي تناولت التقليد التراثي في الأدب والبحوث الأكاديمية، الذي قامت الحضارة الغربية من خلاله بتمثيل وإدراك الإسلام والمسلمين. لم يكن إدوارد سعيد المفكر الوحيد الذي أظهر كيف تدعم الأفكار العلمية الأكاديمية القوالب النمطية الراسخة في المخيلة الشعبية وتؤيدها وتنفخ فيها الروح. لقد تطورت التمثيلات الأساسية للمسلمين التي تقدمهم كمحاربين برابرة متعصبين، وفاسقين عاجزين، ومنحلين

منغمسين في الشهوات، يعيشون على نقيض من القانون الطبيعي، تطورت في وقت مبكر من بدء الدراسة الأكاديمية العالمة في الغرب وظلت تقاوم التغيير من ذلك الحين. أما فرضيتها المركزية فبقيت على الدوام مؤسسة على أن قصور وعجز وإخفاق المسلمين، كشعب ومجتمع، ناتجة جميعا عن معتقداتهم. وما استنتجته أوروبا القروسطية عن الإسلام والمسلمين وصفه المؤرخ البريطاني نورمان دانييل بأنه "المعرفة الجاهلة"، حيث حددت وعرفت حقائق يستحيل وجودها، في حين توفرت لنا الوسائل والأدوات لمعرفة الحقيقة الفعلية بطرائق مختلفة[16]. والأهم من كل ذلك أن الاستشراق الأكاديمي/ العلمي يدعم فكرة أن العاقبة الطبيعية لمعتقدات المسلمين تجسدها السمات والخصائص المميزة للنمط المعياري الذي وضعوا في قالبه. فقد اعتبر الإذعان والخضوع، والتزمت والتعصب، سمات محورية متأصلة في طبيعة الحضارة الإسلامية المكونة من كتلة واحدة صلبة ومتراصة. ومن التقاليد التراثية الراسخة عدم تفحص وتقصي تعددية وتنوع الآراء الموجودة في المجتمع الإسلامي، وعدم رؤية حقيقة أن الخطاب الحضاري هو الذي شكل أفراده وتاريخه، والاكتفاء باعتبار الاستثناء قاعدة والحد المتطرف معيارا.

كانت للسلطة المعرفية الاستشراقية عواقب وتبعات عملية هائلة. فقد أسست القواعد البنائية للكتب العلمية/ الفكرية، إضافة إلى الصحافة الشعبية، ووجدت متنفسا لها في شخصية الشرير المنمطة في الأفلام السينمائية علاوة على التفكير السياسي الاستراتيجي. لكن الأهم من كل ذلك، أنها وفرت دافعا للخوف والقلق ضمن العلاقات بين المواطنين العاديين غير المسلمين والسكان المسلمين في أوروبا وأمريكا. إذ لا تتواجد بواعث العنصرية والتمييز العنصري في طول أمريكا وعرضها في مواقف وتصرفات وأفعال الشريحة المتطرفة البغيضة وحسب. بل قد تكمن ضمنيا في المواقف العادية الشائعة، في معلومات الناس من ذوي النوايا الحسنة والمقاصد النبيلة، الذين يتصفون بالطيبة والرهافة والمشاعر الرقيقة.

لكن كيف يمكن للمعرفة أن تكون "معرفة جاهلة"؟ الاستشراق ليس فريدا في هذا السياق. فقد ظل العلماء والأكاديميون المتخصصون يؤكدون طيلة عقود عديدة على أن الأفارقة عرق "دوني"، عبيد بطبعهم، شعب بدائي "من الحطابين والسقاءين". ولم تكن الأحكام المسبقة المتحيزة هي التي أوجدت "المؤسسة الغربية". كما أطلق على نظام الرق لتلطيف بشاعته في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية. إذ

تلقت العبودية الدعم من العلم والاستقصاء العلمي البنيوي الذي تبناه علم التشريح، والبيولوجيا، ثم التركيبة الجينية للأعراق المختلفة. لم يتبخر ميراث هذه الكتلة المخزية من المعارف في الهواء، مثلما رأينا في الجدل الخلافي الذي دار حول "المخطط البياني" (1994)، الذي حاول أن يقدم الحجة على وجود فئة طبيعية من الأمريكيين، السود غالبا، يعانون من نقص في الذكاء والقدرات الإدراكية/ المعرفية الضرورية للتعامل مع مجتمع المعلومات[17]. تعتبر مثل هذه الأفكار اليوم خاطئة عموما، لا بوصفها نتاج تضليل وعناد وسوء حكم، بل باعتبارها إساءة استخدام واضحة للعلم والمعرفة. لكن التبعات السياسية والاجتماعية للمواقف المعتمدة على هذه المعرفة ما زالت تشوش وتربك العلاقات العرقية بين السود والبيض في أمريكا. وظل استئصال العنصرية المحبوكة في نسيج المجتمع الأمريكي عملية طويلة ومؤلمة، ومهمة لم تكتمل حتى الآن. كما أن لدى الأمريكيين المسلمين، والمسلمين في كافة أنحاء العالم بندا آخر يضيفونه إلى "أجندة" المهمات الضرورية: مغالبة ميراث التاريخ، والتخلص من العواقب السياسية والاجتماعية والثقافية للاستشراق. ففي أوقات الأزمات، من الأصعب، ومن الأهم والأشد ضرورة، وضع ما نعرفه ونعتبره معرفة موضع المساءلة والاستقصاء.

إذن، يجعل الاستشراق من المسلمين جماعة يتعذر فهمها لكن يمكن التنبؤ بفعلها. استمرارية هذا المنظور، واللجوء المتواصل إلى نفس المجموعة من المدركات في الأعمال والدراسات الأكاديمية، الأدبية، والتاريخية، والسياسية، إضافة إلى الأفلام الهوليودية، يفضيان إلى نتيجة مفادها أن الإسلام والغرب قد انخرطا في صراع الحضارات منذ بدأ النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالتبشير برسالته عام 610م. الاستشراق يمثل صالة أخرى من صالات المرايا المحرفة حيث لا تصبح الصور المشوهة مجرد أنماط شعبية مبتذلة فقط بل "معرفة ثقافية" أيضا.

على ضوء ما تقدم، هل نعتبر من المفاجئ أن يرى الكثيرون في الغرب "الحرب على الإرهاب" هذه الأيام بمثابة فاتحة استهلالية لتجدد صراع الحضارات؟ السؤال يتردد في كل صحيفة ومجلة. ولم يكن بحاجة لأن يطرحه العالم السياسي الأمريكي اليميني صمويل هنتنغتون. فالفكرة لم تغب بالفعل أبدا. هنالك إحساس نبوئي يتوقع ظهور أسامة بن لادن كشيطان يقود هجمة حضارته، نظرا لأنه يجسد العديد من التفاصيل الجوهرانية للصورة العابرة للزمان التي تقدست بفعل قدمها،

وينتظرها الغرب من مسلم يهرطق بالأفكار والأفعال والخطاب البلاغي الطنان.

لكل ذلك، هل يجب أن نفاجئ حين يفهم الرأي العام الأمريكي أحداث الحادي عشر من سبتمبر بوصفها تحققا للحد الأقصى من التنبؤات الاستشراقية؟ حقيقة الوضع أعقد من ذلك. يقول جوزيف اس. ناي، عميد كلية الإدارة السياسية بجامعة هارفارد: "لا يكرهوننا كلهم، ولا يجسد بن لادن المحفّز الوحيد للإرهاب. طائفة 'أوم شينريكيو'، التي هاجمت بالمواد الكيمائية السامة مترو الأنفاق في طوكيو قبل بضع سنين، انصب اهتمامها على استثارة حرب بين الولايات المتحدة واليابان. وتيموثي مكفي [المتهم بتفجيرات مدينة اوكلاهوما] إرهابي أنتجته البيئة المحلية. السؤال المهم هو هل بمقدور هذه الكتل الصلدة من الكره أن توسع جاذبيتها لتتجاوز إطار الجماعات الضيقة. الجواب عن ذلك يعتمد في جزء منه على ماذا تمثل الولايات المتحدة وماذا تفعل"[(18)].

ما تمثله الولايات المتحدة وتفعله أزعج وأقلق الكثيرين- خصوصا حشد المفكرين اليساريين الذين تطرقنا إليهم في الفصل الأول. لكن سيكون من الخطأ الافتراض بأن كل الناس في العالم اللاغربي يتبنون رأيا موحدا إزاء أمريكا. العائلة

المالكة الكويتية مثلا تشعر بامتنان كبير للولايات المتحدة ـ ولا تفوت فرصة دون أن تظهر حبها لها وتعاطفها معها. لكن في حين يعرب الكويتيون عن شكرهم لدعم أمريكا لقضيتهم (تحريرهم من الاحتلال العراقي)، فإن الفلسطينيين يكرهون أمريكا لعدم تأييدها لقضيتهم وامتناعها عن كبح جماح إسرائيل على وجه العموم. لا توجد لدى النخب في العالم الثالث، التي استفادت بشكل مباشر من المعونات الأمريكية أو الصفقات التجارية، ولا أنظمة الحكم التي بقيت في السلطة بفضل الدعم الأمريكي، أسباب تدعوها لكره الولايات المتحدة. الضغينة الحقيقية تكمن في أولئك الذين يعتبرون أنفسهم ـ لسبب من الأسباب ـ ضحايا لجبروت وسياسات الولايات المتحدة. ولا يضم هؤلاء فقط مليارا أو نحوه من سكان الأرض الذين ينحون باللائمة على برامج "الإصلاح الهيكلي" التي يفرضها صندوق النقد الدولي (وبالتالي أمريكا) عليهم فيبيتون لياليهم جائعين؛ أو كل أولئك الناس في آسيا وأفريقيا الذين يشيرون بأصابع الاتهام إلى الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية بسبب استيلائها على مواردهم الطبيعية، بدءا من البلازما الوراثية لقطعان مواشيهم، وانتهاء بعقاقيرهم وأعشابهم الطبية التقليدية الراسخة منذ القدم؛ أو أولئك الذين يعتبرون أنفسهم ـ صوابا أو خطأ ـ ضحايا للتدخل الأمريكي في أمريكا

اللاتينية؛ بل الفرنسيين أيضا ، الذين يشعرون بأن ثقافتهم تتعرض لتهديد القوة الماحقة للعولمة بقيادة أمريكا؛ واليابانيين والكوريين الجنوبيين الذين يشعرون بأن الوقت قد حان ليقولوا "لا" لأمريكا. من الواضح أن "الناس" الذين يملكون سببا لكره أمريكا ، أو يعتبرون كذلك، يشكلون حشودا ضخمة هائلة العدد. ولسوف نستكشف ونستقصي العديد من مصادر "الكراهية" ـ الغربية واللاغربية ـ في الفصول التالية.

وهنالك مظهر آخر من مظاهر سؤال الكراهية هذا. إذ إن للفظة ذاتها العديد من الاستعمالات والتدرج: "أكره البيض المسلوق"، "أكره موسيقى 'الراب'"، "أكره الأحكام العنصرية المسبقة". المدلول على درجة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى ذكر: من الممكن تماما أن تعارض شيئا إلى أقصى حد ، وتعتقد حقا بأن موسيقى "الراب" ، أو التمييز العنصري، أو أي شيء آخر "مكروه" ، ما كان يجب أن يوجد أو يحتمل، وتبغضه وتمقته بصدق، ومع ذلك تظل قادرا على التعايش السلمي معه في العالم الذي يتواجد فيه. الطريقة العفوية الذي تتحول عبرها الاختلافات السياسية الحقيقية إلى كراهية، وتصبح انتقادات التصرفات والسياسة الأمريكية مناهضة لأمريكا أو "أنشطة معادية" لها ، تعتبر وصفة ناجعة لإنهاء الحوار، وعدم فهم منطق الخلافات المتبادلة.

الكراهية إذن تعبير ملتبس. لكن هناك دلالة واحدة للكراهية جعلتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر أمرا لا مفر منه: الشر. "الناس" الذين يكرهون أمريكا جرى تصنيفهم مرارا وتكرارا في خانة "الشر" - "رجال أشرار"، "مرتكبو أفعال شريرة"، "محور الشر". ليس ثمة شك في حقيقة أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر فعل شرير، بالمعنى المعجمي للكلمة أي "الطالح، السيئ أخلاقيا، المؤذي والمضر". لكن الشر ليس فقط مفهوما معقدا ظل الفلاسفة الغربيون يجدون صعوبة في التعامل معه طيلة قرون؛ بل هو أيضا سلاح ذو حدين. السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" ذاته صب اهتمامه على طبيعة الشر.

الشر المحض / الخالص لا حل له سوى استئصاله، ومحاولات اجتثاث الشر تولد نفس العدد من المشكلات التي تحلها، إن لم يكن أكثر. كل الأديان تعلمنا أن تاريخ الوجود الإنساني هو عبارة عن كفاح نضالي ضد الشر. أما وصف "الآخر" بتعابير الشر المحض/ المطلق فهو أمر مغر لأنه لا يتطلب من الذات تفحص أفكارها ودوافعها ومشاعرها، ولا تقييما لأي سياق وظروف مساعدة. الانتقال إلى الشر كتفسير يحل كافة المعضلات المبهمة التي ترتبط بالكراهية. ويصبح دعوة "لتحديد عدو ما"، حسبما أشارت الصحفية البريطانية باربرا غونيل في

مجلة "نيو ستيتسمان" (New Statesman). الإدارة الأمريكية وقيادة طالبان وصفت كل منهما الأخرى بمصطلحات الشر. ففي حين أعلن الرئيس بوش أن "حربنا حرب ضد الإرهاب والشر"، رد الملا محمد عمر زعيم نظام طالبان بأنه لن يقبل أبدا بالحكومة التي نصبتها الولايات المتحدة، بدعم من الأمم المتحدة، في أفغانستان لأنها مكونة من "أشرار". وأعلن أيضا أن "أمريكا خلقت الشر الذي تهاجمه". مثل هذه الأحكام المجملة المتعجلة لا تفيد كثيرا في فهم ومعرفة الموضوع. تقول غونيل: "'محور الشر' لا يخبرنا شيئا عن تصرفات المواطنين في العراق أو إيران أو كوريا الشمالية (ناهيك عن علاقاتهم ببعضهم بعضا). فهو مجرد دعوة لتحديد أعدائنا. وعبر الحديث عنهم بوصفهم 'أشرارا'، لا نحتاج لأن نسأل لماذا يتصرفون على هذا النحو، ويشعرون بالغضب والحنق أو بالاضطهاد والقمع، ويؤثرون العمليات الإرهابية الانتحارية على الاحتجاج السلمي أو المعترك السياسي. الأسئلة التي نحتاج جميعا لإجابات عنها منذ الحادي عشر من سبتمبر تسقط كلها من 'الأجندة' إزاء توصيف 'الشر'. الشر يتطلب معارضة ومجابهة بدلا من التحليل أو الفهم"(19).

الشر مسألة أخلاقية، لكنه أشد تعقيدا بكثير مما يسمح به الخطاب السياسي الطنان المفرط في التبسيط. الأمر الذي يذكرنا بعبارة ت. س. اليوت المرعبة في مسرحية "جريمة في الكاتدرائية": "الخطيئة تنمو مع عمل الخير". إن جوهر الحكم الأخلاقي هو تفحص الذات، هو الاستعداد للخضوع لامتحان واستقصاء ما دعاه اليوت (في "الرباعيات الأربع") بـ"أفعال شريرة ارتكبتها وسببت الأذى للآخرين / واعتبرتها ذات مرة ممارسة للفضيلة". حتى الأقوى لا يملك بالضرورة كفاية من المعلومات أو السيطرة لتقدير العواقب المحتملة أو الفعلية لقراراته. إن القول بأننا جميعا يمكن أن نتمتع بالحكمة وندرك طبيعة الحدث بعد وقوعه هو مجرد "كليشيه" مبتذلة. لكن عبارة اليوت توحي بشيء أكثر صعوبة وإثارة للقلق: حقيقة أن افتراضاتنا حول الخير والشر ليست - من منظور معين - أحكاما أخلاقية على الإطلاق، بل تخمينات منحازة ترتكز على المصلحة الشخصية. فنحن نملك القدرة على فعل ما نعتبره نافعا وخيرا رغم ما يسببه من ضر وشر لنا وللآخرين. بالاستقصاء الدقيق فقط والتفكير المتروي بالأشياء من زوايا مختلفة نتمكن من تبين الأمور وتمييز الخير من الشر.

الأهداف التي تعرضت للهجوم في الحادي عشر من سبتمبر كانت منتقاة ومقصودة، واختيارها ارتبط مباشرة بسؤال لماذا يكره العالم أمريكا. مركز التجارة العالمي كان حين اكتمل بناؤه أعلى ناطحة سحاب في العالم، وغدا رمزا للاقتصاد العالمي في نظام اقتصادي معولم. أساساته راسخة في عمق تراب المدينة "الكوزموبوليتانية" الأولى في أغنى دولة على وجه الأرض. أما البنتاغون فهو مركز قيادة القوة العسكرية لأقوى دولة في التاريخ البشري. أمريكا، القوة العظمى الوحيدة، هي الآن الدولة الفريدة "المفرطة القوة". القوة المادية، استخدامها وسوء استخدامها، كيف يختبرها العالم /الناس خارج الولايات المتحدة - هي جميعا قنوات للبحث والتقصي تقلق الأمريكيين على ما يبدو واضحا في أعقاب هذه المأساة. لا يجب أن يقتصر الاهتمام بممارسة الفضيلة، التي قد تفضي إلى إلحاق الأذى بالآخرين، وبالتالي تصبح رذيلة تمكن الإثم من النمو عبر فعل الخير، لا يجب أن يقتصر على الحكومات ورجال الدولة فقط. وكما أعلن رونالد جي.هيرنغ، مدير "مركز ماريو اينودي للدراسات الدولية" في جامعة كورنيل، أمام تجمع لـ"أسبوع التعليم الدولي": "حرية أمريكا في العمل على المسرح العالمي تركت الكثيرين يتعثرون ويعانون بسبب عواقبها، النية الحسنة - إدراكنا الذاتي الوطني - لم تكن كافية. معظم الأمريكيين

لم يعاينوا سياستنا الخارجية من خلال عدسات أهدافها - أو لم يدرسوها على الإطلاق". ويعترض هيرنغ على وجه الخصوص على إجابة الرئيس بوش "بأنهم يكرهون حرياتنا". فبالنسبة له يتمثل الجواب الأفضل في أن مشاعر الاستياء من سوء استخدام القوة لدى كثير من الناس في العديد من بقاع العالم أشد تأثيرا من كرههم للحرية الأمريكية:

أولئك الذين يشعرون بأنهم تعرضوا للتهميش والإقصاء، أو الغدر أو الإذلال، أو الأذى والضر بسبب قوتنا ليسوا جزءا من مجتمعنا المحلي الذاتي. لقد بدأنا للتو مصالحة أنفسنا مع غضبهم، وانتشاره، وأسبابه الجذرية.

من المفارقة أن البحث عن الأسباب قد صور بأنه عمل غير وطني. العكس هو الصحيح: إذا فشلنا في فهم الأسباب فإننا كأمة سوف نفاقم ونضاعف الظروف المهددة الداهمة التي نبتلي بها الآن. وسنترك الخوف ميراثا للأجيال القادمة[20].

من الواضح أن كيفية إدراك أمريكا للآخرين وكيفية إدراك الآخرين لأمريكا تشكلان جوهر السؤال الذي نقوم باستكشافه. فأمريكا تؤثر، بشكل مباشر أو غير مباشر، في حياة كل فرد ومجتمع محلي وأمة على ظهر الأرض. ولذلك فإن

كافة الأجوبة الممكنة والمتنوعة للسؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" لا تتصل اتصالا وثيقا بالأمريكيين فقط بل بكل فرد في كل مكان في العالم. لقد كتب الشاعر روبرت بيرنز ذات مرة يقول: "أتمنى لو وهبنا الله / نعمة أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون". إن رؤية أنفسنا كما نبدو في عيون الآخرين تتطلب منا أن ننسى خرافاتنا وأساطيرنا ومدركاتنا لذواتنا. هنالك أكثر من أمريكا واحدة ـ إحداها تلك التي يدركها العالم، وضحايا القوة الأمريكية الطاغية، فهل يمكن لأمريكا أن ترى أمريكا الأخرى؟

بهذا نصل إلى الجزء الأخير من مكونات السؤال: أمريكا. الكاتب الألماني جوزيف جوف، المتخصص في تحليل السياسة الخارجية، قدم في مقالة له بعنوان "من يخاف السيد الكبير؟" (نشرت في مجلة "ذي ناشيونال انترست" The National Interest) توصيفا لأمريكا باعتبارها "خطرا داهما وإغواء مغريا في آن، ووحشا كاسرا ونموذجا يحتذى في نفس الوقت"[(21)]. لربما هو على صواب. فحين يريد الأمريكيون معرفة لماذا يكرههم العالم، عليهم مواجهة حقيقة أن العالم بأسره مرتبط بعلاقة حب/ كره مع أمريكا. المواطن العادي في أية دولة على الأرض يعرف عن أمريكا أكثر مما يعرفه عن أية دولة أخرى أو شعب

آخر. وما تفكر به أمريكا فيما يتعلق ببقية العالم، وما تعرضه وسائل إعلامها وأدوات الترفيه الشعبية العالمية التي تهيمن عليها، يستهلكه الناس في كل مكان. وبالتغاير مع ذلك، يعاني عامة الأمريكيين من نقص في الأخبار الأجنبية، وافتقار إلى معرفة الثقافات الشعبية الأجنبية، كما يحكمهم ممثلون منتخبون نادرا ما جازفوا بالسفر خارج أمريكا.

صحيح أن دولة ضخمة كبيرة في المساحة وعدد السكان مثل أمريكا ليست كتلة واحدة صلدة وصلبة، لكن لا توجد أمة تضاهيها في مسعاها الدؤوب لتدعيم ونشر وتشجيع شعور بالوحدة بين أفرادها، وإحساس بالهوية المشتركة، وميراث مشترك من الأفكار والتقاليد المستدامة. ولا توجد دولة استقلت حديثا في العالم الثالث تتفوق على أمريكا في اهتمامها بغرس الروح الوطنية في نفوس مواطنيها، أو في إبراز وإجلال وتبجيل رموزها الوطنية. وما تعلّمه وتلقنه لنفسها عن نفسها أمر مألوف ومعروف لدى القاصي والداني من سكان الأرض نتيجة الانتشار العالمي لوسائل إعلامها وثقافتها الاستهلاكية. وكما يشير جوف، هنالك ازدواجية مراوغة ومعقدة في استجابة العالم لأمريكا. فهو أكثر انتباها وتيقظا وملاحظة للتناقضات داخل أمريكا وفي تاريخها مقارنة بالأمريكيين أنفسهم؛ وأشد تلهفا

واهتماما واستعدادا لاستكشاف وتقصي ومناقشة هذه التناقضات من الأمريكيين. ومثلما لاحظ الرئيس كلينتون في خطاب له في جامعة كاليفورنيا عام 1997:

"لقد ولدنا مع إعلان الاستقلال الذي أكد على أننا خلقنا جميعا متساوين لكن مع دستور حافظ على الرق. ثم خضنا حربا أهلية دموية لإلغاء الرق، إنما بقينا غير متساوين بحكم القانون طيلة القرن التالي. تقدمنا عبر القارة باسم الحرية، لكننا طردنا سكان أمريكا الأصليين من أراضيهم. رحبنا بالمهاجرين، لكن كل موجة جديدة منهم شعرت بوخزة التمييز"[22].

من المؤكد أن مثل هذا التعليق لن يلقى ترحيبا لو قاله شخص غير أمريكي، ولاعتبر على الأرجح سافرا في عدائيته. لكن في عالم تتصل أجزاؤه اتصالا وثيقا ببعضها بعضا وتهيمن عليه القوة الأمريكية، لا يستطيع سكانه تجنب الاهتمام بأمريكا وكل ما هو أمريكي. بمقدور أمريكا أن تتصرف بطريقة مختلفة.

إلا أننا بحاجة إلى التعرف على كيفية إدراك الأمريكيين لأمريكا من أجل أن نفهم بشكل كامل العداء الذي يشعر به

الناس تجاهها. ولكي نفعل ذلك "نحن بحاجة لتحليل اللاوعي الأمريكي، أي المكان الذي تتموضع فيه أساطيرها ومدركاتها عن ذاتها"، كما لاحظ لين دول، أستاذ جامعة كاليفورنيا، الذي زار في معظم أصقاع العالم كخبير تابع لـ"اليونسيف" في شؤون الصحة والبنى الحضرية. أضاف دول قائلا:

".. وصل أسلاف الأمريكيين إلى هنا من أوروبا هربا من حكوماتهم البغيضة في رأيهم. تعرضوا للاضطهاد والقمع في أوروبا. ولذلك كان الإدراك مطابقا دوما لأسطورة لمؤلف قصص المغامرات الأمريكي] هوريشو الجير (1832 ـ 1899): "اعتمد على نفسك!". وإن توجب عليك القيام بالعمل من أجل الآخرين فلابد أن يكون الذين بحاجة إليك أقل شأنا وعددا. هذا نمط السلوك الطبيعي والعقلاني بالنسبة لهم لأنه جزء حيوي من أسطورتهم. لكن من منظور الآخرين، من السهل رؤية أن اتخاذ هذا الموقف أمر يحط من القدر، وليس من غير الطبيعي أو غير العقلاني بالنسبة للآخرين الشعور بالاستياء منه.

علاوة على ذلك، أمريكا بلاد كبيرة جدا، تتمتع بالاكتفاء الذاتي إلى حد يصبح فيه من السهل علينا تناسي أن

العالم الخارجي موجود فعلا، أو أننا على الأقل لا نحتاجه، وليس ثمة معنى في التعاون معه. نحن في موقع القيادة والمسؤولية. مرة أخرى، تؤدي أسطورة أن أمريكا هي العالم إلى أفعال وأعمال نراها طبيعية لكن يرمقها العالم بعين الشك والريبة، وهو محق في ذلك. التعاون الأحادي الجانب، أي التعاون الذرائعي من أجل المنفعة السياسية وحسب، ليس سوى فهم أبوي/ بطركي خالص ويظهر ازدراء تحقيريا للآخرين. وحين تتجاهل [أمريكا] قضايا مثل التلوث وارتفاع حرارة الأرض، فإنها ترسل إشارة مفادها أن الشيء الوحيد المهم في العالم هو أمريكا. وليس من المفاجئ ألا ينظر أولئك الذين يضطرون لمعايشة عواقب التلوث وارتفاع حرارة الأرض إلى أمريكا نظرة ملؤها الحب والتعاطف والود.

مرة أخرى، انظر إلى وسائل الإعلام الأمريكية التي تبث رسالة مستمرة ومؤيدة عن الثروة، والقوة، والعنف، والجريمة، والعدوانية الخارجة عن حدود السيطرة. الموسيقى الشعبية (POP) تفعل الشيء ذاته. ذلك شيء مريع نصدره كصورة لنا. وهي صورة تلازم أمريكا بشكل طبيعي لأنها موجودة هناك في أساطيرنا المؤسسة[23].

في الفصلين الخامس والسادس سوف نعاين من مسافة أقرب الأساطير والروايات المؤسسة لأمريكا ، وكيف شكلت صورتها الذاتية. لكن دعونا نرى أولا كيف يدرك معظم سكان العالم أمريكا ، وكيف كانت تجربة "الآخر" مع القوة السياسية والثقافية لأمريكا خلال العقود الخمسة الأخيرة.

الفصل الثالث:

أمريكا والعالم باعتباره أمريكا

"الحقيقة تجرح أحيانا".

نتعلم الكثير من شعار المسلسل التلفزيوني "الاسم المستعار"(Alias) الذي أنتجته شركة "ايه بي سي" (ABC)، وتدور قصته حول طالبة متخرجة من الجامعة وجدت نفسها عميلة سرية مزدوجة ورفيعة المستوى. وصف المسلسل بأنه يعرض تسلية هروبية ممتازة ولا يقدم أية اعتذارات. لكنه، بأحداثه التي ابتكرت بأسلوب بارع يحبس الأنفاس وحبكته المنافية للعقل والمنطق، يخبرنا الكثير عن أمريكا وكيف ترى العالم الخارجي.

أشرنا في الفصل الأول إلى أن الأفلام السينمائية والتلفزيونية تعكس "الواقع" وتبنيه في ذات الوقت. ولا تكتفي بـ"بث" أيديولوجية معينة فقط؛ بل هي أيديولوجيا بحد ذاتها، مثلما لاحظ الروائي والناقد الإيطالي امبرتو ايكو. ومسلسل "الاسم المستعار" أيديولوجيا أمريكية بامتياز. في المسلسل تكتشف سيدني بريستو، الشابة النشيطة الرياضية أن وكالة

الاستخبارات التي تعمل فيها، "سي دي - 6"، ليست فرعا سريا تابعا لوكالة المخابرات المركزية "سي أي ايه" (CIA) بل هي معادية للعالم الحر. وأنها في الحقيقة لا تحارب من أجل القيم الأمريكية، وإنما لصالح أعداء أمريكا. تسعى سيدني لطلب العون من وكالة المخابرات المركزية "الحقيقية" وتتحول إلى عميلة مزدوجة: مهمتها متابعة العمل في وكالة "اس دي-6" وإرسال تقارير بما تكتشفه إلى وكالة "سي. أي. ايه". في واقع الأمر لم نتمكن، نحن المشاهدون، ولا حتى سيدني، من تمييز الفارق بين أهداف وقيم الوكالتين، الحقيقية والمزيفة. وسرعان ما تكتشف سيدني أن أبيها الذي هجر العائلة ويعمل ظاهريا في وكالة "اس دي-6"، ليس عميلا مزدوجا لوكالة المخابرات المركزية "سي أي ايه" فقط، بل لمكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) أيضا، وأن أمها كانت تقوم بعمليات اغتيال لصالح المخابرات السوفييتية (KGB)، وأن وكالات الاستخبارات العالمية تخوض معركة دموية للحصول على كتاب قديم عمره خمسمائة سنة، ابتكر فيه عالم إيطالي من عصر النهضة مخططا مستقبليا لتقانة القرن الحادي والعشرين!

لسدني شخصية ثنائية، مثل أمريكا بالضبط: في ذاتها العادية، تجسد البراءة والفضيلة، وتشعر باستمرار بالقلق وعدم

الأمان، وتحاول جاهدة تحسين مستواها الدراسي، وتواسي زميلتها التي تساكنها الشقة لتسلو لوعة هجران الحبيب، وتأسف لفقد خطيبها، وتغضب من أبيها الذي هجر العائلة، وتفكر بأمها، وتصد محاولات صديقها الصحفي الأحمق. وهنالك غيض من حالات تفحص المشاعر الذاتية، وتناول الشراب، والاستلقاء على الأرائك الوثيرة، والأحاديث الإنسانية الرقيقة المتبادلة في حياتها العادية. ولكنها حالما تقوم بمهمة ما تتحول إلى آلة مقاتلة بأسها شديد. وبمساعدة أحدث وسائل التقانة المتقدمة (التي تُركّب بواسطة رجل مهووس وبليد داخل وكالة "اس دي - 6")، تقاتل مثل "المُبيد" (في الفيلم الشهير، Terminator)، وتركل، وتقفز من ناطحات السحاب، وتخرق بقضيب هوائي السيارة عيون مهاجميها. تصبح هنا باردة كليا وعاقدة العزم تماما، حتى حين يقتلع الأشرار الذين قاموا باستجوابها إحدى أضراسها بكماشة. تنتهي كل حلقة وسيدني في خطر داهم مميت، لتتجاوزه بثقة مطلقة وحرفية تامة.

بالنسبة لمسلسل "الاسم المستعار"، أمريكا هي العالم. المشاهد في الحلقة المعتادة تنتقل بسرعة الضوء من لوس أنجلوس إلى القاهرة وموسكو، وروما واكسفورد، وتوسكانا وجنيف، ومدريد وساو باولو، من المصحة العقلية في بخارست إلى

الصحراء القاحلة في الأرجنتين، قبل العودة إلى لوس أنجلوس مجددا. باقي العالم مجرد "شرفة" لأمريكا، حيث يوضع الأشرار - أعداء وكالة "سي أي ايه" إضافة إلى وكالة "اس دي - 6" - الذين يمكن تمييزهم بوصفهم "الآخر"، في مكانهم المناسب بشكل حازم وصارم. كل مكان تذهب إليه سيدني لتنفيذ مهماتها، يبدو - بغض النظر عن بعض التفاصيل الثانوية وبعض الأهالي ذوي المظهر الغريب - مثل لوس أنجلوس تماما، حيث صوّر المسلسل. وأنى نظرت، وحيثما التفتت، تتبنى سيدني نفس المنظور. وليس من المفاجئ أنها تتحرك في أرجاء العالم اللاأمريكي وكأنها في باحة منزلها الخلفية، وتعود من كل مهمة وكأنها خرجت للتسوق في مجمع الحي. أعداؤها أيضا موجودون في كل مكان ومن كل الأصناف والأجناس والألوان: عرب وصينيون، روس وكوبيون - كلهم يعملون ضمن شبكات مستقلة وسرية.

ما يظهره "الاسم المستعار" ليس حقيقة أن أمريكا تريد أن تحكم العالم، بل واقع أنها تحكمه فعلا، ذلك أكثر ملاءمة للوقائع وأقرب إلى طبيعة الأشياء. الأمم والدول والحدود الجغرافية والبنى السياسية ليست مهمة؛ المهم هو جماعات من الشبكات المتنازعة تسعى وراء مصالحها على مسرح العالم.

ليس هناك قوى متنافسة لأنه لا يوجد سوى قوة واحدة، مصدر وحيد للقانون والنظام. في مثل هذا النظام الطبيعي، لا معنى للحديث عن الإمبراطورية والإمبريالية والاستعمار الأمريكي، وفي الحقيقة، إن مثل هذا الخطاب الطنان والتحليل المبتذل قد عفاهما الزمن وهو أمر خطير. الإمبراطوريات تتطلب مستعمرات يجبر فيها الأهالي رغما عن إرادتهم على الخضوع والإذعان؛ والاستعمار يستلزم وجود حاضرة مهيمنة تحاول اقتناص الأسواق وفرض حكمها على بلد بعيد. لكن عالم اليوم يشبه استطالة ممتدة للمجتمع الأمريكي، حيث يقوم كافة الأفراد والجماعات والمجتمعات المحلية - عموما - باعتناق الثقافة والقيم الأمريكية عن طيب خاطر. المسافة فقدت معناها، كما يظهر المسلسل بكل وضوح. وبغض النظر عن بضع "دول مارقة" وشاذة، يندر وجود "أقطار نائية" بحاجة لأن "تتأثر" بالإمبريالية المجردة. ولذلك فإن أمريكا ليست قوة إمبريالية/ استعمارية عتيقة الطراز تسعى وراء "مجالات النفوذ" وتتنافس مع القوى الاستعمارية الكبرى: فهي دولة مفرطة القوة وليس لها نظير ولا شبيه ولا مثيل. ولا نفاجئ إذن من إدراك المسلسل للعالم بوصفه أمريكا. أمريكا هي العالم؛ والعالم هو أمريكا.

إذا كان العالم هو أمريكا، فهذا يستدعي لزوما أن تكون مصالح واهتمامات أمريكا هي مصالح واهتمامات العالم، وكل الذين يعملون ضد مصالح أو ثقافة أمريكا أو منظورها للعالم، يعملون في الواقع ضد رفاهه وسعادته وأمنه. هذه الدول والجماعات من الناس تشبه العديد من المشبوهين، والأوغاد، والمجرمين الذين يجدهم المرء في أي "غيتو" أمريكي؛ ولذلك يجب إحضارهم إلى قبضة العدالة من أي بقعة كانوا فيها بأسرع وقت وبأكفأ طريقة ممكنة. ذلك هو منطق عمليات التدخل العسكري الأمريكي طيلة أكثر من قرن. وفي الحقيقة تدخلت أمريكا عسكريا في الدول الأخرى بنفس السهولة والوتيرة التي أنجزت بهما سيدني، العميلة المزدوجة المتفوقة، مهماتها الخارجية. فقد أرسلت الولايات المتحدة جنودها إلى بلاد نائية مثل الصين، وكوريا، وفيتنام، وإندونيسيا، وأخرى قريبة منها مثل كوستاريكا، وغواتيمالا، وغرينادا.

في وقت مبكر يرجع إلى عام 1823، أوجد الرئيس جيمس مونرو (1817-1825) عقيدة باتت تعرف باسم "مبدأ مونرو". أصبح بموجبه النصف الغربي الأمريكي من العالم خارج حدود المغامرات الأوروبية، حيث اعتبرت أية محاولة من

هذا القبيل تهديدا "خطرا على سلامنا وأمننا". كل ما كان يحدث في الأمريكيتين كان يعني الولايات المتحدة بشكل مباشر، وعلى أساس هذه الفرضية، يصعب أن نجد دولة في أمريكا اللاتينية لم تكابد ويلات الطغيان الأمريكي. ومازال تدخل الولايات المتحدة في تشيلي عام 1973 عالقا في الأذهان، حين أسقطت حكومة سلفادور الليندي (1970 ـ 1973) المنتخبة ديمقراطيا ونصبت الديكتاتور اليميني الجنرال اوغستو بينوشيه. لم يكن الليندي "مهرطقا" ظهر حديثا، بل كان جزءا من العملية السياسية الداخلية في تشيلي منذ عهد طويل. ولم يقتصر الأمر على اغتيال الليندي، بل جرى اعتقال آلاف مؤلفة من مؤيديه، وعذبوا وقتلوا ـ بمن فيهم بعض المواطنين الأمريكيين ـ وذلك بدعم وتشجيع من حكومة الولايات المتحدة، أو تغاضيها عما حدث في أفضل الأحوال.

ثم هناك نيكاراغوا، حيث خاضت الولايات المتحدة في الثمانينات حربا مريرة وطويلة ضد نظام الساندينيين اليساري. كان هذا التدخل نسخة طبق الأصل تقريبا عما حدث عام 1927 عندما أجاز الرئيس الأمريكي كالفين كوليج (1923 ـ 1929) الغزو العسكري الأمريكي الثاني عشر لنيكاراغوا في أقل من ثلاثة أرباع القرن، لقلب نظام حكم الحزب الليبرالي، الذي

كان اوغستو سيزار ساندينو أحد زعمائه. الليبراليون المؤيدون لساندينو، مثل الساندينيين اللاحقين الذين حملوا اسمه تخليدا لذكرى نضاله، كانوا في رأي الولايات المتحدة "متخمين بالأفكار البلشفية". ومثلما أثبتت جلسات الاستماع للشهادات المتعلقة بفضيحة إيران - كونترا[1]، تشبثت حكومة الولايات المتحدة بدعمها لمتمردي الكونترا وتمويلهم من أرباح تجارة المخدرات، متحدية في ذلك قرارات الكونغرس. أما الأس المنطقي لمعارضة الساندينيين ودعم متمردي الكونترا (الذين اشتهروا باتباع أساليب الترهيب والتخويف والقتل والتعذيب ضد المواطنين الأبرياء في نيكاراغوا)، فتمثل في كون الساندينيين، على شاكلة "البلاشفة"، النقيض الضدي للديمقراطية. لكن الساندينيين "غير الديمقراطيين" حين هزموا في الانتخابات العامة التي جرت في نيكاراغوا في شباط / فبراير 1990، تنحوا عن السلطة. علاوة على ذلك، قاد دانييل اورتيغا حزب الساندنيستا في ثلاثة انتخابات لاحقة، وقبل في المرات الثلاث حكم الناخبين السلبي في نيكاراغوا. وتبين أن الأغلبية الساحقة من مواطني نيكاراغوا قدَّروا، فيما وراء القضايا المباشرة لسياستهم الداخلية، أن بلادهم ستكون في وضع أكثر أمانا وستتمتع بالسلام على الأرجح إن بقي اورتيغا خارج الحكم كي لا يستفز الولايات المتحدة لتتدخل مرة أخرى في نيكاراغوا.

في تشرين الأول/أكتوبر 1983، قامت الولايات المتحدة بغزو غرينادا، الجزيرة الصغيرة في البحر الكاريبي؛ والقائمة تطول: فقد كررت الولايات المتحدة تدخلها العسكري والسري في كل دول أمريكا اللاتينية تقريبا: بوليفيا، البرازيل، كولومبيا، كوبا، الدومينيكان، الإكوادور، السلفادور، غواتيمالا، هايتي، هندوراس، جمايكا، المكسيك، بنما، البيرو، سورينام، أورغواي. في الظاهر، كانت عمليات التدخل هذه دفاعا عن "الديمقراطية"، و"حقوق الإنسان"، و"الحرية"، لكنها انتهت على الدوام بتأمين وضمان أسواق لأمريكا. كما حدثت كلها لدعم /أو تصيب بعض من أشهر منتهكي مبادئ "الديمقراطية" و"حقوق الإنسان"، و"الحرية". أما الذين دفعوا ثمن ضمان المصالح الحيوية للولايات المتحدة فكانوا مواطنين عاديين أبرياء تعرضوا في هذه الدول للذبح والسجن والتعذيب، وظلوا يرزحون تحت ذات البنى الاقتصادية التقييدية التي توارثوها عن الاستعمار الإسباني، وعملت على تأبيد فقرهم المدقع، وإطالة أمد كافة الشرور والأضرار الناتجة عن غياب العدالة وانعدام الفرص المتساوية.

بعد مأساة الحادي عشر من سبتمبر مباشرة، نشر زولتان غروسمان، وهو ناشط أمريكي في مجال السلام العالمي

ومساهما منتظما في المجلة الراديكالية "كاونتربنش" (Counterpunch)، قائمة بعنوان "قرن من عمليات التدخل العسكرية الأمريكية، بدءا بونديد ني وانتهاء بأفغانستان"، وذلك بالاعتماد على محفوظات الكونغرس وخدمات أبحاث مكتبة الكونغرس (انظر نهاية هذا الفصل). يدرج غروسمان 134 عملية تدخل، صغيرة وكبيرة، عالمية ومحلية، قامت بها الولايات المتحدة خلال 111 سنة بين عامي 1890 ـ 2001. وتظهر القائمة أن معدل عمليات التدخل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية بلغ 1.15 عملية كل سنة؛ وارتفع إلى 1.29 خلال الحرب الباردة. وبعد سقوط جدار برلين، زاد المعدل ليصل إلى عمليتين اثنتين كل سنة. وهكذا، ازدادت عمليات التدخل التي قامت بها الولايات المتحدة لحماية "مصالحها" مع توسع الإمبريالية الأمريكية المفرط. علاوة على ذلك، وكما يظهر يوهان غالتونغ مدير شبكة "ترانسيند" (شبكة السلام والتنمية) في كتابه "بحثا عن السلام" (2002)، فإن الأنماط المكانية لعمليات التدخل تغيرت تغيرا حادا في حقبة ما بعد الحرب[2]. إذ تركز التدخل الأمريكي أولا على شرق آسيا (كوريا، فيتنام، إندونيسيا، إضافة إلى إيران)، وكان متطرفا في عنفه وضراوته. أما بؤرة التركيز الثانية فكانت أوروبا الشرقية (بما في ذلك الاتحاد السوفييتي)، لكن نتيجة وجود قوة عظمى مقابلة، لم

تكن عمليات التدخل عنيفة بشكل سافر. المرحلة الثالثة كانت في أمريكا اللاتينية، بدءا بكوبا ووصولا إلى معظم دول القارة. العنف هنا كان محدودا وشاملا في آن، لكنه لم يصل إلى ضراوة العنف الذي استخدم في شرق آسيا. المرحلة الرابعة تركزت على غرب آسيا، بدءا بفلسطين وإيران، مرورا بليبيا ولبنان/ سورية، ووصولا إلى العراق في التسعينيات، ثم إلى أفغانستان في بداية القرن الحادي والعشرين. إذن، انتقلت عمليات التدخل من المجتمعات الكونفوشيوسية - البوذية، إلى الثقافتين المسيحية الأرثوذكسية والمسيحية الكاثوليكية، وأخيرا إلى الحضارة الإسلامية.

لقد اكتسب العالم معظم مدركاته الشعبية الشائعة عن أمريكا، وعرف رأي أمريكا بالعالم من خلال مسلسلات تلفزيونية مثل "الاسم المستعار"، وأفلام هوليودية مثل "الفعل التنفيذي"، و"الحصار". لكن الإدراك ارتكز أيضا على التجربة المتعينة الملموسة - على سبيل المثال، كيفية تصرف الولايات المتحدة في المنتديات الدولية كالأمم المتحدة. في الحقيقة، لا يبتعد مسلك الولايات المتحدة في الأمم المتحدة كثيرا عن منطق وكالة "اس دي-6" في مسلسل "الاسم المستعار": نظرا لأننا نتحكم بالعالم، يمكننا أن نفعل به ما نشاء. ومثلما يشير

الأمين العام السابق للأمم المتحدة، بطرس بطرس غالي في كتابه "الغالب: ملحمة الولايات المتحدة - الأمم المتحدة"، أصبحت الأمم المتحدة الآن من أملاك قوة وحيدة - الولايات المتحدة - تتلاعب بالهيئة الدولية وتستغلها لمصلحتها الذاتية، وذلك من خلال الترهيب والتهديد واستخدام حق النقض[3]. فحين يتناسب الوضع مع مصالحها، تستخدم الأمم المتحدة لشرعنة أفعالها، وبناء التحالفات، وفرض العقوبات على "الدول المارقة". وحين يعارض الرأي العام العالمي الولايات المتحدة، تتعامل مع الأمم المتحدة بازدراء تام. ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية، كانت الولايات المتحدة المحرك الرئيس في إنشاء المنظمة الدولية - والمبادرات التي أطلقتها مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان - كمؤسسة لتعزيز ومؤازرة ونشر "الديمقراطية" و"الحرية" على غرار النموذج الغربي لتصبحا معيارا عالميا. لكن على مدى تاريخ الأمم المتحدة، استخدمت الولايات المتحدة باستمرار حق النقض لعرقلة صدور أي قرار أو إعلان لا يعكس أولوياتها أو مصالحها التجارية. يقول وليام بلوم في كتابه "الدولة المارقة" (2001): "وجدت الولايات المتحدة نفسها بشكل متكرر يلفت الانتباه أنها تقف - لوحدها، أو مع دولة أو اثنتين - موقفا يعارض قرارات الجمعية العامة التي تستهدف تعزيز ومساندة حقوق الإنسان، وتدعيم السلام، ونزع الأسلحة النووية، وتحقيق

العدالة الاقتصادية، ومؤازرة الكفاح ضد النظام العنصري في جنوب أفريقيا، وخروج إسرائيل السافر على القانون، وغير ذلك من القضايا التقدمية". ويعدد بلوم مائة وخمسين مثالا على حالات تكررت بين عامي 1984 ـ1987 كانت فيها الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي صوتت بـ "لا" ضد قرارات الجمعية العامة[4].

بالإضافة إلى كل ذلك، لم تدفع الولايات المتحدة المستحقات المترتبة عليها للأمم المتحدة منذ عقود من السنين. وحين وافقت في نهاية المطاف (من حيث المبدأ) على دفع المستحقات المتأخرة مقابل إجراء تخفيض عليها، رفضت الوفاء بوعدها. أما مشاعر الاستياء من الولايات المتحدة في الاجتماعات العادية للأمم المتحدة فوصلت إلى درجة من الحدة بحيث يمكن الإحساس بها في جو القاعات. هذا الاستياء هو الذي أدى إلى قيام "المجلس الاقتصادي والاجتماعي" التابع للأمم المتحدة بطرد الولايات المتحدة من لجنة حقوق الإنسان التي تضم خمسة وثلاثين عضوا في أيار/ مايو 2001. وهو أمر يحدث لأول مرة منذ تأسيس اللجنة في عام 1946. قرار اللجنة اتخذ عبر الاقتراع السري، ولربما يتوقع المرء أن هذا الإجراء قد اتخذ بمبادرة من دول العالم الثالث التي تملك سلسلة طويلة من المظالم

والشكاوى. لكن في الحقيقة، فإن أصوات الدول الأوروبية و"الصديقة" هي التي أخرجت الولايات المتحدة من اللجنة في نهاية المطاف. وأصيبت الولايات المتحدة بهزيمة مماثلة عام 1998، حين طردت من (ثم أعيدت فيما بعد إلى) اللجنة الاستشارية حول المسائل الإدارية والميزانية التابعة للأمم المتحدة، وهي لجنة أساسية تتعامل مع قضايا التمويل في الهيئة الدولية برمتها.

عارضت الولايات المتحدة بإلحاح متواصل مبادرات الأمم المتحدة المهمة في مجال حقوق الإنسان. وهي إحدى اثنتين من الدول فقط - الأخرى العراق - التي لم تصادق حتى الآن على ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الطفل الذي يشكل معلما أساسيا من معالم إنجازات المنظمة الدولية. كما امتنعت عن المصادقة على معاهدة حظر الألغام الأرضية وميثاق تأسيس محكمة الجنايات الدولية. وتبعا للجنة الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب التي تراقب وتشرف على ممارسات وأعمال الدول الأعضاء، ثابرت الولايات المتحدة بعناد على انتهاك الميثاق الدولي لمناهضة التعذيب: فالقوات الأمريكية الخاصة (أصحاب القبعات الخضر) استخدمت بشكل روتيني مختلف أساليب التعذيب خلال التحقيق مع أسرى الحرب في فيتنام، وعذبت وكالة المخابرات المركزية (CIA) من تشتبه بهم من المتسللين إلى

منظمات المهاجرين السوفييت في أوروبا الغربية، ودربت الولايات المتحدة وساندت "السافاك"، جهاز المخابرات السيئ الصيت في عهد شاه إيران، كما دربت وزودت أجهزة الاستخبارات في بوليفيا وأورغواي والبرازيل وإسرائيل بالأساليب التقنية وأدوات التعذيب المتطورة، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. وكما لاحظ بلوم، كانت الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي عارضت في عامي 1982 و 1983 إعلان أن التعليم والعمل والرعاية الصحية والغذاء المناسب والتنمية الوطنية هي من حقوق الإنسان. وبدا أنه حتى بعد مرور ثلاثة عشر عاما لم يطرأ على المواقف الأمريكية أي تغيير "يخفف من حدتها". ففي عام 1996 شددت على هذه المواقف خلال انعقاد قمة الغذاء العالمي برعاية الأمم المتحدة التي أكدت على "حق كل فرد بالحصول على غذاء مفيد وآمن". فقد أصرت على أنها لا تعترف "بالحق في الغذاء". وبالنسبة لشعوب الدول النامية، تشكل هذه الحقوق - التي أيدها المجتمع الدولي ودافع عنها باعتبارها معايير عالمية - جزءا من نضالها ضد ممارسات الاستبداد والطغيان، والفساد والظلم المنتشرة على نطاق واسع داخل دولها، مثلما هي جزء من الكفاح ضد الشركات والمنظمات التابعة للدول الأجنبية. فضمن سياق وتاريخ شعوب العالم الثالث، يفتح تأسيس وترسيخ هذه المبادئ كحقوق ثابتة باب الحوار والجدل حول ميراث

المظالم الذي مازال يخلق العديد من حالات عدم المساواة، والفقر، وغياب الفرص العادلة؛ كما يزودها بإمكانية "إحداث التغيير". لكن واشنطن دعمت وآزرت قضية واحدة لا غير: حرية التجارة[5].

إذا كانت أمريكا هي العالم، فهي لا تحتاج للمؤسسات والهيئات الدولية لإدارة سياستها الخارجية والاقتصادية. وعلى وجه العموم، لم تبد الولايات المتحدة اهتماما كبيرا بالهيئات الدولية مثل "برنامج الأمم المتحدة للتنمية" (UNDP)، و"منظمة التربية والعلوم والثقافة" التابعة للأمم المتحدة (UNESCO)، و"المفوضية العليا للاجئين" (UNHCR). أما المؤسسة الوحيدة التي تحافظ أمريكا على سيطرة تامة عليها فهي "منظمة التجارة الدولية" (WTO). وفي الحقيقة، كثيرا ما أشار المراقبون إلى أن منظمة التجارة الدولية ليست سوى أداة رئيسية للحفاظ على "الاستعمار الأمريكي الجديد". لكن هذا يعيدنا إلى أسلوب عتيق تجاوزه الزمن في مقارناته مع الإمبراطوريات الأوروبية. إذ تعتبر التقانة اليوم المادة اللاصقة التي تربط الإنتاج والتوزيع وأنظمة السوق، وتصل بين المنتجين والمصممين والمستهلكين، وتمكن رأس المال والسلع الثقافية من الانطلاق في مختلف أنحاء العالم دون أي اعتبار للحدود. وكما نرى في

مسلسل "الاسم المستعار"، فإن التكنولوجيا هي التي تمكن سيدني من أداء مهمتها بمثل تلك السهولة. ففي أي مكان في العالم تسافر إليه، تظل على اتصال مستمر برؤسائها. وبمقدورها أن تفتح صندوق الودائع في أي مصرف محاط بأشد إجراءات الأمن احترازا بخلال ثوان قليلة، وذلك باستخدام الأدوات القاطعة التي تعمل بالليزر، وتطلب النجدة من حوامة الـ"سي أي ايه" بشكل آني ومن مسافات بعيدة. وعلى نحو مشابه، فإن تقانة أمريكا الكلية القدرة والكفاءة، التي يصل مدى نفوذها وتأثيرها إلى كل مكان، هي التي تمكنها من العمل والأداء كدولة مفرطة القوة. وفي عالم تتصل أجزاءه اتصالا وثيقا مع بعضها بعضا، حيث يمكن أن تنتقل ملكية مبلغ 1.5 تريليون دولار من طرف لآخر بخلال يوم واحد، تتجمع كل أوراق اللعب في أيدي أولئك الذين يتحكمون بالتقانة والمعلومات. الأمر الذي يؤدي إلى قيام إمبريالية استعمارية جديدة مفرطة القوة.

لا تشمل المنتديات المختارة لتعزيز وتكريس القوة المفرطة للولايات المتحدة والحفاظ على الإمبريالية التقانية، منظمة التجارة الدولية (WTO) فقط، بل تضم صندوق النقد الدولي (IMF) والبنك الدولي أيضا. هنالك سببان رئيسان اثنان وراء ذلك.

أولا ، هذه المؤسسات العالمية الثلاث لا تتصف لا بالشفافية ولا بالديمقراطية. والسرية التي تحيط بعملية اتخاذ القرار فيها تجعلها هيئات مثالية لإبقاء العالم المضطرب على مبعدة مسافة منها. ثانيا ، تمتلك منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي آليات مؤثرة لتنفيذ الالتزامات ، خصوصا بالنسبة للدول النامية: الأولى من خلال التهديد بالرد ضد تصدير هذه الدول للسلع ، والثاني بواسطة شروط الإقراض القاسية التي تفرض عليها بصورة صارمة لا تعرف الرحمة. والولايات المتحدة تستخدم هذه الآليات لإبقاء الدول النامية تحت السيطرة ، وتسهيل عمل شركاتها المتعددة الجنسية عبر تشجيعها وإزالة العراقيل من أمامها. وتبعا للتقليد المفروض من قبل الولايات المتحدة ، فإن الوظائف القيادية العليا في المؤسسات الثلاث توزع بالمشاركة بين الولايات المتحدة وأوروبا. وحين ظهر أول مرشح مؤهل من العالم الثالث ، وهو التايلندي سوباشاي بانيتشباكدي ، لرئاسة منظمة التجارة الدولية ، قامت الدنيا ولم تقعد. فقد هدد الرئيس الأمريكي - آنئذ - بيل كلينتون بعرقلة أنشطة المنظمة بصورة دائمة إذا لم تقبل المرشح الذي اختارته أمريكا. وفسر قائلا بأنه "في تقييم المرشحين" قام "بالتركيز على مواقفهم من القضايا المهمة بالنسبة لنا" ؛ وهذا الاعتبار ، تبعا لكلينتون ، يترادف مع "ما نعتقد أنه أفضل ما يلبي حاجات المنظمة"[(6)] وليس من

المفاجئ، كما تقول صحيفة "فايننشال تايمز" (FT) "أن يصف فريق الدراسة الذي عينته الأمم المتحدة منظمة التجارة الدولية بأنها 'كابوس بالنسبة للدول النامية'". فأنشطتها "تعكس جدول أعمال لا يخدم إلا غرض تعزيز مصالح الشركات المهيمنة التي تحتكر أصلا ميدان التجارة الدولية"[7]. وبحسب مجلة "الايكونومست" (Economist)، إنجيل التجارة للمؤسسة الراسخة والنظام السائد، فإن "الصندوق والبنك.. أصبحا أداة سافرة للسياسة الخارجية الغربية عموما، والأمريكية على وجه الخصوص"[8].

ما يعنيه كل ذلك أن الاقتصاد العالمي يعمل غالبا لصالح الولايات المتحدة ومنفعة "مجموعة الدول السبع" (G7) التي تقودها الولايات المتحدة (روسيا، العضو الجديد في هذه المجموعة، ترفع عددها إلى ثمان، لكنها لا تدخل في الحسبة من الناحية الاقتصادية). أما الوظيفة الأداتية لهذا الاقتصاد العالمي فتعني بالنسبة للدول النامية استمرارية الترتيبات الهيكلية التي تشتغل لإبقائها في حالة دائمة من الحرمان. وبينما تستمر هذه البنى الهيكلية في عملها، تصبح التنمية، كما تعرف وتفهم، هي المشكلة وليست الحل. فما تتطلبه التنمية التقليدية يخلق حلقة مفرغة من الظروف المعاكسة التي تعمل

ضد مصالح الدول الفقيرة. "التنمية" نادرا ما تتجاوز استيراد الدول النامية للتقانات الباهظة الثمن ـ والتي تجاوزها الزمن غالبا ـ من الولايات المتحدة وباقي الدول الصناعية؛ معدات تقنية لا تستطيع إدارتها أو تشغيلها أو صيانتها. في أغلب الأحوال، تضعف هذه التقانات الأساليب التقنية المحلية والقدرات التصنيعية المتبعة منذ عهود، وتؤدي إلى مزيد من التهميش للفقراء. هذه المفارقة أصبحت معروفة للقاصي والداني بعد أن أشبعت بحثا ودراسة وثبتت بالأدلة والبراهين، لكنها لم تفرز أي تأثير في الموقف السياسي للولايات المتحدة. وحين تتم قراءة العالم برمته من منظور رؤية وحيدة ومجموعة واحدة من "القيم" التبسيطية، فسوف تختفي الظروف المعقدة الخاصة بكل بلد على حدة ـ تاريخه، وكيفية تحول حظوظه الاقتصادية إلى محن وبلايا. لكن بلايا ومحن الفقراء هي مجرد حصيلة جانبية مباشرة للمصلحة الذاتية للأغنياء. الولايات المتحدة تراكم ثروة العالم بواسطة ثمانية أنواع من أساليب المناورة التجارية الماكرة، سوف نعاينها بالترتيب:

1 ـ ما زالت الولايات المتحدة تمول النمو المحلي بواسطة المدخرات المالية لبقية دول العالم. يقول اد مايو، مدير "المؤسسة الاقتصادية الجديدة" (NEF)، وهي وكالة استشارية متخصصة

في معالجة المشكلات الاقتصادية تتخذ من لندن مقرا لها: إن "الولايات المتحدة قد استفادت من عملتها المهيمنة. وهذا يعني استفادتها من أرباح سك العملة (الفرق بين القيمة الاسمية للعملة وتكاليف إنتاجها) أي النقود المجانية، من أرباح إصدار الدولار لاستخدامه كنقد سائل في مختلف أرجاء العالم. كما استفادت من الحق بتحديد معدلات الفائدة لتناسب مصالحها المحلية لا مصالح العالم. أحد التأثيرات الكارثية ظهر حين قامت الولايات المتحدة، عند بداية سنوات حقبة ريغان/ تاتشر، وتطبيق نظرية التحكم بالموارد المالية كوسيلة رئيسية لاستقرار الاقتصاد، برفع معدلات الفائدة إلى مستويات قياسية، الأمر الذي عجل بانهيار المكسيك ماليا، وبدء أزمة الديون التي أصابت الدول الفقيرة بضربة قوية. ومنذ ذلك الحين، سقط العديد من الدول في شرك الديون، وحوصرت بين خيارين أحلاهما مر: إما أن تسمح بتعويم عملتها، وهو خيار صعب في وجه قوة الدولار والين واليورو، أو ربطها بالدولار، أي 'دولرة' عملتها، وهو خيار مخفق أدى إلى عواقب مروعة بالنسبة للأرجنتين مثلا. حين تقع دولة كالأرجنتين في حبائل الديون تعاني من هروب رأس المال (خرج من الأرجنتين مبلغ يقدر بمائة وثلاثين مليار دولار، أي ما يعادل تقريبا إجمالي الدين العام)، وذلك مع قيام النخب التي تلقت تعليمها في الولايات المتحدة بتحويل أموالها من البلاد إلى

مصارف الولايات المتحدة"، حسبما يقول مايو[9]. إن فخ الديون ليس سوى معادلة اقتصادية بسيطة أصابت المزارعين الصغار في الولايات المتحدة أيضا بالدمار. فقد تلقوا التشجيع على الاقتراض بفوائد متدنية لاستثمارها في "التطوير"، أي شراء معدات جديدة، وبذار.. الخ، لكن مهما اقترضوا أو حسنوا إنتاجهم، لن يتمكنوا من منافسة الشركات الكبرى التي يتيح لها حجمها ومواردها التحكم بالإنتاج والسوق. وهكذا يتفاقم عبء الديون، مما يؤدي بالدول - مثل صغار المزارعين الأمريكيين - إلى دفع فوائد تفوق ما يمكن أن تكسبه مهما بذلت من جهد وعرق.

2 - تحرم الولايات المتحدة ثلثي سكان العالم من التحكم الديمقراطي بمصائرهم الاقتصادية. وليس لدى معظم دول العالم أية فرصة للتأثير في قرارات صندوق النقد الدولي، ولا تحظى إلا بقدر ضئيل من القوة لإحداث تغيير إيجابي في منظمة التجارة الدولية. أما السياسات المرتبطة بقروض صندوق النقد الدولي على وجه الخصوص فتمهد السبيل للملكية الأجنبية والهيمنة على الاقتصاد، لا سيما في القطاعين التصنيعي والمالي. على سبيل المثال، فرض صندوق النقد الدولي، بعد الأزمة الاقتصادية التي عصفت بجنوب شرق آسيا، شرطا على كل من تايلند

وكوريا الجنوبية يوجب عليها السماح بمزيد من الملكية الأجنبية لاقتصادها - وذلك بإلحاح من الولايات المتحدة، وكان ذلك من الناحية الاستراتيجية أشد شروط الصندوق أهمية، "علاوة إضافية" خارج إطار شروطه العادية على الاقتصاد ذي الحجم الكبير (مثل رفع معدلات الفائدة، تخفيض الإنفاق الحكومي، النمو الاقتصادي، العجز الراهن في الميزانية). وكجزء من الصفقة مع صندوق النقد الدولي، طُلب من تايلند السماح للمصارف الأجنبية بامتلاك حصة أكبر في القطاع المصرفي المحلي. ومن خلال "شروط الإقراض" هذه، استطاع رجال الأعمال الأمريكيون وشركات التقانة الأمريكية امتلاك المصارف، والمؤسسات المالية، وقطاعات التقانة الرئيسية بشكل كلي أو جزئي - في دول العالم النامية.

3 - تؤول الولايات مفهوم "تحرير التجارة" ليعني حرية وصول الشركات الأمريكية التجارية والمتعددة الجنسية إلى دول العالم، عبر طريق أحادي الاتجاه. لقد ظل تحرير التجارة - أي إزالة وتقليص الحواجز أمام التجارة الدولية فيما يتعلق بالسلع والخدمات - يجري على قدم وساق منذ الثمانينيات. وتبعا "لاتفاقية الزراعة" ضمن إطار منظمة التجارة الدولية، وبرامج "الإصلاح الهيكلي" المفروضة من قبل صندوق النقد والبنك

الدوليين، يتوجب على الدول النامية إجراء تغييرات مهمة في سياستها الغذائية والزراعية، وفتح اقتصاداتها أمام مستوردات الأغذية الرخيصة، في نفس الوقت الذي تقوم فيه بتقليص وتحديد الدعم لمزارعيها. وفي حين تطالب "اتفاقية الزراعة" ذاتها الدول الأعضاء في منظمة التجارة الدولية بتخفيض التعريفات الجمركية على الواردات الغذائية بنسبة 24٪ خلال فترة تمتد لعشر سنوات، إلا أن معظم برامج "الإصلاح الهيكلي" تطالب بتنفيذ إجراءات أشد لتحرير التجارة، علاوة على تلك المتصلة بالطلب مثل خصخصة المشاريع التي تديرها الدولة، وإلغاء الدعم الحكومي والتحكم بالأسعار وهيئات التسويق. في الظاهر، تمت الموافقة على إنشاء منظمة التجارة الدولية وإقرار الاتفاقية بالإجماع وبمشاركة الدول النامية. أما في الحقيقة فقد جرت صياغة الاتفاقية برمتها بواسطة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ووصفت من قبل العديد من الخبراء والمنظمات التنموية المتخصصة (ومن ضمنها "أوكسفام" على سبيل المثال لا الحصر) بأنها "عملية خداع مضللة"، فاقمت من حدة الفقر في الأرياف ودمرت مصدر رزق المزارعين الصغار، في حين مكنت الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي من تصدير بضائعها بأسعار رخيصة إلى الدول النامية، حيث أفلس المزارعون بعد أن فقدوا قدرتهم على المنافسة. الواردات الرخيصة تأتي عبر قنوات تجارية

ومن خلال إغراق السوق بالمواد الغذائية التي تباع بأقل من سعر التكلفة الإنتاجية للتخلص من الفائض. في غانا على سبيل المثال، لا يستطيع المزارعون المحليون الحصول على أسعار اقتصادية لمنتجاتهم (ذرة، أرز، فول الصويا، أرانب، خراف، ماعز) حتى في أسواق القرى، ونادرا ما حصلوا على سعر التكلفة. بينما أجبروا على دفع أسعار باهظة ثمنا للواردات - مثل الأسمدة ومبيدات الحشرات وحتى البذار في بعض الأحيان. لكن أسعار المواد الغذائية للمستهلكين لا تنخفض أبدا. وبالتالي، يعاني سكان الأرياف، بالرغم من زيادة الإنتاج، وتتدهور مستويات المعيشة بالنسبة للفقراء منهم على وجه الخصوص، فيضطر عدد لا يحصى من المزارعين نتيجة لكل ذلك إلى الهجرة إلى مدن ترزح أصلا تحت عبء الزيادة السكانية لتدبر أمر الحصول على لقمة العيش. وهكذا، يدمر القطاع الزراعي المحلي، ويتقلص إنتاج الغذاء، ويتعرض الأمن الغذائي لخطر جدي. والقصة تتكرر في دولة بعد أخرى.

4 - تشجع الولايات المتحدة نمطا من "الحرية الاقتصادية" يدمر في واقع الأمر الحرية الاقتصادية للفقراء. فقد وضعت الدول النامية بين فكي كماشة تقليدية: فمن جهة مهدت السبيل للأعمال التجارية المعتمدة على تقانتها للدخول بشكل

حر واقتناص أسواق العالم، ومن جهة أخرى، عملت على كبح الجهود التي تبذلها الدول النامية لتعزيز وتدعيم منتجاتها وصادراتها، وحظرها في الأسواق الأمريكية. إذن، هذا هو ما يعرف باسم اقتصاد السوق الحر، كما يتزيّا بلبوس الليبرالية الجديدة، التي تتضمن عودة إلى علم الاقتصاد الليبرالي الذي ساد في القرن التاسع عشر أو "سياسة عدم التدخل الحكومي"، حيث تلتزم الدولة بشكل صارم بمبدأ عدم التدخل في الأنشطة الاقتصادية. وفي الحقيقة، تلعب الدولة دورا حاسما في تشجيع ودعم شركاتها وأعمالها التجارية. وبالتالي، فإن ما يدعى بـ"التجارة الحرة" المزعومة، التي تروج لها منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي بمثل هذا الإلحاح الذي يبلغ حد التعدي والافتئات، "تتجاوز قليلا ما يقوم به قطاع الطرق، بحيث لا تفيد إلا الأغنياء، بينما تجعل الفقراء أكثر عرضة لخطر انعدام الأمن الغذائي"، حسبما يقول اندرو سيمس، رئيس برنامج الاقتصاد الدولي في "المؤسسة الاقتصادية الجديدة". "وكعاقبة للسياسات الأمريكية، تخسر الدول الفقيرة في ظل العولمة حوالي ملياري دولار يوميا بسبب التلاعب بالتجارة العالمية، ويموت ثلاثون ألف طفل نتيجة أمراض يمكن الوقاية منها، ويستنزف مبلغ يقدر بستين مليون دولار من الدول الفقيرة إلى الغنية على شكل ديون"(10).

5 ـ تعمل الولايات المتحدة بشكل منهجي على تقويض جهود ومساعي الدول الأقل تطورا لمحاربة الفقر وإطعام سكانها. فقد فرضت رسوما جمركية ضخمة على المحاصيل الزراعية الرئيسية مثل الأرز، والسكر، والبن (فرضت على الفول السوداني مثلا رسوما تبلغ نسبتها 100٪). هذه القيود التجارية تكلف أفقر دول العالم مبلغا مذهلا يقدر بـ 2.5 مليار دولار سنويا من العملة الصعبة. الآثار الإجمالية لا يمكن وصفها إلا بالكارثية. ففي هايتي على سبيل المثال، لم يؤد تحرير سوق الأرز وما تلاه من تدفق واردات الأرز الأمريكي المدعم من الحكومة، إلى دمار إنتاج الرز المحلي وخسارة عدد لا يحصى من المزارعين لمصدر رزقهم فقط، بل عرض أمن البلد الغذائي للخطر أيضا. إن إغراق الأسواق بالمنتجات الأمريكية وبأسعار أدنى من كلفة الإنتاج غالبا، في بلد إثر بلد، وفي قطاعات تتطلب تكثيفا في العمالة وتخلق فرص عمل عديدة، مثل النسيج والأحذية والزراعة، قد دمر مورد رزق السكان الذي يعملون في ظروف حرجة أصلا، وأخضعهم لحالة من الفقر المدقع.

6 ـ نهبت الولايات المتحدة الدول الأقل تطورا، مما زاد في فقرها. لنأخذ على سبيل المثال كيف احتال "مرسوم النمو والفرصة المتاحة لأفريقيا"، الذي وقعه الرئيس جورج بوش الابن

ليتحول إلى قانون في تشرين الأول/ أكتوبر 2001، على الدول الأفريقية ونهب أموالها. إذ يفترض بالقانون أن يقدم للاقتصادات الأفريقية فرصة إيصال منتجاتها المعفاة من الرسوم والحصص المحددة إلى السوق الأمريكية مقابل بعض التنازلات للولايات المتحدة وشركاتها. فما الذي حصلت عليه الدول الإفريقية بالفعل؟ لم تمنح الحكومة الأمريكية حرية الوصول إلى السوق الأمريكية إلا لتلك السلع التي قررت بأنها لن تؤثر سلبا على المنتجين الأمريكيين. وبالتالي جرى استثناء البن والسكر وغيرهما من المنتجات التي تعود بالفائدة الاقتصادية على الدول الأفريقية. ومنح القانون مزايا الإعفاء من الرسوم الجمركية والحصة المحددة على الملابس والمصنوعات النسيجية الإفريقية على وجه الخصوص كي تباع في السوق الأمريكية . لكن حصر هذه المزايا في المنتجات التي تستخدم الأنسجة والخيوط المنتجة في أمريكا. أما المنتجات المصنعة من مواد منتجة في الدول الأفريقية وغيرها فسوف تخضع لقيود صارمة. ولا يسمح بالوصول إلى السوق الأمريكية في هذه الحالات إلا على أساس إذن سنوي، وبحيث لا تتجاوز الكمية نسبة 3.5٪ من كل الملابس المستوردة إلى الولايات المتحدة بخلال ثمانية أعوام. علاوة على ذلك، يمكن للحكومة الأمريكية أن تلغي هذه المزايا في أي وقت تشاء، إن قررت أن هناك زيادة في واردات المنتجات

النسيجية إلى الولايات المتحدة يمكن أن تهدد صناعاتها المحلية. ومن المؤكد أن شرط استخدام المواد الأولية الأمريكية في منتجات الدول الإفريقية لا يقوض صناعات المواد الخام المحلية فقط، بل إن استيراد المواد الأولية من الولايات المتحدة لصناعة النسيج في إفريقيا عملية باهظة التكاليف، بسبب أجور النقل وغيرها، الأمر الذي يعني أن المنتجات النسيجية الإفريقية المصدرة إلى الولايات المتحدة تصبح غير قادرة على المنافسة. ولا يقتصر الأمر على عدم قدرتها على المنافسة، بل إن هذه الشروط تضمن بقاءها دوما غير قادرة على المنافسة في المحصلة النهائية. وما الذي تجنيه الولايات المتحدة الأمريكية بالمقابل؟ يطالب القانون الدول الأفريقية ـ من بين العديد من الأشياء ـ بما يلي:

1) رفع الحواجز أمام التجارة والاستثمار الأمريكيين في إفريقيا، ومعاملة الشركات الأمريكية على قدم المساواة مع الشركات الإفريقية، وحماية حقوق الملكية الفكرية تبعا للمعايير العالمية؛

2) إجراء المزيد من عمليات الخصخصة وإلغاء الدعم الحكومي والتحكم بالأسعار؛

3) ضمان تطبيق معايير العمل الدولية ووضع حد أدنى لعمر الأطفال الذين يتم تشغيلهم؛

4) عدم الانخراط في أي عمل يهدد الأمن القومي للولايات المتحدة ومصالح السياسة الخارجية. إذن، في حين تجني الولايات المتحدة مكاسب فعلية ملموسة من القانون، فإن الفوائد التي تجنيها إفريقيا تظل وهمية تماما. ومن المؤكد أن مثل هذه "الاتفاقية" تتحمل إلى حد بعيد مسؤولية تفاقم الفقر في أفريقيا طيلة العقدين الماضيين.

7 ـ عملت الولايات المتحدة بإصرار على تخفيض أسعار السلع في دول العالم النامية. يقول مايو: "من المفترض أن تمثل مكافحة التضخم واحدا من النجاحات الرئيسة التي حققها الاقتصاد الأمريكي طيلة العقد الماضي ـ لكن العامل الأساسي الذي أسهم في انخفاض معدلات التضخم ظل الهبوط المستمر في أسعار السلع التي صدرتها الدول المدينة، ولقيت التشجيع على التصدير للتخلص من الديون من قبل منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي. بالنسبة للعديد من المنتجات، مثل الشاي والبن والفول السوداني، أدت زيادة العرض الذي شجعته المعونات والديون، وزيادة الصادرات من إفريقيا، إلى عائدات منخفضة عموما. وفي حين أدى تشجيع الصادرات بدعم من منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي إلى زيادة بنيوية مفرطة في

العرض، لكن لم يقم أي تكتل للمصدرين، فيما عدا منتجي النفط، للموازنة بين العرض والطلب. وما إن ظهرت التكتلات حتى استولت عليها المصالح الأمريكية، مثلما حدث لتكتل منتجي الموز المجهض في السبعينيات، حين ظنت الدول المنتجة للموز في أمريكا الوسطى واللاتينية أن بإمكانها اتباع نموذج أوبك. لكن لسوء الحظ، يختلف الموز عن النفط، ولا يمكن أن تتركه في الأرض لحصر وتحديد العرض. فهو يفسد! ولكن حتى مع ذلك، فإن السبب الرئيس لانفراط عقد التكتل كان أنشطة شركات الموز الأمريكية، مثل "تشيكيتا"، التي سعت لتقويض التكتل بأية طريقة في متناولها. إنه سوق المشتري، الذي هو بالأساس المستهلك الأمريكي، ووصفة مناسبة للانكماش حيث لا يستفيد من استقرار الأسعار أو انخفاضها سوى المواطن الأمريكي، بينما لا تشعر بموجات الصدمة إلا الدول المنتجة. أي أن الولايات المتحدة شيدت اقتصادا عالميا يغذي اقتصادها، في أوقات الأزمات وفترات الازدهار على حد سواء[11]. وفي الحقيقة فإن أسلوب حياة أغنى الدول في تاريخ العالم، القائم أساسا على الغذاء الرخيص، يعتمد على الدعم الناتج عن العمل المضني والجهد الدؤوب الذي تبذله أفقرها.

8 ـ كأنما كل ما تقدم ليس كافيا ، فقد فرضت الولايات المتحدة بشكل منتظم إجراءات اقتصادية قسرية من جانب واحد ، عرفت باسم "العقوبات". فخلال الثمانين سنة الماضية ، فرضت هذه العقوبات على مختلف الدول في مائة وعشرين مناسبة ، منها مائة وأربع منذ الحرب العالمية الثانية. في عام 1998 وحده، فرضت الولايات المتحدة عقوبات مختلفة على 75 بلدا ، تضم 52٪ من سكان العالم.

المستهلكون الأمريكيون هم المستفيدون من هذه المناورات المخادعة والتلاعب بالاقتصاد العالمي. وحين ينظر الأمريكيون إلى العالم، يرون فقرا وتخلفا يقاومان التغيير. ويعتقدون، كما يخبرهم السياسيون ووسائل الإعلام بانتظام، أن أمريكا هي أكثر أمم العالم كرما وجودا. وهذا أكثر أجزاء "المعرفة الجاهلة" تقليدية. فتبعا لـ"منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية" (OECD)، قدمت الولايات المتحدة مبلغا يتراوح بين 9.6 مليارات دولار بين عامي 1995 ـ 1999 على شكل معونات خارجية. وبلغة الأرقام المطلقة ، قدمت اليابان مبلغا أكبر في نفس الفترة (بين 15.9 مليارا). لكن الأرقام المطلقة أقل أهمية من النسبة المقدرة إلى الناتج المحلي الإجمالي (GDP) (أو الثروة الوطنية) التي تخصصها الدولة للمعونات الخارجية. وتبعا لهذا المقياس،

تحتل الولايات المركز الثاني والعشرين من الدول الاثنتين والعشرين الأكثر تقدما. وأكد هذه الحقيقة الرئيس السابق جيمي كارتر حين أشار معلقا: "نحن أشد الأمم بخلا وتقتيرا"[12]. تحتل الدانمرك رأس القائمة، حيث قدمت ما نسبته 1.01٪ من ناتجها المحلي الإجمالي، في حين لم تقدم الولايات المتحدة سوى 0.1٪. وكانت الأمم المتحدة قد حددت النسبة بـ 0.7٪ من الناتج المحلي الإجمالي للمساعدات التنموية، لكن لم يحقق هذه النسبة بالفعل سوى أربع دول هي: الدانمرك 1.01٪؛ والنرويج 0.91٪ ؛ وهولندا 0.79٪ ؛ والسويد 0.7٪. وبغض النظر عن كونها أقل دول العالم كرما، فإن الولايات المتحدة انتقائية فيما يتعلق بمن يتلقى معوناتها. أكثر من 50٪ من ميزانية المعونات الأمريكية تنفق على دول الشرق الأوسط المتوسطة الدخل، مع تلقي إسرائيل حصة الأسد منها. الأهم من ذلك، وكما أعلنت وكالة التنمية الدولية الأمريكية (USAD) في موقعها الرسمي على الإنترنت: "المستفيد الرئيس من برنامج المعونات الخارجية الأمريكية هو الولايات المتحدة دائما وأبدا". وأضاف الموقع أن 80٪ من عقود الوكالة ومنحها المالية تذهب "مباشرة إلى الشركات الأمريكية"، وأن برامج الوكالة قد ساعدت على إيجاد أسواق جديدة للسلع الأمريكية علاوة على "مئات الآلاف من فرص العمل"[13]. ولم

تشكل المعونات أبدا عبئا يثقل كاهل المواطن الأمريكي، بل كانت ذراعا للسياسة الخارجية الأمريكية تضمن به أن يدفع الفقراء "ضريبة"، وتدعم في الواقع فرص العمل والشركات التابعة لأغنى أمة على ظهر الأرض.

إذا كانت أمريكا هي العالم، فإن مشكلاته البيئية ينبغي رؤيتها من منظور الولايات المتحدة. والجدل الخلافي الذي أحاط بـ"بروتوكول كيتو" يشرح هذه النقطة بكل وضوح. "البروتوكول" الذي تم تبنيه في الجلسة الثالثة من "مؤتمر الأطراف المدعوة إلى إطار ميثاق الأمم المتحدة حول تغير المناخ" (UNFCCC) في كيوتو (اليابان) في الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1997، وضع أهدافا محددة لتقليص انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون. فهذا الغاز الذي تلفظه مصانع السيارات والصناعات التي تعتمد على الوقود المستخرج من باطن الأرض، اعتبر مسؤولا عن تغير المناخ وارتفاع حرارة الأرض. ويطالب الاتفاق الدول الصناعية بتخفيض نسبة انبعاث الغاز، بحلول عام 2012، إلى معدل يبلغ 5.2٪ من مستويات عام 1990. لكن النسب تتفاوت بين بلد وآخر، في آذار/ مارس 2001، أعلنت الإدارة الأمريكية أنها لن تطبق "بروتوكول كيوتو" لأنه لا يمثل الأداة الصحيحة للتعامل مع تحدي مشكلة

تغير المناخ على المستوى العالمي، الأمر الذي عرض للخطر بنود "البروتوكول" برمته وأثار سخط واستياء المجتمع الدولي. واقترحت إدارة الرئيس بوش عوضا عنه نظاما يضع حدودا لانبعاث ثلاثة غازات رئيسية تلوث الهواء - لكن ليس من بينها ثاني أكسيد الكربون. وفي حين وضع "بروتوكول كيوتو" نسبا إجبارية للتخفيضات، فإن النسبة المسموح بها تبعا لخطة بوش تحدد على أساس كل طن من الملوثات. وعندما تخفض الشركات نسبة انبعاث الغازات الملوثة، فإنها تدخر حصتها المسموح بها لاستخدامها في وقت لاحق، أو في أنشطة صناعية أخرى. وقدر الاتحاد الأوروبي أن خطة بوش ستسمح للولايات المتحدة في واقع الأمر بزيادة انبعاث الغازات الملوثة بنسبة تصل إلى 33٪!

أجمع العالم كله على معارضة اقتراح الولايات المتحدة. محمد الصبان، مستشار شؤون الطاقة في المملكة العربية السعودية، قال إن تصريح الرئيس بوش كان بمثابة "إعلان وفاة بروتوكول كيوتو". أما كيل لارسون وزير البيئة السويدي فأكد على أنه "ليس من حق أحد إعلان وفاة بروتوكول كيوتو". في حين أعلن رومانو برودي رئيس مفوضية الاتحاد الأوروبي أن "تمزيق الاتفاق والبدء مجددا سيكون خطيئة

مأساوية". الرئيس بوش رد قائلا: "أقدر وجهة نظرك، لكن هذا هو الموقف الأمريكي لأنه ملائم لأمريكا". ومن أجل توضيح قصده أضاف: "لن نفعل شيئا يلحق الضرر باقتصادنا، لأن الناس الذين يعيشون في أمريكا لهم الأولوية"[14]. وفي رسالة وجهها لبعض الأعضاء الجمهوريين في مجلس الشيوخ الذين استحثوه على التخلي عن التعهد الذي قطعته الولايات المتحدة في كيوتو، أوضح الرئيس بوش الأسباب التي دعته لاتخاذ قراره. إذ استنتجت وزارة الطاقة في دراسة جديدة أجرتها بأن القانون الذي يحدد نسبة ثاني أكسيد الكربون سيؤدي إلى ارتفاع كبير في أسعار الكهرباء؛ وهو لا يريد أن يتخذ إجراء يلحق الضرر بالمستهلكين الأمريكيين خلال فترة نقص الطاقة الكهربائية. إذن، يعتبر سعر الكهرباء في كاليفورنيا أهم بكثير من استنزاف طبقة الأوزون، واختفاء القمم الجليدية القطبية، وارتفاع حرارة الأرض، والدمار الذي تسببه التغيرات المناخية للعالم. ولا يقتصر الأمر على أن حاجات الأمريكان أهم بكثير من حاجات باقي سكان العالم، بل إن الإخطار التي تتهدد الكوكب الأرضي يجب اعتبارها ثانوية أمام رغبات المستهلكين الأمريكيين.

إذا كانت أمريكا هي العالم، فإن موارده ملك لها. الافتراض يتجاوز كثيرا ما تشير إليه الإحصائيات المجردة التي تظهر بشكل روتيني في "تقارير التنمية البشرية" التي يصدرها "برنامج التنمية" التابع للأمم المتحدة (UNDP): تستهلك أمريكا أكثر من نصف سلع وخدمات العالم كله؛ وينفق سكانها عشرة مليارات دولار سنويا على أطعمة الحيوانات الأليفة - أي أكثر بأربعة مليارات دولار من إجمالي المبلغ المقدر المطلوب لتوفير الرعاية الصحية الأساسية والغذاء الضروري لكل فرد في العالم؛ ويصل إنفاقها على مستحضرات التجميل إلى ثمانية مليارات دولار، أي أكثر بمليوني دولار من إجمالي المبلغ السنوي المطلوب لتوفير التعليم الأساسي لكل سكان العالم؛ وتتجاوز الأصول المالية لأغنى ثلاثة رجال في أمريكا الناتج المحلي الإجمالي لثمانية وأربعين من الدول الأقل تطورا. وبعد أن احتكرت معظم موارد العالم، تتطلع أمريكا الآن إلى آخر الموارد المتبقية لدى الدول النامية: النباتات، والحيوانات، والتنوع البيولوجي، والحمض النووي (DNA) للأهالي المحليين في مختلف بقاع العالم.

انخرطت شركات التقانة الحيوية الأمريكية، والباحثون، والمضاربون، في حملة محمومة للاستيلاء على المعرفة القديمة

والحكمة الفطرية للأهالي المحليين. فقد تطورت تقانات وأنساق ومعارف هؤلاء على مدى آلاف السنين. واستطاعوا - عبر القرون - تبيئة وتهجين النباتات، وترويض الحيوانات البرية، وتطوير الأدوية والعقاقير المستخلصة من الأعشاب والنباتات، واستخدام التقنيات التي نربطها هذه الأيام بالتقانة الحيوية - أي استخدام المتعضيات الحية، أو أجزاء منها، لإنتاج أو تعديل المنتجات، وتحسين سلالات النبات والحيوان. فشعب الايفوروت البدائي الذي يسكن منطقة كورديليرا في الفليبين، ظل منذ آلاف السنين يقوم بتخمير مشروبه التقليدي (نبيذ الأرز)، بواسطة نوع محلي من الخميرة يدعى "بوبود"، وخمر سكر القصب، الذي يحضر بواسطة بذار تنمو في الغابة وتدعى "غامو". كما استطاع زراعة وتهجين أنواع متعددة من "الكاموت" (البطاطا الحلوة)، الذي كان يمثل غذاء أساسيا بالنسبة لأفراده قبل إدخال زراعة الأرز. كما طور عدة أنواع من الرز لتناسب الظروف المناخية والمكانية - فقد تمتلك قرية واحدة عشرة أصناف مختلفة من بذار الأرز التي تناسب مختلف الأحوال الجوية وأنواع التربة. وعلى نحو مشابه، طور أنواعا أخرى من المحاصيل مثل المنيهوت (cassava) والقلقاس (taro). وفي حين أن المعارف والابتكارات المنتجة في الولايات المتحدة وأوروبا تتمتع بالحماية التامة، إلا أن هذه المعارف التقليدية ليس لها من يحميها. ولا تشمل اتفاقية

منظمة التجارة الدولية "حول الملكية الفكرية المتصلة بالتجارة" (TRIP) بنودا خاصة تتعلق بحماية الأنظمة، أو الممارسات، أو النباتات الطبيعية، أو المنتجات التي تشكل أساس المعرفة التقليدية والمحلية. وهكذا تستطيع الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية، والشركات العاملة في ميدان الزراعة والتقانة الحيوية أن تستولي على هذه المعارف والعلوم وتفلت من العقاب.

النباتات التي استخدمت على مر السنين من قبل الشعوب البدائية والمحلية تتعرض للسرقة ونهب حقوق الملكية. بدأت القضية مع شجرة "نيم" (Neem) التي تستخدم في الهند لصنع سلسلة واسعة من الأدوية لعلاج أمراض متعددة مثل القرحة والسكري والالتهابات الجلدية والإمساك، إضافة إلى احتمال استخراج مبيد للحشرات شديد الفاعلية ضد الجراد، والديدان الخيطية، ويرقانات البعوض، والخنافس. في عام 1985، حصل تاجر أخشاب أمريكي على ترخيص إنتاج مبيد حشري مستخلص من شجرة النيم باسم "مارغوسان - او" (o. Margosan)، ثم باعه إلى شركة الصناعات الكيماوية المتعددة الجنسية "دبليو. آر. غريس & كو" (W. R. Grace and Co.). وانفتح الباب على مصراعيه. فبين عامي 1985 - 1995، منحت سبع وثلاثون براءة اختراع في أوروبا والولايات المتحدة تجيز استخدام وتطوير المنتجات

المستخلصة من شجرة "النيم"، بما في ذلك معجون للأسنان. وهكذا، أصبح مورد مجاني ومتوفر (هنالك حوالي 14 مليون شجرة نيم في الهند وحدها)، مورد طوره واستخدمه أهالي جنوب آسيا طيلة قرون عديدة، من ممتلكات إحدى الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية. الأمر ذاته حصل مع نبتة "اياهواسكا" ونبتة "كينوا" في أمريكا اللاتينية، و"الكاوه" في مناطق المحيط الهادي، والقرع المر في الفليبين وتايلند. وكلها استخدمت على نطاق واسع من قبل الأهالي المحليين على مر التاريخ، لكن تدعي ملكيتها الآن الشركات الأمريكية.

هذا المسلك اللصوصي لا يحرم هذه الشعوب مما هو حق لها فقط، بل يفرز عواقب وخيمة مدمرة لمستقبلها أيضا. لنأخذ على سبيل المثال ماذا يمكن أن يحدث لنبتة "الكينوا"، التي تعتبر بذارها النشوية المحتوية على نسبة عالية من البروتين غذاء أساسيا لملايين السكان في مناطق جبال الانديز في أمريكا اللاتينية، وقد زرعت وطورت منذ ما قبل حقبة الأنكا. حصل اثنان من الباحثين من جامعة كولورادو على براءة اختراع رقم 304,718، 5 في عام 1994 تعطيهما حق التحكم الاحتكاري بالنباتات الذكرية العقيمة لشجرة "ايبلاوا" البوليفية التقليدية (وهي أحد أنواع نبات الكينوا). وهكذا،

منع سكان الانديز فجأة من استخدام النبتة التي تشكل جزءا من نظامهم البيئي الطبيعي. صحيح أن بوليفيا تصدر حاليا هذا النوع إلى أسواق الولايات المتحدة وأوروبا (وهي سوق تبلغ قيمتها حوالي مليون دولار سنويا)، لكن إن استخدم هذا النوع المهجن على نطاق واسع في الإنتاج التجاري في الولايات المتحدة، فإن المصدرين البوليفيين سيمنعون من دخول الأسواق الأمريكية والأوروبية. الأمر الذي سيؤدي إلى نزوح آلاف المزارعين الصغار وجلهم من الهنود المحليين. الاحتمال الآخر يتمثل في سيطرة الشركات الاحتكارية التي تملك التراخيص (أو الشركات التابعة لها في بوليفيا) على مزارع النبتة ومن ثم إنتاجها باستخدام الأنواع التجارية المهجنة. وسيحدث تآكل في مورثات تشكيلة الأصناف المتنوعة من نبتة الكينوا التي طورها المزارعون المحليون طيلة القرون، مما سيقلص إلى الأبد تنوعها الوراثي. هنالك العديد من المجتمعات الزراعية تواجه مآزق مشابهة في مختلف أرجاء العالم[15].

لكن القرصنة البيولوجية الأمريكية لا تقتصر على الأعشاب الطبية وتشكيلة المحاصيل المتنوعة. بل تمتد أيضا لتشمل الحمض النووي للسكان المحليين. الطلب الذي قدم لوزارة التجارة الأمريكية لتسجيل سلالة من الخلايا التائية (T -

Cell) المصابة بعدوى فيروسات "الليمفوما وابيضاض الدم البشري" (HTLV)، النمط آ (التي قد تساعد في تطوير علاج السرطان) لامرأة من بنما تبلغ من العمر 26 سنة، كان أول محاولة لتسجيل مواد وراثية مأخوذة من سكان محليين. قدم الطلب في وقت مبكر يعود إلى عام 1993، لكنه سحب في نهاية المطاف نتيجة الاحتجاجات العالمية والحملات العنيفة التي قادتها مختلف المنظمات الأهلية. لكن ذلك لم يمنع المعهد الوطني للصحة في الولايات المتحدة من التقدم بطلب لتسجيل الحمض النووي المأخوذ من رجل ينتمي لشعب الهاغاهاي البدائي في مرتفعات بابوا غينيا الجديدة. طلب الترخيص شمل سلالة خلايا تحتوي على الحمض النووي غير المعدل لشعب الهاغاهاي (سحب هذا الطلب أيضا نتيجة الضغوط العالمية). ومنذ ذلك الحين، تضاعفت طلبات تسجيل الحمض النووي للشعوب البدائية المحلية - ويمكن الآن شراء الخلايا الدموية للهنود الحمر الذين يسكنون حوض الأمازون على الإنترنت - علنا - من الشركات الأمريكية.

معارف الشعوب البدائية المحلية ليست معارف جديدة بالطبع. أما الهندسة الوراثية فهي علم جديد يولد ثقافة جديدة. لكن الولايات المتحدة تنكر حقيقة أن التقانة الوراثية تشكل

نقلة جديدة تبتعد بها عن التكنولوجيا الحيوية التقليدية، أو أنها تحمل في ركابها مشكلات بيئية وصحية جديدة. وفي حين يسعدها الاستيلاء على المعارف القديمة، فإن الولايات المتحدة لا تريد تنظيم وقوننة التقانة الجديدة بأية طريقة كانت. فقد عارضت بإصرار "ميثاق التنوع البيولوجي"، الذي يجسد أول مسعى عالمي دؤوب لوضع معايير وقواعد قانونية لـ"الأحياء المعدلة وراثيا" (GMOs)، والمنتجات المستخلصة من/ أو المحتوية على "الأحياء المعدلة وراثيا". أولا، وبإلحاح من الولايات المتحدة، تم تغيير تعبير "الأحياء المعدلة وراثيا" إلى "المتعضيات المعدلة الحية" في مسودة البروتوكول. ثانيا، مع تنامي الأدلة العلمية التي تثبت خطر "الأحياء المعدلة وراثيا" والمنتجات المتصلة بها على البيئة والصحة، عارضت الولايات المتحدة العالم كله في مسألة جعل "المبدأ الوقائي" القاعدة المؤسسة للبرتوكول. ويشكل أساس استخدام هذا المبدأ، الذي صيغ لأول مرة خلال توقيع "اتفاقية التغير المناخي" عام 1992، الافتراض القائل بأن التقانة الحيوية يمكن أن تولد نتائج خطيرة، وأن علينا أن نلتزم جانب الحيطة والحذر إزاءها. وأصبح المبدأ، الذي كفله العديد من التشريعات القانونية التنظيمية في دول العالم، بمثابة الروح الهادية للسياسة العلمية التي يتبناها الاتحاد الأوروبي، ويستخدم على نحو متزايد في عملية صنع القرار السياسي حيثما تبين وجود خطر يتهدد

البيئة، أو صحة الإنسان أو الحيوان أو النبات. وبقيت الولايات المتحدة، أكبر مطور ومصدر لـ"الأحياء المعدلة وراثيا"، الدولة الوحيدة التي ترفض المبدأ الوقائي. أما الدول النامية التي تعمل جاهدة لصياغة اتفاق ملزم يؤمن الحماية من أخطار التقانة البيولوجية، والترويج لميثاق التنوع البيولوجي، فتتعرض بصورة روتينية لاتهام الولايات المتحدة بأنها تعرقل التجارة العالمية، ولتهديداتها المتكررة عبر منظمة التجارة الدولية.

إن كل المخاوف التي تقلق العالم، بدءا بمخاطر "الأحياء المعدلة وراثيا"، والتغيرات المناخية، مرورا بتوفير الحماية للمعارف والموارد المحلية، وإصلاح المؤسسات العالمية الاستبدادية وغير الديمقراطية مثل منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي، وصولا إلى تحقيق العدالة والتجارة النزيهة، تختزل في رأي الولايات المتحدة في قضية "التجارة الحرة". الأمر الذي يعني أن على أمريكا أن تكون حرة في أن تفعل ما تشتهي. وخلال العقود القليلة الماضية، ازداد حجم ما يسمى بـ"التجارة الحرة" زيادة هائلة لها دلالتها. وتعادل الآن تجارة يوم واحد كل الصفقات التي عقدت طيلة عام 1949. لكن في حين أن التجارة الدولية تتنامى، تلغى القواعد والأنظمة المصممة لإدارة التجارة وتشجيع العدالة نتيجة ضغوط وأوامر الولايات المتحدة. وهي

تتصرف في تعاملها مع باقي دول العالم وكأنها مراهق مستأسد على رفاقه، حيث تعبر باستمرار عن النقمة والاستياء لاضطرارها إلى قبول ضوابط كابحة لسلوكها، في نفس الوقت الذي ترفض فيه فهم السبب الذي يجعل لمسلكها عواقب وتبعات حقيقية على حياة الآخرين. فإذا لم تعجبها السياسات الاقتصادية لإحدى الدول، تسعى إلى تدميرها بواسطة منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي. وإذا لم ينجح مسعاها، تفرض عليها العقوبات، أو ترتب لقيام انقلاب عسكري يطيح بقادتها (كما حدث في إيران، وتشيلي، وغواتيمالا). أما الدول الديكتاتورية التي يحكمها الطغاة والمستبدون الذين يدوسون بأحذيتهم حقوق الإنسان فتسمى دول صديقة وحليفة إذا اتبعت السياسة الاقتصادية المناسبة (الفليبين والسلفادور). المشكلة تكمن في أن سلوك الولايات المتحدة، وإصرارها على أن تكون حرة في فعل ما تشاء، لا يضعان عراقيل خطيرة تقيد حرية الآخرين لاختيار أسلوبهم في الحياة فقط، لكنها تعرض بقائهم ذاته للخطر. ولا ينبغي أن يفاجئ أحد حين يدرك أن أمريكا قد أعلنت الحرب على كل العالم غير الأوروبي، بما في ذلك أفقر الشعوب، وأضعفها، وأكثرها حرمانا.

لكن نادرا ما توصل الأمريكيون إلى تفاهم مع هذا الإدراك لأمريكا. فإذا كانت أمريكا هي العالم، فإن ما يحدث فيها أمر مهم له. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يحب أن يعيه الأمريكيون. ولهذا السبب تشعر أمريكا بالارتياح حين تنظم "بطولة العالم" التي يشارك فيها الأمريكيون وحدهم، مثلما يحدث في مباريات كرة القدم الأمريكية والبيسبول. ومن منظور العالم، لم تنظم الألعاب الأولمبية في اتلانتا (1996)، والأولمبياد الشتوي في سولت ليك (2002) إلا لفائدة أمريكا. أما بقية دول العالم فلا ضرورة لمشاركتها. ومثلما هي الحال في مسلسل "الاسم المستعار"، حيث تسافر سيدني في مختلف أرجاء العالم لكنها لا ترى فعلا مجتمعات أخرى، ولا ثقافات أخرى، ولا بيئات أخرى، ولا حتى بشرا آخرين (إلا بوصفهم أشرارا)، ولا تسمع أصواتهم، ولا تعرف همومهم، كذلك هي أمريكا، من النادر أن ترى أو تسمع بقية سكان العالم (إلا بوصفهم معادين وعدوانيين). وكما لاحظ جيم داتور، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هاواي والمتخصص الشهير بدراسة الاتجاهات المستقبلية: "إن تغييب العالم عن مجال الرؤية البصرية الأمريكية يمثل إحدى أشد الحقائق إثارة للقلق حول المجتمع الأمريكي. وحتى برغم النظام الإعلامي الضخم الذي يستخدم آخر ما توصلت إليه التقانة المتقدمة، يظل المجتمع

الأمريكي مغلقا أمام المعلومات والحقائق والآراء القادمة من باقي دول العالم. ولا غرو أن الأمريكيين - ككل - لا يدركون الكراهية المتزايدة التي يشعر بها العالم تجاه الولايات المتحدة"[16].

وسائل الإعلام الأمريكية مشهورة بضيق الأفق. وباستثناء بضع صحف وطنية، تغيب الأخبار الأجنبية - عموما - بشكل واضح فاضح. ولا يغامر التلفزيون، الوسيلة التي يشاهدها المواطنون أكثر من غيرها، بالخروج من الحدود الوطنية إلا لنقل أخبار الكوارث والحروب التي تقودها أمريكا. وحين تمتد التغطية لتصل إلى العالم الخارجي، تصبح في ذات الوقت وبشكل مناقض للعقل، أكثر ضيقا في الأفق وأشد ابتذالا وتفاهة. أما الأصوات المعارضة والمنشقة فقد تمت تصفيتها وتغييبها من أجل خلق إعلام باهت أحادي الثقافة مكرس لتشجيع الاستهلاك، والتجارة، والترويج لمصالح واهتمامات الحكومة والنخبة القوية، وتسلية الجماهير وإمتاعها وإخضاعها. وهذا ليس نتيجة لـ"السوق الحر" الذي يشتغل بوصفه قانونا طبيعيا - بل هو نتاج لسياسة حكومية مقصودة ومتعمدة.

منذ أيام إدارة الرئيس ريغان، ظلت الولايات المتحدة ترفع القيود عن صناعتها الإعلامية، وتقود هجمة على الأنظمة

والقوانين الدولية، أما العاقبة الطبيعية لذلك فهي تجمع قوة وسائل الإعلام العالمية في أيدي حفنة قليلة يتناقص عددها باستمرار. ففي عام 1983، حين أصدر بن باغديكيان كتابه "احتكار وسائل الإعلام"، تركزت ملكية وسائل الإعلام في أيدي خمسين من الشركات الكبرى (المندمجة) العابرة للحدود الوطنية[17]. في عام 2002، لم يبق سوى تسع شركات كبرى عابرة للحدود الوطنية تهيمن على وسائل الإعلام الأمريكية والعالمية: " أميركان اون لاين تايم وارنر" (AOL Time Warner)، "ديزني" (Disney)، " بيرتيلزمان" (Bertelsmann)، "فياكوم" (Viacom)، "نيوز كوربوريشن" (News Corporation)، "ت سي أي" (TCI)، "جنرال الكتريك" (General Electric) (مالكة ان بي سي)، "سوني" (Sony) (مالكة كولومبيا وتراي ستار بيكتشرز وشركات التسجيل الكبرى)، سيغرام (Seagram) (مالكة يونيفرسال فيلمز وشركات الموسيقا). وهكذا، لا يوجد اليوم على المستوى العالمي سوى صناعة إعلامية عملاقة واحدة، تزود الأمريكيين عمليا بكل ما يشاهدونه ويسمعونه على الشاشة، وموجات الأثير، ويقرؤونه في المطبوعات، ومواقع الويب على الإنترنت.

تمثل الشركات الإعلامية العملاقة هذه جماعة ضغط سياسي قوي ونافذ على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية. فهي تنفق في واشنطن وحدها حوالي 125 مليون دولار في السنة من أجل رفع القيود عن الملكية. ولا يقتصر تأثيرها على التدخل في صياغة مسودات القوانين والأنظمة الوطنية وتوجيهها لمصلحتها، لكنها تلعب أيضا دورا مهما في صياغة وتوجيه القواعد والأنظمة العالمية. في عام 2000 على سبيل المثال، مارست شركات الإعلام العملاقة ضغوطا مؤثرة من أجل فتح أبواب التجارة مع الصين، وقارعت أولئك الذين أثاروا مشاعر القلق حول حرية التعبير وحرية الصحافة. وقبل ذلك استخدمت وسائل الضغط التي تمتلكها الولايات المتحدة لفتح أسواق الهند أمام البث الفضائي التلفزيوني.

يقول مارك كريسبن ميللر في صحيفة "ذي نيشن" (The Nation) إن معظم ما يزود به هذا "الكارتل" الإعلامي الولايات المتحدة عبارة عن "دعاية تجارية أو سياسية". وتحت هيمنة "أمريكان اون لاين - تايم وورنر"، و"جنرال الكتريك"، و"فياكوم" وغيرها، ليست "الأخبار، مع بعض الاستثناءات القليلة، سوى نسخة أخرى من الترفيه الذي يبيعه 'الكارتل' ويبثه دون توقف". هذه الكيانات، كما يقول ميللر، هي:

معادية في نهاية المطاف لسعادة ورفاه الناس. وفي حين نحتاج لمعرفة الحقيقة عن مثل هذه الشركات، فإن لها مصلحة على الغالب في كبت الحقيقة (كما يفعل المعلنون لديها). وبينما يتطلب الأمر الكثير من الوقت والمال لاكتشاف الحقيقة، تختار الشركات الأم تخفيض النفقات الضرورية للصحافة، مفضلة ذلك النوع من السعر الزهيد الذي يمكنها من بث ساعات لانهاية لها من اللغو الفارغ المهيج ("مونيكا" ثم "سرفايفر"، و"تشاندرا ليفي" قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وبعد ذلك اليوم الكارثي عرضت علينا غالبا أخبار الجمرة الخبيثة، إضافة إلى أفلام بطولية من البنتاغون). علاوة على أن الجمهور المفضل لدى "الكارتل" هو تلك الشريحة السكانية المرغوبة بالنسبة للمعلنين - الأمر الذي يعني تجاهل وسائل الإعلام الكامل للطبقات العامة والفقيرة. وفي حين يتوجب على الصحافة المساعدة في حمايتنا ضد أولئك الذين يسيئون استخدام سلطات الحكومة، فإن القلة المحتكرة تتمتع بعلاقة مغالية في حميميتها مع البيت الأبيض والبنتاغون، وبالتالي فهي غير مستعدة لفضح ما يرتكبانه من أخطاء وجرائم. كبار رؤساء المؤسسات الإعلامية يريدون الحصول على امتيازات من الدولة، في

حين يخاف المراسلون والصحفيون من المخاطرة بإزعاج أفضل مصادرهم. وبسبب هذا اللطف والدماثة (وبالطبع، الذعر الراهن المخيم على الجو)، فإن تغطية أخبار هذه الحكومة الأمريكية أكثر تثقيفا وتنويرا بقليل من نشرات الأخبار المحلية في أية دولة استبدادية في العالم الثالث.

كان من المفروض بوسائل الإعلام المكرسة لمصلحة الشعب الأمريكي أن تستقصي وتحقق في الأداء الهزيل لوكالة المخابرات المركزية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، وإدارة الطيران الاتحادية، ومراكز مكافحة الأمراض، كي يطرأ تحسن على عمل هذه المؤسسات من أجل حمايتنا. لكن الفرق الإخبارية (مثلها مثل الكونغرس) لم تكلف نفسها عناء معاينة أنشطتها. كذلك يتوجب على وسائل الإعلام تناول وتحليل كافة التهديدات الراهنة التي تدهم أمننا. بما في ذلك تلك التي يشكلها المتطرفون في أقصى اليمين في استهدافهم للعيادات الطبية التي تجري عمليات الإجهاض، الذين يمارسون "الإرهاب البيولوجي" على ما يبدو؛ لكن الصحفيين ومراسلي المحطات التلفزيونية لا يعنيهم الأمر..

إذن، يتوجب على وسائل الإعلام تسليط الضوء، وليس التعتيم، على اعتداءات هذه الحكومة على الحريات المدنية - الاعتقالات الجماعية، الأدلة السرية، زيادة المراقبة والترصد، تعليق العمل بحق المتهم في استشارة محام، تشجيع التجسس، التحذيرات من مغبة المعارضة، الصور الخاضعة للرقابة، حجز ومصادرة الوثائق العامة، الزيارات المفاجئة لرجال الاستخبارات وغيرها. يتوجب على وسائل الإعلام الامتناع عن الترديد الببغائي لما يقوله البنتاغون عن الحرب الحالية، لأن مثل هذه الروايات الصاعقة تجعلنا راضين عن الذات، وتبقينا في جهلنا المهلك حول رأي العالم الحقيقي الواقع خارج حدودنا بنا والسبب الذي يدعوه لذلك.. وهنالك المزيد - حول الاستغلال المذهل للمأساة، خصوصا من قبل الجمهوريين؛ وحول الروابط الجامعة بين آل بوش وآل بن لادن؛ حول عملية الخداع المستمرة في فلوريدا - من الأمور التي ينبغي على وسائل الإعلام تعريف الشعب بها، لو لم تكن..غير مبالية بالصالح العام.

باختصار، يبدو أن أقسام وإدارات الأخبار في "كارتل" وسائل الإعلام تعمل عكس مصلحة واهتمام الشعب

الأمـــريـكـي . فهـــي مـكـرســـة لصـــالح شـــركاتها الأم، والمعلنين، وإدارة الرئيس بوش. الوضع "لاأمريكي" تماما. إن هـدف الصـحافة مسـاعدتنا عـلى إدارة شـؤون الدولـة، ولـيس العكـس. وكمواطـنين في بلـد ديمقـراطي، لديـنا الحـق والـتعهد بـالاطلاع عـلى/ ومعـرفة مـا يحـدث، في "الوطـن" وفي العـالم الخـارجي في آن. وبدون هذه المعرفة لن نكون آمنين ولا أحرارا[18].

يصعب وصف مثل هـذا الـنظام الإعلامـي المركز والخاضع لسيطرة محكمة بأنه "صحافة حرة". فالصحافة الحرة، كما أشـار فيليـب نايـتلي، الكاتـب والمراسـل الحـربي الـذي يحظـى بـاحترام كـبير، في مجلة "انديكس اون سينسورشيب" (Index on Censorship)، لا تحـول الجـدل الـذي احـتدم بعـد الحـادي عشـر مـن سـبتمبر إلى "شـتائم واسـتفزاز، وهجـوم شخصـي، واتهامـات تحريضـية، وترهيـب وتخويـف، إلى أن أجـبر المعلقـون والمفكـرون، الأشـخاص الذيـن نـريد سماع أصواتهم، على التزام الصمت"[19]. الصحافة الحرة، كما أكد روبرت مكشيسني، "لا تعيد إنتاج نشرات البنتاغون دون إخضاعها للنقد العقلاني، ولا تعمل من أجل أولئك الذين يستفيدون من وجود الظلم وعدم المسـاواة والمحافظـة عـلى الوضـع الـراهن"[20]. إن وظـيفة وسـائل

الإعـلام الأمريكـية هـي - بالدرجـة الأولى - إبقـاء الجمهـور الأمـريكي جـاهلا بالعـالم الخـارجي، فهـي تهـتم بإنـتاج المستهلكين السعداء، لا المثقفين الواعين، ذوي التفكير الحر، الذيـن يضـعون السياسـة الخارجـية لحكومـتهم موضـع المسـاءلة والتدقيق. وهـي تـؤدي هـذه الوظيفة على الأغلب من خلال الرقابة الذاتية، والانحياز الماكر المراوغ. إن الذهنية التجارية المغالية في التوكيد على الـربح تضـمر أحكاما مسبقة منحازة ضد الفعل السياسـي، والقيم المدنية، والأنشـطة المعادية للسـوق، وتـنزع إلى اعتـبار المجـتمع الاسـتهلاكي، والـتفاوت الطـبقي، ومـا يسـمى بـ"الفردانية"، أمـورا عادية وطبيعية وخيرة وتهدف إلى النفع العام. وعبقرية وسائل الإعلام الأمريكية، كما يلاحظ مكشيسني، تكمـن في "غـياب الـرقابة السـافرة عمومـا. ومـثلما أشـار جـورج اورويـل في مقدمـته - غـير المنشـورة - لـرواية 'مـزرعة الحـيوانات'، فـإن الـرقابة في المجـتمعات الحـرة أشـد تعقـيدا بكـثير وأكـثر شمولـية مـنها في الأنظمـة الديكـتاتورية، لأن 'مـن الممكـن إسـكات الأفكار غير الشائعة والتعتيم على الحقائق المزعجة، دونما حاجة لفرض حظر رسمي'"[21].

يـرفض مسلسـل "الاسـم المستعار" أن يأخذ أحداثه ومشاهده على محمـل الجد. فهو يستخدم كافة "الكليشيهات" الابتذالية

في أدب الجاسوسية، لكنه لا يكتفي بمجرد إعادة إفراغها في قالب جديد: بل يخرجها، ويسخر من التقاليد المتبعة، ويهزأ من سخف وعبثية حبكته الروائية. ذلك هو الجانب التعويضي فيه. إلا أن أمريكا، على العكس من ذلك، تبالغ في أخذ ذاتها على محمل الجد. ومعظم الأمريكان يعتبرون أن "حرية الصحافة" في أمريكا حقيقة بدهية لا تحتاج إلى بينة، وأن الولايات المتحدة تشجع الحرية وتروج لحقوق الإنسان في مختلف أنحاء العالم، وأن باقي سكان العالم يشعرون بالغيرة من حريتها وديمقراطيتها، وأن ثروة أمريكا هي نتيجة لزومية لـ"حرية التجارة"، وأن أسلوب الحياة الأمريكية هو أفضل ما ابتكر في تاريخ البشر، ولذلك يجب أن ينظر الجميع إليها بعين الحب والإعجاب والتقدير؛ وأن أمريكا تبعا لجملة لنكولن الشهيرة "آخر أفضل الآمال للجنس البشري". إنها لصدمة مزلزلة أن تكتشف أن رأي العالم بها على العكس من ذلك؛ وأنها أصبحت مصدرا للخوف والرعب وهدفا للبغض والكراهية، وأن هذا الرأي مؤسس على التجربة الحقيقية الملموسة مع قوة أمريكا و جبروتها خلال العقود الخمسة الماضية. "الحقيقة تجرح أحيانا"، لكن مثلما تكتشف سيدني، ليس ثمة مهرب من مواجهتها لسوء الحظ.

"قرن من عمليات التدخل العسكري الأمريكي، من ونديد ني إلى أفغانستان"

إعداد: زولتان غروسمان

- داكوتا الجنوبية، 1890 ـ (؟)

تدخل عسكري: ذبح 300 من هنود لاكوتا في ونديد ني.

- الأرجنتين، 1890.

تدخل عسكري: لحماية المصالح الأمريكية في بيونس ايرس.

- تشيلي، 1891.

تدخل عسكري: اشتبك مشاة البحرية مع الثوار الوطنيين.

- هايتي، 1891.

تدخل عسكري: أخمدت ثورة العمال السود على جزيرة نافاسا التي تدعي الولايات المتحدة ملكيتها.

- ايداهو، 1892.

تدخل عسكري: قمع الجيش إضراب عمال مناجم الفضة.

- هاواي، 1893 ـ (؟).

تدخل عسكري/ بحري: أسقطت قوات البحرية والجيش المملكة المستقلة، وضمت إلى الولايات المتحدة.

- شيكاغو، 1894.

تدخل عسكري: أنهى الجيش إضراب عمال السكك الحديدية، وقتل 34 شخصا.

- نيكاراغوا، 1894.

تدخل عسكري: احتل الجيش بلو فيلدز لمدة شهر.

- الصين، 1894 ـ 1895.

تدخل عسكري/ بحري: تدخل مشاة البحرية في الحرب الصينية ـ اليابانية.

- كوريا، 1894ـ 1895.

تدخل عسكري: بقي مشاة البحرية في سيؤول خلال الحرب.

- بنما، 1895.

تدخل عسكري/ بحري: نزل مشاة البحرية في مقاطعة كولومبيا.

- نيكاراغوا، 1896.

تدخل عسكري: نزل مشاة البحرية في ميناء كورينتو.

- الصين، 1898 ـ 1900.

تدخل عسكري: تدخل الجيش الأمريكي في ثورة جماعة "القضبان المتناغمة" السرية ضد الجيوش الأجنبية.

- الفليبين، 1898. 1910 (؟).

تدخل عسكري/ بحري: تم الاستيلاء على الفليبين من الإسبان، قتل 600.000 فلبيني.

- كوبا، 1898 ـ 1902 (؟).

تدخل عسكري/ بحري: تم الاستيلاء على كوبا من الإسبان، وأبقت الولايات المتحدة على قاعدة بحرية لها هناك.

- بورتوريكو، 1898 ـ (؟).

تدخل عسكري/ بحري: تم الاستيلاء على بورتوريكو من الإسبان، الاحتلال استمر.

- غوام، 1898 ـ (؟).

تدخل عسكري/ بحري: تم الاستيلاء على الجزيرة من الإسبان، ما زالت تستخدم كقاعدة حتى الآن.

- مينيسوتا، 1898 (؟).

تدخل عسكري: قاتل الجيش قبيلة تشيبيوا في ليتش ليك.

- نيكاراغوا: 1898.

تدخل عسكري: نزل مشاة البحرية في ميناء سان خوان ديل سور.

- ساموا، 1898 (؟).

تدخل عسكري: شارك الجيش في المعركة حول خلافة العرش.

- نيكاراغوا، 1899.

تدخل عسكري: احتل مشاة البحرية ميناء بلوفيلدز.

- ايداهو، 1899 ـ 1901.

تدخل عسكري: احتل الجيش منطقة المناجم كوار دالين.

- اوكلاهوما، 1901.

تدخل عسكري: قاتل الجيش ثورة الهنود الحمر من قبيلة كريك.

- بنما، 1901 ـ 1914.

تدخل عسكري/ بحري: انفصلت بنما عن كولومبيا عام 1903، وتم ضم منطقة القناة 1914 ـ 1999.

- هندوراس، 1903.

تدخل عسكري: نزل مشاة البحرية خلال الثورة.

- جمهورية الدومينيكان، 1903 ـ 1904.

تدخل عسكري: لحماية مصالح الولايات المتحدة خلال الثورة.

- كوريا، 1904 ـ 1905.

تدخل عسكري: نزل مشاة البحرية خلال الحرب الروسية ـ اليابانية.

- كوبا، 1906 ـ 1909.

تدخل عسكري: نزل مشاة البحرية خلال إجراء الانتخابات الديمقراطية.

- نيكاراغوا، 1907.

تدخل عسكري: أنشئت محمية "دبلوماسية الدولار".

- هندوراس: 1907.

تدخل عسكري: نزل مشاة البحرية خلال الحرب مع نيكاراغوا.

- بنما، 1908.

تدخل عسكري: تدخل مشاة البحرية في الانتخابات.

- نيكاراغوا، 1910.

تدخل عسكري: نزل مشاة البحرية في بلوفيلدز وكورنيتو.

- هندوراس، 1911.

تدخل عسكري: لحماية مصالح الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية.

- الصين، 1911 ـ 1941.

تدخل عسكري: احتلال مستمر مع استخدام العنف من وقت لآخر.

- كوبا، 1912.

تدخل عسكري: لحماية المصالح الأمريكية في هافانا.

- بنما، 1912.

تدخل عسكري: نزل مشاة البحرية خلال المعركة الانتخابات المحمومة.

- هندوراس، 1912.

تدخل عسكري: تدخل مشاة البحرية لحماية المصالح الاقتصادية الأمريكية.

- نيكاراغوا، 1912-1933.

تدخل عسكري: قصف، عشرون سنة من الاحتلال، محاربة رجال العصابات.

- المكسيك، 1913.

قوات بحرية: إجلاء الأمريكيين خلال الثورة.

- جمهورية الدومينيكان، 1914.

قوات بحرية: قتال الثوار للسيطرة على سانتو دومينيغو.

- كولورادو، 1914.

تدخل عسكري: إنهاء إضراب عمال المناجم بواسطة الجيش.

- المكسيك، 1914 ـ 1918.

تدخل عسكري/ بحري: سلسلة من عمليات التدخل ضد الوطنيين.

- هايتي، 1914 ـ1934.

تدخل عسكري، قصف: تسعة عشر عاما من الاحتلال بعد الثورة.

- جمهورية الدومينكان، 1916 ـ1924.

تدخل عسكري: ثمانية أعوام من الاحتلال (مشاة البحرية).

- كوبا، 1917 ـ1933.

تدخل عسكري: احتلال عسكري، إقامة محمية اقتصادية.

- الحرب العالمية الأولى، 1914 ـ 1918.

تدخل عسكري/ بحري: الاشتراك في الحرب ضد الألمان بعد إغراقهم للسفن الأمريكية.

- روسيا، 1918. 1920.

تدخل عسكري/ بحري: خمس عمليات إنزال لمحاربة البلاشفة.

- بنما، 1918. 1920.

تدخل عسكري: القيام "بمهمة رجل الشرطة" خلال الاضطرابات التي أعقبت الانتخابات.

- يوغسلافيا، 1919.

تدخل عسكري: تدخل مشاة البحرية لصالح إيطاليا ضد الصرب في دالماتيا.

- هندوراس، 1919.

تدخل عسكري: نزول مشاة البحرية خلال الحملة الانتخابية.

- غواتيمالا، 1920.

تدخل عسكري: تدخل لمدة أسبوعين ضد الزعماء النقابيين.

- غرب فرجينا، 1920 ـ 1921.

تدخل عسكري، قصف: تدخل الجيش ضد عمال المناجم.

- تركيا، 1922.

تدخل عسكري: لمحاربة القوميين في سميرنا (ازمير).

- الصين، 1922 ـ 1927.

تدخل عسكري/ بحري: نشر القوات خلال الثورة الوطنية.

- هندوراس، 1924 ـ 1925.

تدخل عسكري: إنزال القوات مرتين خلال الاضطرابات الانتخابية.

- بنما، 1925.

تدخل عسكري: مشاة البحرية يقمعون المشاركين في الإضراب العام.

- الصين، 1927 ـ 1934.

تدخل عسكري: انتشرت وحدات مشاة البحرية في أنحاء متفرقة من البلاد.

- السلفادور، 1932.

تدخل عسكري/ بحري: أرسلت السفن الحربية خلال ثورة فاربوندو مارتي.

- واشنطن دي.سي، 1932.

تدخل عسكري: قمع الجيش مظاهرات المحاربين القدماء (الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى) المطالبين بعلاوات إضافية.

- الحرب العالمية الثانية، 1939 ـ 1945 (شاركت الولايات المتحدة في الحرب عام 1941)

تدخل عسكري/ بحري، قصف، استخدام السلاح الذري: قتال دول المحور لمدة ثلاث سنين؛ أول حرب ذرية في التاريخ.

- ديترويت، 1943.

تدخل عسكري: أخمد الجيش ثورة السود.

- إيران، 1946.

تهديد نووي: أنذرت القوات السوفييتية بضرورة مغادرة المناطق الشمالية (أذربيجان الإيرانية).

- يوغسلافيا، 1946.

قوات بحرية: ردا على إسقاط طائرة أمريكية.

- أورغواي، 1947

تهديد نووي: نشرت القاذفات في استعراض للقوة.

- اليونان، 1947 ـ 1949.

قيادة وتوجيه: قادت الولايات المتحدة اليمين المتطرف في الحرب الأهلية.

- الصين، 1948 ـ 1949.

تدخل عسكري: إخلاء مشاة البحرية قبل انتصار الشيوعيين.

- ألمانيا، 1948.

تهديد نووي: القاذفات التي تحمل قنابل ذرية قامت بحراسة الجسر الجوي.

ـ الفليبين، 1948 ـ 1954.

قيادة وتوجيه: وجهت وكالة المخابرات المركزية الحرب ضد ثورة الهوك.

- بورتوريكو، 1950.

تدخل عسكري/ بحري: القضاء على ثورة الاستقلال في بونس.

- كوريا، 1950.

تدخل عسكري/ بحري، قصف، تهديدات نووية: خاضت الولايات المتحدة الحرب إلى جانب كوريا الجنوبية ضد كوريا الشمالية والصين؛ وقعت الأطراف المتحاربة في مآزق؛ تهديد بإلقاء القنبلة الذرية عام 1950، وضد الصين عام 1953. مازالت القواعد الأمريكية باقية في كوريا حتى اليوم.

- إيران، 1953.

قيادة وتوجيه: أسقطت وكالة المخابرات المركزية حكومة مصدق الديمقراطية، وأعادت تنصيب الشاه.

- فيتنام، 1954.

تهديد نووي: عرضت القنابل على الفرنسيين لاستخدامها ضد حصار الفيتكونغ لهم.

- غواتيمالا، 1954.

قيادة وتوجيه، قصف، تهديد نووي: قادت وكالة المخابرات المركزية الغزو الذي قام به اللاجئون المنفيون بعد أن أممت الحكومة الجديدة أراضي الشركة الأمريكية؛ نشرت القاذفات في نيكاراغوا.

- مصر، 1956.

تهديد نووي: حذر السوفييت من مغبة التدخل في أزمة السويس؛ مشاة البحرية أجلوا الأجانب.

- لبنان، 1958.

تدخل عسكري/ بحري، نزل مشاة البحرية في لبنان لدعم الحكومة ضد الثوار.

- العراق، 1958.

تهديد نووي: حذر العراق من مغبة غزو الكويت.

- الصين، 1958.

تهديد نووي: حذرت الصين من مغبة مهاجمة تايوان.

- بنما، 1958.

تدخل عسكري: تفجرت الاحتجاجات ضد رفع العلم الأمريكي على شكل مواجهة مع الجنود الأمريكيين.

- فيتنام، 1960 ـ 1975.

تدخل عسكري/ بحري، قصف، تهديدات نووية: حاربت أمريكا مع فيتنام الجنوبية ضد الثورة فيها وضد فيتنام

الشمالية؛ سقط ما بين مليون ومليوني قتيل في أطول حرب خاضتها الولايات المتحدة؛ تهديدات باستخدام القنابل الذرية في عامي 1968 و1969.

- كوبا، 1961.

قيادة وتوجيه: فشل غزو المنفيين الكوبيين بقيادة وكالة المخابرات المركزية.

- ألمانيا، 1961.

تهديد نووي: استنفار نووي خلال أزمة جدار برلين.

- كوبا، 1962.

تهديد نووي: حصار بحري خلال أزمة الصواريخ؛ الاقتراب من شفا الحرب مع الاتحاد السوفييتي.

- لاوس، 1962.

قيادة وتوجيه: حشد عسكري خلال حرب العصابات.

- بنما 1964.

تدخل عسكري: أطلقت النار على البنميين المطالبين بعودة القناة.

- إندونيسيا، 1965.

قيادة وتوجيه: قتل مليون إندونيسي في انقلاب عسكري دعمته وكالة المخابرات المركزية.

- جمهورية الدومينيكان، 1965 ـ 1966.

تدخل عسكري، قصف: نزل مشاة البحرية خلال الحملة الانتخابية.

- غواتيمالا، 1966 ـ 1967.

قيادة وتوجيه: تدخلت القوات الخاصة (القبعات الخضر) ضد الثوار.

- ديترويت، 1967.

تدخل عسكري: خاضت قوات الجيش حرب شوارع مع السود، سقط 43 قتيلا.

- الولايات المتحدة، 1968.

تدخل عسكري: بعد مقتل مارتن لوثر كينغ؛ نشر واحد وعشرون ألف جندي في المدن.

- كمبوديا، 1969 ـ 1975.

قصف، تدخل عسكري/ بحري: قتل مليونان من الكمبوديين خلال عمليات القصف الجوي التي امتدت عقدا من السنين؛ حدثت مجاعة وفوضى سياسية.

- عمان، 1970.

قيادة وتوجيه: وجهت الولايات المتحدة الغزو الذي قام به جنود البحرية الإيرانية.

- لاوس، 1971 ـ 1973.

قيادة وتوجيه، قصف: أدارت الولايات غزو الفيتناميين الجنوبيين؛ قصف منظم وواسع النطاق للمناطق الريفية.

- داكوتا الجنوبية، 1973.

قيادة وتوجيه: قاد الجيش عملية حصار لهنود لاكوتا في ونديد ني.

- الشرق الأوسط، 1973.

تهديد نووي: حالة من التأهب العالمي خلال حرب تشرين /أكتوبر.

- تشيلي، 1973.

قيادة وتوجيه: انقلاب عسكري دعمته وكالة المخابرات المركزية يطيح بالرئيس الماركسي المنتخب.

- كمبوديا، 1975.

تدخل عسكري، قصف، استخدام الغازات: تم الاستيلاء على سفينة، قتل ثمانية وعشرون جنديا في تحطم طائرة هيلوكبتر.

- انغولا، 1976 ـ 1992.

قيادة وتوجيه: ساعدت وكالة المخابرات المركزية الثوار الذين تدعمهم حكومة جنوب أفريقيا.

- إيران، 1980.

تدخل عسكري، تهديد نووي، عملية قصف مجهضة: هجوم لإنقاذ رهائن السفارة؛ مقتل ثمانية جنود في تحطم مروحية، تحذير للسوفييت بعدم التدخل في الثورة.

- ليبيا، 1981.

طائرات البحرية: إسقاط طائرتين ليبيتين خلال مناورات عسكرية.

- السلفادور، 1981 ـ 1992.

قيادة وتوجيه، تدخل عسكري: مستشارون عسكريون، مساعدات جوية لمحاربة الثوار، شارك الجنود لفترة قصيرة في عمليات لتخليص الرهائن.

- نيكاراغوا، 1981ـ 1990.

قيادة وتوجيه، قوات بحرية: قادت وكالة المخابرات المركزية هجمات ثوار "الكونترا"؛ ولغمت الولايات المتحدة سواحل نيكاراغوا.

- لبنان، 1982 ـ 1984.

قوات بحرية، قصف، تدخل عسكري: طرد مشاة البحرية منظمة التحرير الفلسطينية ودعموا حزب الكتائب؛ قصف من المدمرات على مواقع المسلمين اللبنانيين والجيش السوري.

- هندوراس، 1983 ـ 1989.

تدخل عسكري: المناورات ساعدت على بناء قواعد عسكرية قرب الحدود.

- غرينادا، 1983 ـ 1984.

تدخل عسكري، قصف: غزو بعد أربع سنين من الثورة.

- إيران، 1984.

طائرات مقاتلة: إسقاط طائرتين إيرانيتين في الخليج العربي.

- ليبيا، 1986.

قصف، قوات بحرية: غارات جوية لإسقاط الحكومة الوطنية.

- بوليفيا، 1986.

تدخل عسكري: ساعد الجيش في الهجمات على منطقة الكوكايين.

- إيران، 1987 . 1988.

أسطول، قصف: تدخلت الولايات المتحدة في الحرب إلى جانب العراق.

- ليبيا 1989.

طائرات الأسطول: إسقاط طائرتين ليبيتين.

- الجزر العذراء، 1989.

تدخل عسكري: اضطرابات قام بها السود في سنت كروا بعد عاصفة هبت على البلاد.

- الفليبين، 1989.

طائرات حربية: غطاء جوي للقوات الحكومية ضد الانقلابيين.

- بنما، 1989. 1990.

تدخل عسكري، قصف: تمت الإطاحة بالحكومة الوطنية بواسطة 27000 جندي، اعتقل قادة البلاد، وقتل أكثر من ألفي شخص.

- ليبريا، 1990.

تدخل عسكري: إجلاء الأجانب خلال الحرب الأهلية.

- المملكة العربية السعودية، 1990 . 1991.

تدخل عسكري، طائرات: مجابهة العراق بعد غزو الكويت؛ تم نشر 540 ألف جندي في السعودية وعمان وقطر والبحرين والإمارات وإسرائيل.

- العراق، 1990 . (؟).

قصف، تدخل عسكري، أسطول بحري: محاصرة الموانئ العراقية والأردنية، غارات جوية، مقتل أكثر من 200 ألف جندي عراقي خلال غزو العراق والكويت؛ إنشاء منطقتي

حظر جوي فوق الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب؛ تدمير واسع النطاق طال الجيش العراقي.

- الكويت، 1991.

أسطول بحري، قصف، تدخل عسكري: أعيدت العائلة المالكة الكويتية إلى الحكم.

- لوس أنجلوس، 1992.

تدخل عسكري: نشرت قوات الجيش ومشاة البحرية لمواجهة انتفاضة ضد الشرطة.

- الصومال، 1992 ـ 1994

تدخل عسكري / بحري، قصف: قوات من الأمم المتحدة احتلت الصومال بقيادة الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية؛ هجمات ضد أحد الأطراف المتنازعة في مقديشو.

- يوغسلافيا، 1992 ـ 1994.

أسطول بحري: حصار قوات حلف الناتو لصربيا والجبل الأسود.

- البوسنة، 1993 ـ 1995.

طائرات مقاتلة، قصف: طلعات جوية في منطقة الحظر الجوي؛ إسقاط طائرات صربية، وقصف القوات الصربية.

- هايتي، 1994 ـ 1996.

تدخل عسكري، أسطول بحري: محاصرة الحكومة العسكرية؛ الجيش أعاد الرئيس ارستيد إلى السلطة بعد ثلاث سنوات من الانقلاب العسكري.

- كرواتيا، 1995.

قصف: مهاجمة المطارات الصربية في كرايينا قبل الهجوم الكرواتي.

- زائير (الكونغو)، 1996 ـ 1997.

تدخل عسكري: وصول مشاة البحرية إلى مخيمات اللاجئين الرونديين (من قبيلة الهوتو) في المنطقة التي انطلقت منها الثورة الكونغولية.

- ليبريا، 1997.

تدخل عسكري: تعرض الجنود لإطلاق نار عند إجلاء الرعايا الأجانب.

- البانيا، 1997.

تدخل عسكري: تعرض الجنود لإطلاق النار عند إجلاء الرعايا الأجانب.

- السودان، 1998.

صواريخ عابرة: هجوم على مصنع للأدوية زعمت الولايات المتحدة أنه مصنع "إرهابي" ينتج غاز الأعصاب.

- أفغانستان، 1998.

صواريخ عابرة: هجوم على معسكر التدريب الذي أقامته وكالة المخابرات المركزية قبل أن تستخدمه الجماعات الأصولية الإسلامية التي اتهمت بمهاجمة السفارات الأمريكية.

- العراق، 1998 ـ (؟).

قصف، صواريخ عابرة: أربعة أيام من القصف المركز بعد الادعاء بأن العراق قد أعاق عمل مفتشي الأسلحة.

- يوغسلافيا، 1999 ـ (؟).

قصف، صواريخ عابرة: غارات جوية شديدة قام بها حلف الناتو بعد أن امتنعت صربيا عن الانسحاب من كوسوفو.

- اليمن، 2000.

أسطول بحري: هجوم انتحاري على المدمرة الأمريكية "كول".

- مقدونيا، 2001.

تدخل عسكري: قوات حلف الناتو نزعت سلاح الثوار الألبان.

- الولايات المتحدة، 2001.

طائرات، أسطول: عمليات واسعة للرد على الهجمات بالطائرات المخطوفة.

- أفغانستان، 2001.

تعبئة عسكرية أمريكية ضخمة لمهاجمة الطالبان وبن لادن. احتمال امتداد الحرب لتشمل العراق والسودان وغيرهما.

المصدر:

http://www.Zmag.Org/CrisesCurEvts/ interventions.htm

الفصل الرابع

شطائر "الهمبرغر" الأمريكية وغيرها من الفيروسات

يصعب العثور على مكان في العالم تقريبا لا يستطيع فيه المرء على الحصول على شطيرة "همبرغر". حتى في أدغال ساراواك النائية، أو غابات البرازيل المطيرة، أو صحارى شمال أفريقيا المقفرة، يتعذر الإفلات من "الأقواس الذهبية" المميزة لمطاعم "مكدونالد"، و"المشواة المتوهجة" لـ"برغر كينغ"، والفتاة الصغيرة المثيرة لـ"ويندي"، وغير ذلك من اللافتات والعلامات والرموز المميزة للمطاعم الأمريكية. لكن "الهمبرغر" أكثر من مجرد سلعة كلية الحضور تتواجد في كل مكان. ففي حين يتم الترويج للهمبرغر المنتج بالجملة باعتباره غذاء، إلا أنه هزيل القيمة الغذائية، بعد إضافة سلسلة من المواد الحافظة لمكوناته. وصحيح أن الهمبرغر يعتبر- علاوة على كل ذلك - من الأطعمة السريعة التحضير بالتأكيد، إلا أنه ليس الوجبة السريعة الوحيدة أو الأولى في العالم حسب الزعم الشائع. فلكل ثقافة وجبتها السريعة. "الشاورما" في الشرق الأوسط، و"التشات" (طبق من الخضار المسلوقة المبهرة) ورغيف الخبز المقلي في الهند، و"ناسي لاماك" (رز وسمك مقدد) في جنوب آسيا، و"البطاطا

والسمك" في بريطانيا، وشطيرة الجبنة وشرائح لحم الخنزير الفرنسية، تعتبر جميعا أمثلة على ذلك. إذن، تختلف حقيقة الهمبرغر، كطعام ومنتج ثقافي، اختلافا بينًا عن المزاعم التي تحيط به.

يعتبر الهمبرغر مصدرا محددا لكراهية أمريكا. فهو أكثر الرموز تكثيفا وتركيزا ـ وتجميدا؟ ـ للكُلِّ المعقد الذي هو أمريكا. وعلى شاكلة الهمبرغر، تتألف فكرة أمريكا (أمريكا كفكرة) من عدد من المكونات المنفصلة: هنالك الحكومة، أقوى حكومة على وجه الأرض، أو الدولة الوحيدة المفرطة القوة كما دعوناها؛ وهنالك تاريخ السياسة التي اتبعتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة، وعواقب هذه السياسات بالنسبة للدول والشعوب خارج حدود أمريكا؛ وهنالك القوة الهائلة للشركات الأمريكية التي يمكن أن تؤثر في سياسة الحكومة لمساندة مصالحها الراسخة، بينما تبقى بمنأى عن أية حكومة تسيطر عليها أو تحاسبها؛ ثم هنالك المفاهيم، والفلسفة، والروح المميزة للنظرة الأمريكية للعالم ـ مثل الفردانية والإيمان بالحرية الشخصية ـ التي تشابه المنكهات التي تجعل طعم الهمبرغر مستساغا؛ وهناك الأمريكان أنفسهم، بتوليفتهم الخاصة الجامعة لتصديق الذات، واللامبالاة الظاهرة بالعالم الخارجي،

واليقين بأن أسلوبهم الحياتي هو الأعظم والأشجع والأفضل لجميع البشر. ومثل الهمبرغر، تتقلص أمريكا متعددة الأبعاد هذه وتختزل وتختبر بوصفها "ماركة" معايرة، ومنتجة بالجملة، وتأتي ضمن "صفقة" شاملة. قد يتمتع كل جانب من جوانب أمريكا بشخصيته المميزة الخاصة، والعديد منها، إن أخذت على انفراد، تحظى بصفات وسمات تتفوق حسناتها على دلالاتها السلبية أو التي تثير الشكوك. لكن جوهر أمريكا، مثل الهمبرغر، هو أن الجوانب والملامح الفردية لتأثيرها نادرا ما تحدث على انفراد. الهمبرغر الحقيقي هو كيان مركب غزير ومتوفر إلى حد الإفراط، ومتعدد الطبقات. إن المدى الذي تبلغه أمريكا في تصريحها وتفاخرها بذاتها ككل مركب هو الذي يجعل من الهمبرغر تلك الاستعارة المجازية القوية الرامزة للأمة، والهدف المحتمل ونقطة تركيز الانتقادات الموجهة إلى أمريكا من العالم. الهمبرغر يعني شيئا أكبر من مكوناته. فهو في واقع الأمر أسلوب للحياة.

وباعتباره أسلوبا حياتيا، يعد الهمبرغر بدعة مغرية لها عواقب وتبعات ضارة بالصحة وقابلة للتمييز بكل وضوح. ليس لأنه خدعة مداهنة كلية الحضور فقط، بل لأن الذهنية الاستهلاكية التي يجسدها تعتبر تهديدا ثقافيا داهما وجليا. فهو

يشخص الطريقة التي تستولي فيها أمريكا على حياة الناس العاديين في مختلف أرجاء العالم، وتقلص مساحة حيزهم الثقافي. الفسحة التي تتيح لهم أن يكونوا أنفسهم، أن يكونوا مختلفين، أن يكونوا شيئا آخر غير أمريكا. وأمريكا وتبرز نفسها للعالم مثل شطيرة الهمبرغر: سلعة، ماركة مسجلة، خارجة لتستولي على كل الحيز الثقافي. وهي ترى كل الملامح السلبية لصورتها العالمية لا كشيء متجذر في صلب سياستها الخارجية أو هيمنتها الثقافية، بل مجرد مشكلة في الاتصال والتواصل. بعد الحادي عشر من سبتمبر، عينت إدارة الرئيس بوش شارلوت بيرز كوكيلة وزارة للشؤون الدبلوماسية العامة. اشتهرت بيرز، بعد أن توجت حياتها المهنية برئاسة اثنتين من أضخم شركات الإعلانات في العالم، "اوغليفي & ماذر" (Oglivy & Mother)، و"جي. والتر ثومبسون" (J. Walter Thompson)، لقيامها بـ"بترويج" منتجات مثل بطاقة "أمريكان اكسبريس" الائتمانية. وزير الخارجية كولن باول قال عنها متباهيا أمام أعضاء لجنة العلاقات الخارجية: "أتصدقون ما حصل؟ لقد أقنعتني بشراء أرز 'أنكل بنز'، ولذلك ليس ثمة خطأ في تعيين شخص يعرف كيف يبيع شيئا". أما "الشيء" الذي تبيعه بيرز فهو "ماركة ممتازة جذابة" تدعى "الولايات المتحدة"، والرئيس ووزير الخارجية هما "الرمزان المعبران عن الماركة"[1]. تقول بيرز في

مقابلة مع مجلة "بيزنس ويكلي" (Business Weekly): "فكرة بناء ماركة تجارية تنحصر كلها في إقامة علاقة بين المنتج ومستخدمه.. لسوف ننشر مصادر القوة المعنوية للولايات المتحدة - فضائل مثل نظامنا الاعتقادي وقيمنا"[2].

لكن توجد أصلا "علاقة" راسخة بين "المنتج ومستخدمه": علاقة مؤسسة على نصف قرن من الخبرة المتعلقة بكيفية ترويج "شركة أمريكا" لبضاعتها في العالم وإقناعه بمزاياها. ومن نتائج انتشار شطائر الهمبرغر الأمريكية في كافة أنحاء المعمورة، والفلسفة المرتبطة بها، أنها نشرت توحيد المعايير في العالم. فشطيرة "بيغ ماك" تحضر بنفس الطريقة، وتشحن في نفس الحاويات، ولها نفس الوزن، وتباع بنفس الأسلوب في سلسلة من المطاعم المشابهة في مختلف أرجاء العالم. ولربما تكون هناك بعض التنويعات الإقليمية لاقتناص الذوق المحلي والمخيال الثقافي - "برغر بالكاري" في الهند، "برغر ساموراي" في اليابان، "برغر رندانغ" في ماليزيا وإندونيسيا - لكن المنتج ثابت لا يتغير، بالرغم من "التنويع" المؤمرك على الطراز "المكدونالدي". هذا بالضبط ما خبره العالم من السياسة الأمريكية الخارجية: مع الولايات المتحدة، أنت تحصل على فكرة وممارسة معياريتين في تعاملها مع العالم. الفكرة تدور دوما وأبدا حول "قيمنا" التي توضع على

منصة عالمية: العدالة، الديمقراطية، حقوق الإنسان، الحرية، الهموم والاهتمامات المدنية، الرحمة، التصميم، المسؤولية ـ كل الفضائل العظيمة للحضارة الغربية. لكن الممارسة تناقض بإلحاح عنيد هذه القيم المثالية. بمعنى آخر، ترتبط أمريكا ـ سياسيا ـ مع العالم على أساس ازدواجية المعايير. وهذا يمثل إحدى أكثر الشكاوى من أمريكا شيوعا؛ والسبب الجوهري الذي يجعلها مكروهة من العالم.

لنأخذ على سبيل المثال مسألة العدالة. الحكومة الأمريكية تزعم أن نظام العدالة الذي تتبناه ـ القانون ـ موجود في قلب وضمير الأمة. وهي توبخ الدول الأخرى باستمرار بسبب ظلمها وقمعها واستبدادها. فقد أعلن الرئيس بوش في "خطاب الاتحاد" (شباط / فبراير): "إن قواتنا المسلحة قد بعثت برسالة واضحة الآن إلى كل عدو للولايات المتحدة: حتى لو كان على بعد سبعة آلاف ميل، أو وراء المحيطات والقارات، أو على قمم الجبال، أو في أعماق المغاور، مفادها: لن تفلت من قبضة عدالة هذه الأمة". السياسة الخارجية الأمريكية لها مفهومها الخاص عن العدالة، تبدى بجلاء حين اختار البنتاغون اسم "عملية العدالة المطلقة" كماركة مسجلة أصلية للحرب التدميرية في أفغانستان. لكن العدالة المطلقة، كما أشار العديد من

المسلمين، لا يقيمها تبعا لمعتقداتهم إلا الحق تبارك وتعالى برحمته التي وسعت السماوات والأرض. أما العدل البشري فهو محدود وناقص وغير معصوم. إن العدل الذي ينتظر العالم من أمريكا تطبيقه يتطلب القبض على الإرهابيين، ومحاكمتهم في محكمة جنايات نزيهة وعلنية، ثم إنزال القصاص العادل المعقول بهم - الذي يمكن أن يصل إلى السجن المؤبد. وهذا لن يظهر ما تعنيه العدالة فقط، بل سوف ينزع الغموض عن الإرهابيين، ويفضح زيف قضيتهم، ويفتح عيون أتباعهم وأنصارهم. لكن ما الذي نجده بدلا من ذلك؟ "هؤلاء لا يستحقون نفس الضمانات والحماية التي يتمتع بها المواطن الأمريكي عبر الإجراءات القانونية المعتادة"، كما أعلنت إدارة الرئيس بوش[3]. وبالتالي، فإن العدالة بالنسبة للمجرمين والإرهابيين الأمريكيين تعني شيئا؛ لكنها بالنسبة للمجرمين والإرهابيين من غير الأمريكيين تعني شيئا آخر مختلفا تماما. سوف تشكل لجنة عسكرية، مكونة من زمرة من الضباط الخاضعين لأوامر رئيسها، قائدهم العام، لتحديد ما إذا كان بالإمكان "إعدام [المتآمرين] بأسلوب سريع نسبيا"[4] اللجنة العسكرية لا تلتزم بأي مفهوم عالمي عن العدالة أو المحاكمة النزيهة: فهي تنتهك ضمانات المحاكمة العادلة التي كفلها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والميثاق الأوروبي، بل تخرق حتى متطلبات الحد الأدنى الذي أقرته

اتفاقية جنيف لعام 1949. وكما ذكرت افتتاحية لصحيفة "نيويورك تايمز"، فإن اللجنة العسكرية تعتبر "انحرافا خطيرا عن الإجراءات القانونية المتعارف عليها"[5]. أما جيفري روبرتسون، أحد أبرز المحامين المدافعين عن حقوق الإنسان في بريطانيا (المعين بتوصية من الرئيس الأعلى للقضاء البريطاني) فيعدد الاعتراضات الرئيسة على اللجنة العسكرية كما يلي:

1 - اللجنة لا تتصف بالاستقلالية أو بالنزاهة، حسب ما تتطلبه المادتان 84 و85 من اتفاقية جنيف الثالثة (1949) حول معاملة أسرى الحرب، التي صادقت عليها الولايات المتحدة (إضافة إلى 187 دولة أخرى). فضباط الجيش الذين سيلعبون دور "القضاة" يتلقون رواتبهم وترقياتهم من وزارة الدفاع، وهي ذراع للحكومة التي ادعت أن ["الأسرى"] مذنبون، والتي تتصرف في كل الأحوال باعتبارها السلطة التي تحتجزهم. لقد فوض هؤلاء الضباط بلعب دور "القضاة" من قبل الرئيس، القائد العام، الذي "قرر كتابة" أن المتهمين يجب مقاضاتهم وبالتالي فإن من مصلحتهم الثابتة تجريمهم وإدانتهم.

2 - لا يحق للمتهمين الاستئناف، إلا إلى الرئيس، الذي لا يمكن أن يكون نزيها، لأن قرار الاستئناف موجه ضد محكمته.

3 - ليس ثمة قواعد أو ضمانات إثبات عادية - إذ لا تقبل البينة إلا إذا ظن الضابط الذي يترأس المحكمة بأنها مقبولة. واستنتج قاض أمريكي شهير أجرى دراسة مؤخرا لسجلات اللجان العسكرية في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، أنها "تقدم مثالا صارخا على إمكانية وقوع الظلم والتعسف حين تكون قواعد البينة على درجة من المرونة بحيث تبدو وكأنها غير موجودة".

4 - جلسات الاستماع ستكون سرية ولن يسمح لأحد بالاطلاع على محاضرها.

5 - لا يشترط العمل بمبدأ البينة على من ادعى، أو أن يحقق الادعاء معيار "بدون أي شك معقول". فالإدانة تثبت بمجرد دليل يتمتع "بقيمة تجريبية واحتمالية بالنسبة للشخص المنطقي". وليس ثمة حاجة لأن يأخذ الضباط الذين يشكلون "هيئة المحلفين" قرارهم بالإجماع - فأغلبية ثلثي الأصوات كافية لثبوت الإدانة. كما أنهم لا يقدمون سببا منطقيا مكتوبا لحكمهم.

6 - الحكم بالإعدام تنفذه - تقليديا - زمرة من الجنود رميا بالرصاص[6].

بكلمات أخرى، تنتهك اللجنة العسكرية كل مفهوم عن العدالة عرفته الحضارة. وبعد اتهام طالبان بخرق القواعد الأساسية للعدالة، آثرت الولايات المتحدة تطبيق نوع من العدالة "لا يختلف في الجوهر عن عدالة طالبان التي كانت تنفذ الإعدامات في ملاعب كرة القدم"(7). ولا يمكن حتى وصف اللجنة بأنها "محكمة الكنغر" القراقوشية التي لا تراعى فيها مبادئ القانون والعدالة (في التسمية إهانة للأستراليين الذين يعرفون الصفات المحببة لهذا الحيوان)، لأنها ليست محكمة على الإطلاق: "إنها امتداد لسلطة الرئيس، الذي يقوم، شخصيا أو من خلال ضباطه المؤتمرين بأمره، بدور المدعي العام، والقاضي، وهيئة المحلفين، وقاضي محكمة الاستئناف"(8).

هذا الاستعراض التيّاه لمثل هذه الازدواجية بالمعايير هو الذي جعل أمريكا هدفا لكراهية العالم. ومن يسافر في مختلف أرجاء العالم، من البرازيل إلى كندا، ومن باكستان إلى كوريا الجنوبية، سوف يقابل أعدادا ضخمة من الناس الذين سيقدمون مرارا وتكرارا، الأمثلة التالية عن المعايير الأمريكية المزدوجة:

1 - تفاخر أمريكا بكونها ديمقراطية، وتحث الدول الأخرى باستمرار على مزيد من الديمقراطية، وتنتقد وتستهجن، أو تتخذ إجراءات عقابية ضد الدول التي تعتبر، من منظور

حكومتها، أقل من ديمقراطية. الناخبون الأمريكيون يختارون أقوى رئيس في العالم، القائد العام لأعظم ترسانة حربية عرفها التاريخ، ومع ذلك فإن القضية الرئيسية المقلقة هي هل سيكلف نصف الناخبين أنفسهم عناء ممارسة هذا الحق أم لا. وما أثبتته الانتخابات الرئاسية عام 2000 هو انعدام الثقة في الديمقراطية المباشرة للآباء المؤسسين لأمريكا. وتبعا لما هو مفروض، لا يوجب النظام الانتخابي الأمريكي اعتبار المرشح الذي حاز على العدد الأكبر من أصوات الناخبين الأمريكيين في كافة أنحاء البلاد رئيسا بالضرورة، كما حدث في انتخابات عام 2000. فالمقترعون الأفراد لا يدلون بأصواتهم لانتخاب الرئيس مباشرة بل لتقرير تشكيل "الهيئة الانتخابية" (Electoral College)، التي توزع على أساس كل ولاية بمفردها. أما عدد "الناخبين" (الذين يشكلون الهيئة الانتخابية) فيخصص لكل ولاية بصورة تتناسب مع عدد سكانها. وللولايات المختلفة ترتيبات متباينة لاختيار أعضاء هيئتها الانتخابية: في بعض الولايات، يحصل المرشحون على أصوات هؤلاء الأعضاء بشكل يتناسب مع أصوات الناخبين فيها؛ في بعضها الآخر يربح الفائز كل شيء. ولذلك فإن الجزء الحاسم من عملية انتخاب الرئيس هو بناء "رقعة الداما" الصحيحة من التأييد في بعض الولايات المحددة. فالأغلبية الساحقة من الأصوات الشعبية في ولاية معينة واحدة،

أو حتى في عدد من الولايات، يمكن أن تكون غير ذات صلة بالنتيجة العامة للانتخابات. المهم هو مكان إقامة مؤيدي المرشح، وليس عددهم المطلق. البنية الهيكلية المبهمة للعملية الانتخابية قصد منها أن تقرر المسألة برمتها، في الانتخابات التي يتعادل فيها المرشحون المتنافسون، لا بواسطة المقترعين أنفسهم، بل من خلال ممثليهم، السياسيين المحترفين في الكونغرس، رغم أن قرار المحكمة العليا - وهي هيئة معينة لا منتخبة - أنهى فجأة التغييرات المحتملة في انتخابات عام 2000 ومنح الفوز لجورج بوش.

2 - تعلن الولايات المتحدة أن الانتخابات يجب أن تكون حرة ونزيهة، وتحرم على الدول الأخرى التدخل في الانتخابات الأمريكية، أو التبرع للأحزاب السياسية الأمريكية، أو التأثير في نتيجة الانتخابات بأية طريقة كانت، لكنها تتدخل بشكل روتيني في انتخابات الدول الأخرى. سرا عبر وكالة المخابرات المركزية حينا، ومن خلال المنظمات الأهلية (NGOs) ووسائل الإعلام أحيانا. على سبيل المثال، قدمت وكالة المخابرات المركزية الدعم المالي في الخمسينيات لحملة الرئيس كميل شمعون الرئاسية واختارت المرشحين للبرلمان اللبناني؛ وفي غويانا البريطانية (آنئذ)، منعت الولايات المتحدة الرئيس تشيدي جاغان

المنتخب ديمقراطيا من استلام منصبه طيلة الفترة الممتدة بين عامي 1953 ـ1964؛ وفي عام 1964، مولت وكالة المخابرات المركزية الرئيس البوليفي رينيه بارينتوس بمبلغ 600 ألف دولار في محاولة ـ ناجحة ـ للتأثير في نتيجة الانتخابات العامة؛ وتدفقت ملايين الدولارات من الولايات المتحدة إلى نيكاراغوا في الثمانينيات عبر مؤسسة "المنحة الوطنية للديمقراطية" (NED) وهي واجهة تعمل من خلفها وكالة المخابرات المركزية، للحيلولة دون انتخاب الساندينيين بشكل ديمقراطي. في كتابه "الدولة المارقة"، وضع وليام بلوم قائمة تضم 23 بلدا قامت فيها الولايات المتحدة "بتشويه وتزوير الانتخابات، وتدخلت في العملية الديمقراطية لضمان النتيجة المفضلة: إيطاليا من عام 1948 وحتى السبعينيات؛ لبنان في الخمسينيات؛ إندونيسيا، 1955؛ لاوس 1960؛ البرازيل 1962؛ جمهورية الدومينيكان، 1962؛ غواتيمالا، 1963؛ بوليفيا، 1966؛ تشيلي، 1964ـ1970؛ البرتغال، 1974 ـ 1975؛ استراليا، 1974 ـ 1975؛ جمايكا، 1976؛ بنما، 1984 ـ 1989، نيكاراغوا، 1984، 1990، هايتي، 1987 ـ 1988؛ بلغاريا، 1991 ـ 1992؛ روسيا، 1996؛ منغوليا، 1996؛ البوسنة، 1998 [9].

3 ـ تعتبر الدولة الأمريكية نفسها معرضة لتهديد داهم من "الدول المارقة" و"العناصر التي لا تنتمي لأي دولة" ؛ فهناك "التهديد الروسي"، و"التهديد الصيني"، و"التهديد الكوبي"، وتهديد "محور الشر"، و"التهديد الإرهابي". لكن من الناحية العسكرية، تعد الولايات المتحدة أقوى دولة في التاريخ، وحتى لو جمعت كل دول العالم الأخرى مواردها العسكرية معا فلن تتمكن من تشكيل تهديد معقول للولايات المتحدة. القوة العسكرية الهائلة للولايات المتحدة أكبر بمرتين ونصف مثلا من مجموع القدرات العسكرية للدول التسع التالية التي يمكن أن تشكل عدوا محتملا لها: روسيا، الصين، إيران، كوريا الشمالية، العراق، ليبيا، سوريا، السودان، كوبا. وليس ثمة ند في العالم في تركيز القوة المطلقة لأسطول حاملات الطائرات الأمريكية المخصص لأداء المهام الخاصة: مجموعة الحاملات التي تعمل بالطاقة النووية بقيادة الحاملة "انتربرايز" التي تضم مهبطا على سطحها يبلغ طوله حوالي الميل تقريبا، إضافة إلى مبنى ضخم بارتفاع عشرين طابقا، وفي هذه المجموعة البحرية وحدها تتركز قوة حربية تتفوق على كل ما يمكن أن تجمعه معظم الدول المتقدمة بكامل قواتها المسلحة. تملك الولايات المتحدة اثنتي عشرة حاملة مماثلة ـ إضافة إلى واحدة أخرى تحت التطوير ("رونالد ريغان"). يقول بول كنيدي، أستاذ التاريخ في

جامعة ييل: "لم يتواجد مثل هذا التفاوت في القوة من قبل، أبدا". فقد راكمت الولايات المتحدة قوة أكبر من قوة شارلمان، والإمبراطورية الرومانية، وبريطانيا في ذروة سطوتها الإمبريالية. وليس من المفاجئ أن الولايات المتحدة تنفق على ميزانية الدفاع أكثر مما أنفقته أية دولة على مدى التاريخ. وفي حين خفضت القوى الأوروبية حجم إنفاقها على الدفاع بعد سقوط جدار برلين، وكبحت الصين جماح إنفاقها العسكري، وانهارت الميزانية العسكرية الروسية، فقد استمرت ميزانية الدفاع الأمريكية في التصاعد، من 260 مليار دولار في منتصف التسعينيات إلى رقم مذهل بلغ 329 مليارا عام 2002. وسيرتفع إلى 400 مليار - أي نصف حجم الإنفاق العسكري في كل دول العالم مجتمعة. يحدث هذا في دولة ديمقراطية تدعي أنها تزدري الحكومة المتضخمة! يقول كيندي: "راجعت كافة ميزانيات الإنفاق على الدفاع وإحصائيات كوادر العاملين في القوات المسلحة طيلة الخمسمائة سنة الماضية وجمعتها بصورة مقارنة في كتاب 'نهوض وسقوط القوى العظمى' (1989)، ولم أجد أمة أخرى تقترب من الولايات المتحدة في هذا المجال"[10]. وبالرغم من قوتها العسكرية التي لا تضاهى والأرقام الفلكية لميزانيتها الدفاعية، فإن المال لم يشتر لها الأمن. فما زالت الولايات المتحدة تشعر بأنها مهددة - إلى حد أنها ألحت على عسكرة

الفضـــاء الخـــارجي. بـــرنامج حـــرب الــنجوم، الــذي اســتهدف "الــتحكم بالفضـــاء الخـــارجي"، و"الهيمـــنة عـــلى الفضـــاء الخـارجي"،و"التفوق في الفضاء الخارجي"، يستهدف نشر نظام صـاروخي في الفضـاء، والأرض، والـبحر، إضـافة إلى تشـكيلة متـنوعة مـن الأنظمـة الـتي تـدور حـول الأرض ويمكـن لهـا أن تضـرب أهدافـا بـرية. وحـتى الشـركات الأمريكـية المصـنعة للسـلاح، مـثل "لوكهيد مـارتين" (Lockheed Martin) العملاقة المتخصصة في الصناعات الجوية، تواجه مشاكل في العثور على عدو مناسب تستهدفه القوة العسكرية الأمريكية. لقد وصف الخـبراء الفرنسـيون الـتطور العســكري الأمــريكي بعــبارة "العسـكرية المـتعملقة"، وهـي عـبارة تدمـج المطـامح العسـكرية للولايـات المـتحدة مـع فكـرة أنهـا حالـة مرضـية: فالكـائن الحـي الذي ينمو في الحجم إلى هذه الدرجة لابد أن يكون مريضا.

4 ـ السياسة الخارجية للولايات المتحدة اعتبرت نفسها رقيبا على الـدول الـتي تسـعى للحصـول عـلى الأسـلحة الـنووية، كمـا فرضـت علـيها العقوبـات، وحولـتها إلى شـياطين رجـيمة. فقـد فرضت عقوبات شديدة على الهند وباكستان بسبب تطوير مثل هـذه الأسلحة. وأبلست كوريا الشمالية لامتلاكها ترسانة نووية. لكـن الولايـات المـتحدة تملك أضخم مخزون من الأسلحة النووية

في العالم، وهي الدولة الوحيدة التي استخدمت القنبلة الذرية (في هيروشيما وناغازاكي) في الحرب. كما تجبر الدول الأخرى على الإذعان وتوقيع "معاهدة الحظر الشامل على التجارب النووية" والتصديق عليها، لكنها ترفض هي التوقيع بكل عناد. علاوة على ذلك، رفضت التخلي عن مبدأ توجيه الضربة الأولى باستخدام الأسلحة النووية، أو حتى التعهد بالامتناع عن استخدامها ضد الدول التي لا تملك قدرات نووية. بل عتمت على الفارق المقبول منذ سنين عديدة الذي يميز بين الأسلحة النووية وغير النووية، وتنبأت باستخدام الأسلحة النووية ضد أهداف قادرة على الصمود أمام هجمات بالأسلحة التقليدية، مثل المخابئ الحصينة تحت الأرض. إضافة إلى ذلك، فهي مستعدة لاستخدام الأسلحة النووية ضد أهداف لا تملك أسلحة نووية، مثل "العناصر التي لا تنتمي إلى دولة"، أي الجماعات الإرهابية التي تملك أسلحة كيماوية أو بيولوجية. وفي حين أنها تجبر الدول الأخرى على التخلي عن برامجها النووية، إلا أنها تستمر في تطوير برامجها الخاصة، بما في ذلك تصميم وتطوير "القنابل النووية المصغرة" (Mini nukes)، والعودة إلى إجراء التجارب النووية. الأسوأ من كل ذلك أنها تحاول دون خجل الزعم بأنها تتبنى موقفا أخلاقيا ساميا عبر الإشارة إلى أن الأنواع الجديدة من الرؤوس الحربية "تقلص في الواقع حجم الدمار الشامل"؛ أي أن

الأسلحة النووية الصغيرة سوف تقتل عددا أقل من المدنيين مقارنة بالأسلحة التقليدية - وهو توكيد يتعارض مع كل ما نعرفه عن هذه الأسلحة. ولدى الولايات المتحدة خطط للهجوم بالأسلحة النووية في حالات الطوارئ على سبع دول هي روسيا، والصين، والعراق، وكوريا الشمالية، وإيران، وليبيا، وسورية. هذا مع أن سياستها المعلنة تبقى ملتزمة بمبدأ "توكيدات الأمن السلبية" الذي تعهدت فيه واشنطن بعدم استخدام الأسلحة النووية ضد الدولة التي لا تملك مثل هذه الأسلحة، إلا إذا هاجمت الولايات المتحدة أو حلفاءها بالاشتراك مع دولة تمتلكها[11].

5 - فرضت حكومة الولايات المتحدة عقوبات ضد الدول التي طورت أو احتفظت بمخزون من الأسلحة البيولوجية والكيماوية، وحولتها إلى شياطين رجيمة، ويجسد العراق مثالا صارخا على هذه الدول، مع العلم بأن الولايات المتحدة هي التي زودته بمعظم ترسانته من هذه الأسلحة أصلا. إلا أن الولايات المتحدة تملك أضخم مخزون من الأسلحة البيولوجية (الجدري، الجمرة الخبيثة..) وهي تستمر في اختبار وتجريب أسلحة جرثومية جديدة. ولديها 30000 طن من الأسلحة الكيماوية. ورفضت بعناد دعم أية مبادرة للأمم المتحدة بفرض حظر على تطوير

الأسلحة البيولوجية والكيماوية، أو الموافقة على اتخاذ أية إجراءات لإقرار معاهدة حول الأسلحة البيولوجية.

6 ـ تقول حكومة الولايات المتحدة إنها لا تقتل المدنيين، وأن "قنابلها الذكية" توجه للأهداف العسكرية فقط. لكنها تستهدف، في دورها "كشرطي دولي" البنى التحتية المدنية: منشآت تنقية المياه، محطات الكهرباء، السدود، أنظمة التحكم بالفيضانات والري، خزانات الماء، محطات الضخ، مراكز البحوث الطبية، مصانع أغذية الأطفال، منشآت الصرف الصحي، الجسور، منشآت النقل، مصانع البتروكيماويات، مصانع الأسمدة، مصانع السيارات، إضافة إلى المستشفيات، والمدارس، وأبنية الصليب الأحمر، والأحياء السكنية، والسفارات، بل حتى مكاتب مراسلي محطات الأخبار الأجنبية (كما حدث في الحرب الأفغانية). في واحدة من الحملات الكبرى التي دامت أكثر من عشر سنين ـ حرب فيتنام ـ قصفت الولايات المتحدة بالقاذفات الاستراتيجية (بأسلوب قصف "السجادة" الشامل) ثلاث دول (فيتنام الشمالية، كمبوديا، لاوس) لتقتل ثلاثة ملايين مدني على أقل تقدير. وقبل عقد من السنين، استخدمت نفس أسلوب القصف في كوريا الشمالية، حيث لم يتبق فيها هدف لم يتعرض للتدمير. وفي نهاية

حرب الخليج، قصفت قافلة عسكرية عراقية لتدفن مائة وخمسين ألفا من المجندين - وهم أحياء - بعد أن استسلموا ولم يعودوا يشكلون أي تهديد. وتروج للكذبة المخادعة التي تقول بإمكانية قصف بلد على مدار الساعة دون إصابة سوى حفنة من الضحايا المدنيين، ثم تكافح لإبعاد هؤلاء الضحايا عن شاشاتنا التلفزيونية. ومثلما بزّت الولايات المتحدة كل الإمبراطوريات السابقة، كبريطانيا وفرنسا، وإسبانيا والبرتغال، في القوة الوحشية والنفاق المفضوح، كذلك فاق الكره لأمريكا كل الاحتقار والازدراء اللذين قوبلت بهما القوى الاستعمارية التاريخية. الكره الموجه إلى الولايات المتحدة، من البرازيل إلى زائير، مؤسس على الإيمان بأن أمريكا تطالب الجميع "بالاستقامة والانضباط" بينما هي أبعد ما تكون عن الاستقامة والانضباط؛ تبيع العالم كلاما عن الديمقراطية والتنوع والتعدد، في حين أنها في العمق غير ديمقراطية في مسلكها وغير متسامحة مع أية دولة لا توافق على تصرفاتها، أو تعرض بديلا عن السبيل الذي اختارته واشنطن. إن غضب وسخط العالم يأتيان، كما تلاحظ نعومي كلاين في "الغارديان"، "من إدراك واضح للدعاية المزيفة. بكلمات أخرى، لا تكمن مشكلة أمريكا في علامتها التجارية التي يندر وجود أقوى منها - بل في

منـتجها". لكـن مـا إن ترسـخ "هويـة الماركـة" بواسـطة إحـدى الشـركات:

حـتى تفـرض بانضـباط عسـكري في كافـة عملـيات الشـركة. هوية الماركة قد تفصل لتناسب مقاس اللغة المحلية والخـيارات المفضـلة ثقافـيا (مثـلما تبـيع مطـاعم "مكدونـالد" "البيـتزا" في إيطالـيا)، لكـن ملامحهـا الجوهـرية ـ الجوانـب الجمالـية، الرسـالة، الشـعار ـ تبقى كمـا هـي بدون تغيير. هذا الثبات على المبدأ هو ما يدعوه مـدراء العلامـة التجارية بـ"الوعد المأمول": أي تعهدها بأن تشـعر في تجربـتك في أي مكـان في العـالم مـع "والمـارت Wal Mart"، أو "هولـيداي ان"، أو مديـنة ملاهـي "ديـزني"، بالـراحة والألفـة. في لـبها الجوهـري، تـتمحور عملـية الترويـج والتسـويق حـول رسـائل موجهـة أحاديـة الاتجـاه، تبعـث بأكـثر الأشـكال جاذبـية وبـريقا، ثـم تحجـب عـن أولئك الذين قـد يحولون مناجاة الشـركة مع ذاتها إلى حوار اجتماعي[12].

"الرسـالة الأحاديـة الاتجـاه" الـتي تبعـثها الولايـات المتحدة إلى العـالم تشـير إلى أن واقعهـا الـثقافي والاجتماعي هو الواقع الوحيد الذي يهم فعلا. ولمجرد أن الأمريكي يأكل وسطيا ثلاث شطائر

مـن "الهمـبرغر" في الأسـبوع أي أن الأمريـكـيين يسـتهلكون 38 مليارا مـنها في السـنة (60٪ مـن كـل أنـواع الشـطائر الأخـرى المستهلكة في الولايات المتحدة)، فإن على باقي سكان العالم أن يأكلوا شطائر "الهمبرغر" أيضا. وبالطبع لا يجبر أحد هؤلاء على أكلها - فهي شعبية وشائعة دون ريب - لكن الرغبة بشطائر "الهمـبرغر" الأمـريكي تخلـق وتسـتثار بواسـطة دعايـة هائلـة، بالارتباط مع المنتجات الثقافية الأمريكية الأخرى، مثل أفلام "ديزني"، وما يصاحبها من فتنة وسحر وقوة الحضارة الأمريكية ذاتها. شطائر "الهمبرغر" ليست مجرد وجبة طعام سريعة؛ بل هي أيضا اقتصاد التقانة السريعة الوتيرة. واحد من بين كل عشرة أمريكـيين يعمـل في أحـد منافذ بيع الوجبات السـريعة؛ وبـدأ حوالي 7٪ من القوة العاملة في الولايات المتحدة العمل في مطاعم "مكدونالد". وإذا اعتبرنا الفضاء كله أمريكيا فإن الفضاء الثقافي للعالم ينتمي إلى "الهمـبرغر" الأمـريكي. ومطـاعم "مكدونالد" وحدها باعت اثنتي عشرة شطيرة لكل فرد من سكان الأرض.

لكن سلاسل مطاعم "الهمبرغر" لا تكتفي فقط بفرض شطائر "الهمبرغر" على سكان العالم. فهي تحمل في ركابها أيضا المبادئ والأنساق والعمليات الكامنة في أساس مطاعم

الوجبات السريعة: كفاءة عملية وظيفية، قابلية تامة للتنبؤ، جدارة وأهلية، سيطرة تامة وتحكم كامل من خلال استبدال اليد العاملة البشرية بالتقانة غير البشرية. كيف يمكن للثقافات المحلية منافسة مثل هذه الهجمة الكاسحة؟ يتوجب على المنتجات الثقافية المحلية محاكاة السلع الثقافية الأمريكية المفروضة كي تستطيع البقاء. وهكذا ينتهي المطاف بالمطاعم المحلية مثلا وهي تبدو كمطاعم "مكدونالد" تماما:

> هنالك العديد من الأمثلة، تشمل مطاعم "جوس برغر" في بيروت، وسلسلة مطاعم "روسكي بريستو" في روسيا، حيث صممت عمدا على غرار مطاعم "مكدونالد" التي اعتبرتها نموذجا تحتذيه. أما أشهر مطعم في بكين - "كوان جود للبط المشوي" - فقد أرسل كادره الإداري في دورة تدريبية عام 1993 إلى "مكدونالد"، ثم قدم "وجبة البط المشوي السريعة" في أوائل عام 1994. في معنى من المعاني، يعتبر غزو مبادئ "مكدونالد" - الخفية غالبا - واقتحامها عمق المؤسسات المحلية هو التهديد الأخطر للثقافات الوطنية مقارنة بانتشار مطاعم "مكدونالد" ذاتها (وغيرها من مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية) في الدول الأخرى[13].

في أوروبا، يعد هذا "الغزو الخفي" العامل الرئيس الذي جعل من "مكدونالد" رمزا دالا على التأثير المدمر البطيء للثقافة الاستهلاكية الأمريكية، والهدف المتكرر لمشاعر الغضب المحلية والحملات المناهضة لأمريكا. في بريطانيا على سبيل المثال، رفعت هيلين ستيل (موظفة في البريد) وديف موريس (بستاني) دعوى قضائية على شركة "مكدونالد"، بتهمة "استغلال الأطفال" بإعلاناتها الدعائية، ومسئوليتها عن المعاملة الوحشية للحيوانات، وأجورها المتدنية، و"كرهها الغريزي" لتشكيل النقابات. استمرت هذه الدعوى القضائية، التي اشتهرت باسم "التشهير بمكدونالد" لمدة سنتين ونصف، لتصبح واحدة من أطول الدعاوي في تاريخ القضاء الإنكليزي. أصدر القاضي بيل حكمه في التاسع عشر من حزيران/ يونيو 1997، ذكر فيه أن ستيل وموريس قد شهرا فعلا بـ"مكدونالد" لكنهما تمكنا من إثبات العديد من الاتهامات. فقد أظهرا أن شركة "مكدونالد" تستغل الأطفال فعلا، وتزعم في دعاياتها زورا أن وجباتها مغذية، في حين تضر بصحة زبائنها على المدى الطويل، وهي معادية حقا للحركة النقابية وتقسو على الحيوانات التي تربيها من أجل منتجاتها. حظيت القضية بشهرة هائلة وأدت إلى حملة ضخمة ضد "مكدونالد" في بريطانيا.

بعد سنتين، وفي الثاني عشر من آب/ أغسطس 1999، قام خوسيه بوفي وهو مزارع فرنسي وناشط نقابي سابق، برمي القمامة على مبنى لمطعم "مكدونالد" في بلدة ميلو، في جنوب غرب فرنسا. وتحولت محاكمة بوفي إلى مهرجان معاد لـ"مكدونالد": خرج المؤيدون (وبعضهم على الجرارات)، والمتظاهرون، وبعض الناس من العامة في نزهة عائلية تضم تشكيلة متنوعة من الذين تجمعهم كراهية "مكدونالد". وخلال محاكمته، قال بوفي إنه يعارض الطريقة التي تزرع فيها الأغذية المباعة في مطاعم "مكدونالد"، إضافة إلى مصادرها وأسلوب تحضيرها؛ وأقلقه إخفاء الطعم التفه في طريقة الطهي التي يمثلها "الهمبرغر"؛ علاوة على قلق المجتمع المحلي بسبب الفضلات والمخلفات، وتأثير الشركات المتعددة الجنسية في الأعمال التجارية المحلية. لكنه عارض أكثر من أي شيء آخر استخدام الهرمونات لتغذية الحيوانات وتسريع نموها. وعلى شاكلة محاكمة "التشهير بمكدونالد" في بريطانيا، أطلقت محاكمة بوفي حملة كبرى مناهضة لمطاعم "مكدونالد" في فرنسا. وشارك بوفي ذاته بتأليف كتاب تصدر قائمة المبيعات بعنوان "العالم ليس للبيع" (2001)، أوجز رؤية بديلة للزراعة المستدامة الصالحة للإنسان. ويعتبر الآن واحدا من زعماء حركة

مناهضة للعولمة. ومثلما ما حدث في بريطانيا وفرنسا، انتشرت الحملات المعادية لـ"مكدونالد" في معظم الدول الأوروبية.

جورج ريتزر، أستاذ علم الاجتماع في جامعة ميريلاند ومؤلف كتاب "غرس 'المكدونالدية' في المجتمع"، يقدم الدليل على أن الثقافة الأمريكية قد اكتسبت "قوة فاحشة" في عملية التكاثر الذاتي في العالم. أما الناقدة الثقافية الأسترالية والكاتبة المتخصصة بالشؤون العلمية، مارغريت ويرتهايم، التي تعيش في لوس أنجلوس، فقد أشارت إلى أنه بالنسبة لمعظم سكان العالم "تبدو الثقافة الأمريكية مثل الفيروس، بل فيروس ممرض أيضا. ولربما نستطيع - دون أن نفقد المبرر التسويغي - مقارنة الثقافة الأمريكية بفيروس الإيدز (HIV)، ومثل ذلك المتعضي القادر على التكيف إلى حد مذهل مع الظروف المحيطة، كذلك الثقافة الأمريكية التي تتكاثر ذاتيا إلى ما لا نهاية وتبرع إلى درجة تنذر بالخطر في اختيار آلية إنتاج البيئات التي تستضيفها. إن السبب الذي يجعل إيقاف فيروس "HIV" على مثل هذه الدرجة من الصعوبة هو بالضبط كبح الأداء الوظيفي الخلوي للجسم المضيف، ودفع قوة هذا الجسم للعمل ضده لإنتاج مزيد من النسخ للفيروس المهاجم الغازي. كذلك هي ثقافة الوجبات السريعة الأمريكية، وموسيقى 'البوب' (الشعبية)، والأفلام

السينمائية والتلفزيونية، التي تمرض الجسم الثقافي للأمم الأخرى، وتختار آلية الإنتاج المحلية لاستخدامها في "التنكر البيئي" لتشابه سطحي بين متعض وآخر بغرض التخفي والحماية الذاتية]. هذا النمط من التكاثر الفيروسي يكرر ذاته في كافة أنحاء العالم، حيث المعايير الثقافية الشعبية لأمريكا تخنق وتكبت البنية النباتية والحيوانية المحلية"[14].

يتكاثر "فيروس" الثقافة وأسلوب الحياة الأمريكيين ويتضاعف بسرعة كبيرة لأنه ينطلق من/ وعبر الوفرة، وغواية البحبوحة ورغد العيش. فالرفاه المادي يتمتع بجاذبية شمولية، تتعذر مقاومتها بالنسبة لأولئك الذين يملكون (أو يقتربون من امتلاك) الوسائل الكافية لقبول الحلم. إنها حركة صاعدة، يقوم بها أولئك الذين يعملون بدأب على إبعاد أنفسهم عن مهاوي الفقر، ويجدون إمكانية التوسع الدائم للآفاق المادية مثيرة ومبهمة ومسكرة. ليس ثمة سر غامض، ولا شيء يصعب فهمه على الإطلاق، في هذه الدوافع البشرية. لا توجد جماعة بشرية ترغب بالفقر. وحين نأخذ بالاعتبار حقيقة أن العديد من الناس يطمحون إلى أسلوب الحياة الأمريكية، فلا غرابة أن يشعر الأمريكيون بأن أسلوبهم هو الأفضل والوحيد.

الاستعراض العالمي للوفرة الأمريكية، والنصوص المشفرة لكافة منتجاتها الثقافية الشعبية، إن هي إلا دعاية دائمة للسلع، والخدمات، والنعم المادية الممكن توفرها، وكيف يمكن امتلاكها، وكيف ستجعلنا أفضل حالا، وأكثر سعادة، وأشد جاذبية وحداثة. أما تكاليف الاستمتاع بحياة الرغد والوفرة فتظل أقل ظهورا ووضوحا في أغلب الأحيان. وحقيقة أن معظمها سيكون غير متعين ولا ملموس ـ تغيرات تطرأ على القيم وأساليب الحياة التقليدية التي تحظى بالتقدير والإكبار، مع تآكل الهوية الراسخة الجذور بكل ما فيها من أحاسيس ومدركات ودماثة وتهذيب ورقة شعور، والتي لا تقاس قيمتها بمعيار الكم ـ تصبح شركا لا يحذر أحد من أخطاره. ما يباع هو إمكانية اختيار المرء لما يحبه ويرغبه وتشتهيه نفسه. وكل منا يؤمن بإمكانية ووجوب توفر الخيارات المنطقية. لكن المشكلة تكمن في أن كافة الخيارات تؤدي إلى عواقب غير مقصودة، ولا مرغوبة في معظم الأحيان، وتلك حقيقة لا تدرك إلا بعد فوات الأوان. إنها ورطة مأزقية لا تتضح لأمريكا وغيرها من الدول المتقدمة إلا بشكل تدريجي. فتكرار وتكاثر الوفرة الأمريكية ـ خيار السلع، والخدمات وأسلوب الحياة التي يسمح به ـ لا يشملان خيارا حرا للوسائل، بل تكيفا مع قيود "الفيروس": نوعا معينا من التنظيم الاقتصادي، صيغا سياسية

واجتماعية محددة، تحتم التضحية بـ"جهاز المناعة" الذي يمتلكه المضيف. تلك كانت قصة كل الدول المتقدمة، ولم تمنعها عن طلب المزيد من الوفرة ورغد العيش. ونفس القصة تنطبق على كل الدول النامية، والأقل نموا، والسائرة على طريق النمو والتقدم.

تقول ويرتهايم: "حين ترعرعت في ضواحي إحدى المدن الأسترالية، كانت أمريكا تومض كالمنارة في أفقنا". لقد أغرمت بـ"فضائل ومباذل" الثقافة الأمريكية، التي جسدتها تلك العروض والمسلسلات التلفزيونية المثيرة في الستينيات. وتضيف: "كنت مأخوذة مسحورة؛ وفي ذات الوقت راودتني الشكوك بأمريكا. فعلى الصعيد الثقافي، كانوا 'يقصفوننا' بأفلامهم السينمائية، وبرامجهم التلفزيونية، وموسيقاهم، ومشاهيرهم، وأزيائهم، لكن منتجاتنا الثقافية لم تكن مرئية بالنسبة لهم. بعد مرور ربع قرن، ظلت الحالة على ما كانت عليه عموما". ولكي تتمكن صناعة السينما الأسترالية من البقاء، ، بدأت بمحاكاة هوليود. "وكان في هذا مقتلها. في أواخر الثمانينيات، ماتت صناعة السينما الأسترالية تقريبا بعد فيض من المحاولات الخرقاء لإنتاج أعمال درامية على الطراز الأمريكي. لم يكن أحد يريد هذا المآل المشؤوم، خصوصا الأمريكان الذين

استهدفهم هذا الخليط الفوضوي من الأفلام"[15]. ولو لم تتدخل الحكومة الأسترالية لتقديم الدعم المالي، لكانت النتيجة مدمرة. لا يعني ذلك أن صناعة السينما الأسترالية والنيوزيلندية ليست مزدهرة. فالمجموعة الحالية من الممثلين والممثلات وعلى رأسهم ميل غيبسون، نيكول كيدمان، روسل كراو، كيت بلانشيت، باز لورمان، بيتر جاكسون، سام نيل وغيرهم، حققت نجاحا باهرا وشهرة واسعة. لكن نجاح هؤلاء تم في هيوليود. تحقق بالعمل ضمن الأطر التي تحددها هوليود واستوديوهاتها للمتفرجين في العالم. ولكي يعملوا توجب عليهم اكتساب لهجة قريبة من اللهجة الأمريكية، ومجانسة صفاتهم وسماتهم المميزة أو إخضاعها لأوامر وفروض الحالة المعيارية السائدة.

لكن استراليا ليست الدولة الوحيدة التي غيبت ثقافتها المحلية وتعرضت لتهديد الثقافة الأمريكية الساحقة الماحقة. على سبيل المثال، مارس منتجو الأفلام الفرنسية الضغط على الحكومة والرأي العام لتوفير الحماية للصناعات السينمائية، بعد أن أدركوا مدى قوة العامل الفيروسي في السينما الأمريكية. كلود اوسار منتج فيلم "اميلي" الذي رشح لنيل إحدى جوائز الأوسكار، يقدم الحجة على أن امتناع فرنسا عن حماية صناعتها السينمائية وغيرها من المنتجات الثقافية

سيكون بمثابة "انتحار". وما كان لأي من أفلام اوسار، بما فيها بعض الأعمال الشهيرة مثل "Delicatessen " (متجر الأطعمة المعلبة)، و"Arizona Dream" (حلم أريزونا)، أن يرى النور لو لم تقدم الدولة الحماية للثقافة الفرنسية والدعم المالي للأفلام. وفي الواقع، مازال هاجس "الأمركة" يشغل بال الفرنسيين منذ الثلاثينيات والأربعينيات، فقد أقلقهم "استعمار الكوكا كولا" (فكرة أن تهديد المشروبات الأمريكية الخفيفة رمزت لخطر ثقافي أوسع نطاقا)، وبدؤوا باتخاذ خطوات إجرائية للدفاع عن الثقافة الفرنسية، والمطبخ الفرنسي، والفن الفرنسي ضد الهيمنة الأمريكية. أما الهواجس الفرنسية التي ظهرت مؤخرا حول العولمة ومقاومتها فتعتمد على نفس الإدراك الواعي بأخطارها. إذ يعرف الفرنسيون أن العالم الخاضع لسيطرة "السوق الحر" هو عالم يخضع أيضا لنفوذ الثقافة الأمريكية: ولهذا السبب فإن "فرنسا ليست مستعدة لأن تأخذ موقفا لا مباليا وتقبل كافة جوانب العالم المؤمرك المعولم. وفي الحقيقة، تكيفت فرنسا إلى حد كبير مع المتغيرات في الميدان الاقتصادي، ولم تعد سيطرة الدولة [القطاع العام] كما كانت عليه قبل عشرين سنة، لكن الفرنسيين أصبحوا أشد تصميما على حماية ثقافتهم"[16].

تعتبر كلتا فرنسا وأستراليا قوة صناعية قادرة على حماية ثقافتها إلى حد ما. لكن كما تسأل ويرتهايم: "إذا شعرت الدول الأوروبية الغنية، البيضاء، الانغلو - سكسونية والأوروبية بأنها مهددة، فكم سبب غزو الثقافة الأمريكية المفرطة في إمبرياليتها من أضرار لثقافات وشعوب الدول النامية؟"[17]. وإذا شعر منتجو الأفلام الفرنسية والكتّاب الأستراليون بالقلق على بقائهم النشوئي، فهل ثمة أمل لكتاب العالم الثالث، ومنتجو أفلامه وبرامجه التلفزيونية، بالبقاء، أو لثقافاته ولغاته المحلية الأهلية بالحياة؟

الجواب البسيط، والمرعب فعلا، هو: لا. لا يوجد أمل كبير. فسطوة ثقافة "الهمبرغر" تعني إلغاء ومحو وإزالة الثقافات الوطنية/المحلية في كل مكان من العالم الثالث. سيلفستر ستالون، بروس ويليس، بريتني سبيرز، مادونا، مايكل جاكسون، جيري سينفيلد، هومر سيمبسون، هم المهيمنون على شاشات السينما والتلفزيون في كافة أرجاء العالم. ولم يعد يتوجب على المنتجات المحلية منافسة ميزانيات الإنتاج الأمريكية الهائلة فقط. أفلام الشركات الأمريكية الرئيسية تكلف الآن أكثر من مائة مليون دولار للفيلم الواحد ("حرب النجوم، الحلقة الأولى: تهديد الشبح" (1999) بلغت تكاليف إنتاجه رقما

مذهلا وصل إلى 115 مليونا. بينما بلغت تكلفة إنتاج "البوم" مايكل جاكسون "انفنسبل" 30 مليونا) ـ بل عليها أيضا مواجهة ميزانيات ترويج سخية. لذلك ليس لدى الصناعات الثقافية الوطنية أية فرصة. هنالك على الدوام استثناءات للقواعد العامة بالطبع. فقد ازدهرت الصناعة السينمائية الإيرانية نتيجة عدم السماح للمنتجات الهوليودية بالدخول إلى البلاد. إذ نجحت "بوليود"، كما تعرف الصناعة السينمائية الإيرانية، من خلال محاكاة أسلوب ومضمون، وأحيانا قيم إنتاج، هوليود. لكن هذا مجرد استثناء، وعلى أية حال، نحن نتحدث عن أكثر من مجرد سينما، وتلفزيون، وموسيقى شعبية، وأفلام فيديو، ووجبات سريعة، وأدوات إلكترونية. في المجتمعات التقليدية للدول النامية، تتشكل الهوية بواسطة التاريخ، والتراث، والمجتمع المحلي، والأسلاف، والعائلات الموسعة (الممتدة). والعولمة بقيادة أمريكا تسعى لاستبدال كل هذه العناصر بالمنتجات الثقافية الأمريكية. فالموجة الكاسحة للثقافة الاستهلاكية الأمريكية تهضم وتستوعب كل شيء، وتمارس ضغطا هائلا يتعذر وقفه على شعوب معظم دول العالم لتغيير نمط حياتها، وعدم الاكتفاء بنبذ قيمها فقط، بل هويتها، وعلاقاتها المستقرة، وارتباطها بالتاريخ، والأماكن، والأبنية، والعائلات، والطرائق المقبولة للفعل والكينونة.

"القوة الفاحشة" لثقافة الهمبرغر تضع الثقافات المحلية في إسار حلقة مفرغة. فالشركات الأمريكية متعددة الجنسية تروج لمنتجاتها الثقافية من خلال استراتيجية متعددة المحاور، تستخدم فيها الموسيقى الشعبية، وقنوات التلفزة المحلية، والمنتجات المنتجة بأسلوب خاص، وبالتالي تحتل كل الحيز الثقافي المتاح. شركات التبغ على سبيل المثال، لا تكتفي ببيع السجائر فقط، بل تقدمها ضمن "صفقة" شاملة لها أسلوبها وهويتها. فراعي البقر وبائع الدخان المعروف باسم "رجل مارلبورو"، قد يكون محاصرا في الولايات المتحدة، لكن يستحيل في آسيا الإفلات من وجهه الأمريكي المكشر الصلب؛ فهو يطل من لوحات الإعلانات، ويحدق من المجلات والصحف، ويظهر على شاشات التلفزيون. و"يرعى" الأفلام الأمريكية، والمسلسلات التلفزيونية، وينعم النظر في كل فرد في متاجر التسوق المزدحمة، ويبيع ملابس "مارلبورو كلاسيك" في المحلات والحوانيت المصممة على غرار حانات "الغرب الضاري" ليستحث الشباب على التدخين في الأسواق والحانات، حيث الفتيات بأزياء رعاة البقر، يقدمن السجائر المجانية إلى عابري السبيل منهم. الرغبة تفرض على الشباب فرضا، ولا تدعوهم لتدخين ماركة محددة من السجائر فقط، بل لشراء الملابس الشهيرة المختومة بشعارها ("سالم اتيتيودز"، أو"بول مول اكشن غير")، والتسوق في متجر

إسطواناتها، وتشريف حفلات الموسيقى الشعبية التي ترعاها ("سالم باور"، أو "سالم كوول بلانتر")، أو حتى قضاء عطلة مصممة لحل كل المشاكل المتعلقة بهويتهم ("سالم كوول هوليدايز" أو"مايلد سفن" أو "بيتر ستيفسانت"). بل إن الشركات التي لا تبيع سوى السجائر تروج لعدة منتجات ضمن صفقة واحدة: في ماليزيا على سبيل المثال، لن تأخذك "عطلات كِنْت" إلى أي مكان، فهي وهمية لا وجود لها فعلا بالرغم من الدعاية المكثفة لها على شاشة التلفزيون؛ ونظرا لعدم وجود أحد في كوالالمبور يعرف حقا ما تبيعه "صالة بنسون & هدجيز الذهبية"، فقد استبدلت بناد ليلي يقيم حفلات "جاز" منتظمة يعزف فيها عازفون أمريكيون ومحليون معا. وفي الحقيقة تستخدم وفرة المنتجات الأنيقة المترفة لبناء الصور الذهنية والعلامات والرموز التي تصور الثقافة الأمريكية باعتبارها معقل "الحرية" وحصن "الفردانية" الحصين، والطريقة الوحيدة لتشعر بـ"البرودة المنعشة" أو"الدفء المريح". أما الجاذبية المضافة المغرية فهي مبدأ "الزبون دائما على حق" كما يتجسد في "الحلم الأمريكي". الذي يباع بدون تهكم أو سخرية أو ريبة. وإن كان هناك أي شك، فإن أحدث أفلام هوليود الموجهة للمراهقين، الذي يعرض في المجمع المتعدد الصالات في المدينة،

يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الطريقة الأمريكية هي الطريقة الوحيدة الممكنة.

في العديد من الدول النامية، انقرضت البرامج التلفزيونية المحلية تقريبا. ولا يرجع السبب إلى أن هذه الدول غير قادرة على إنتاج برامجها الخاصة بها، أو أنها غير راغبة بذلك؛ بل لأن الحالة الاقتصادية لإنتاج البرامج، إضافة إلى "أجندة" المعلنين من الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية، تجعلان من المستحيل تقريبا إنتاج برامج محلية. ومثلما تغرق السلع الأمريكية الرخيصة أسواق الدول النامية، وتجبر بالتالي السلع والبضائع المنتجة محليا على الخروج من الميدان، كذلك تغزو البرامج التلفزيونية الأمريكية دول العالم الثالث. هكذا يعمل النظام. فالحلقة الواحدة من المسلسل التلفزيوني الناجح، مثل "الاسم المستعار" أو "الملاك الأسمر"، قد تكلف خمسة ملايين دولار لإنتاجها. هذا المبلغ يمكن استرداده ببيع المسلسل إلى شبكة تلفزيونية واحدة في الولايات المتحدة أو كندا. وبالتالي يتحول عائد بيعه في أوروبا إلى أرباح صافية. وما إن ينتهي احتكار المسلسلات والبرامج التلفزيونية للأسواق الأمريكية والأوروبية وتحقق ما يكفي من أرباح، حتى تباع لمحطات التلفزة في دول العالم الثالث وفقا لصيغة راسخة تحدد السعر. فكلما ارتقت

الدولة على صعيد متوسط دخل الفرد، وارتفعت على سلم "التطور والتنمية" كلما زاد السعر. وبالتالي، تدفع إحدى قنوات التلفزيون البريطاني مبلغا يتراوح بين 200 .250 ألف دولار ثمنا للحلقة الواحدة من المسلسل الناجح، مثل "آل سيمبسون"، بينما تحصل ماليزيا على نفس المسلسل بمبلغ يقل عن 70 ألفا، في حين لا تدفع بنغلادش أكثر من خمسة وعشرين ألفا. وهكذا فإن المسلسل الضخم الذي كلف إنتاجه مبالغ طائلة يباع بسعر زهيد، الأمر الذي يجعل من المستحيل على البرامج المحلية المنافسة نظرا لاعتمادها على ميزانيات متواضعة. ولابد أن تبدو البرامج المحلية دوما أدنى مستوى من المستوردة. لكن البرامج التلفزيونية لا تباع لوحدها؛ فهي تأتي ضمن صفقة شاملة. وبالتالي، فإن النسبة الرئيسية من البرامج التي تبث في الموسم على القنوات المحلية للدول النامية تتألف حصرا من البرامج والمسلسلات المستوردة.

علاوة على ذلك، فإن كل برنامج من "الصفقة" سوى يدعم أو يبث "تحت رعاية" إحدى الشركات المتعددة الجنسية: ولسوف يرتبط باسمها أو باسم العلامة التجارية لأحد منتجاتها. وكقاعدة عامة، لا ترعى الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية البرامج المحلية، حتى لو كانت ناجحة واجتذبت

جمهورا كبيرا من المشاهدين. بل ترعى برامج ومسلسلات (مثل "موديل انك."، "ميلروز بليس"، "باي واتش") تروج الصور الذهنية المحورية للثقافة الأمريكية: صور الاستهلاك الكاسح، والحرية التي لا تحدها قيود، والفرد/الشاب باعتباره المستهلك. وهكذا، تهيمن الشركات الأمريكية كليا على الأقنية التلفزيونية في دول "الاقتصادات المفتوحة" مثل كوريا الجنوبية، وتايوان، وماليزيا، وسنغافورة، وتايلند، وإندونيسيا، وهونغ كونغ. وتمول هذه الشركات مرارا وتكرارا "حفلات موسيقية تبث على الهواء مباشرة" (ضمن البرامج المحلية)، حيث يرفه نجوم الموسيقى الشعبية الأمريكية عن المشاهدين المحليين، إضافة إلى المناسبات الرياضية. وحين يضاف ما يبث على محطات التلفزة الأرضية إلى ما يأتي عبر المحطات الفضائية ("ام تي في" (MTV)، قناة التسوق "كيو تي في" (QTV) ["النوعية، القيمة، الفائدة"]، الأفلام الأمريكية القديمة على محطة "تي ام سي" (TMC)، والتكرار اللامتناهي للمسلسلات الكوميدية [التي يتورط فيها نفس الأبطال في مواقف هزلية مسلية في كل حلقة] على "قناة بارامونت الكوميدية" (Paramount Comedy Channel)، والعروض التي تتناول واقع الحياة الأمريكية، وبرامج المسابقات)، نحصل على صورة أكثر دقة لتغييب الثقافة المحلية/الوطنية وإزاحتها بشكل كلي تقريبا عن الميدان.

معظم ما أشرنا إليه ينطبق على الإنترنت أيضا، التي قوبلت بالتهليل والترحيب باعتبارها تمثل دفعة عظيمة لمصلحة الديمقراطية، بما في ذلك الديمقراطية الثقافية (كافة التقانات الجديدة تباع في المرحلة الابتدائية على أساس هذا الوعد الزائف). لكن معظم المحتوى يخضع لتحكم شركتين أمريكيتين عملاقتين - "أمريكان اون لاين - تايم وورنر"، و"ميكرو سوفت". وكلتاهما تجبر المشتركين على البقاء في "بازارها" المزدحم، حيث تنادي على بضاعتها الثقافية وبضائع شركائها ليل نهار. في معظم بيوت الطبقة الوسطى في آسيا، يتم الوصول إلى الإنترنت عبر "علبة الدخول" (جهاز يحول إشارة التلفزيون الكبلي إلى إشارة دَخْل على جهاز التلفزيون)، وشاشة التلفزيون - وكل الوسائط الثلاث خاضعة لسيطرة الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية. على سبيل المثال، تبث محطة روبرت مردوخ، "ستار تي في" (Star TV)، التي تتحكم بشكل كامل تقريبا بالكبل المحوري والفضائي، برامجها إلى حوالي أربعين قناة كبلية في آسيا. ومعظمها منتجات ثقافية أمريكية؛ وحتى البرامج الآسيوية المحلية مثل الأغاني الشعبية والمسابقات عبارة عن محاكاة مبهرجة للأصل الأمريكي.

لا ينحصر التأثير الإمبريالي المفرط للثقافة الأمريكية ضمن حدود تخريب وتدمير الثقافات الوطنية والمحلية فقط. بل يمثل غزوا كاسحا للهويات الوطنية والمحلية أيضا. فبين شريحة الشباب الآسيوي على سبيل المثال، تتجاوز محاكاة الثقافة الأمريكية إطار الموسيقى الشعبية وأزياء الشركات الشهيرة. إذ إن المتسكعين في الشوارع، بقبعات البيسبول التي قلبت واقياتها إلى الخلف، والستر العريضة، وسراويل الجينز القصيرة، فوق أحذية "نايكي" الرياضية، لا يريدون أن يبدو مظهرهم مشابها لمظهر الشبان السود المتمردين في مدن الولايات المتحدة وحسب. بل تشربوا تمثيلات الصفات والسمات السيكولوجية أيضا. ولذلك ترتفع معدلات الجريمة، والهروب من المدرسة، وإدمان المخدرات، والدعارة، جنبا إلى جنب انهيار السلطة الأبوية في المجتمعات التي لم تكن تعتبر "الجيل الشاب" مفهوما منفصلا أبدا، وحيث العائلات الممتدة والسلوك الشخصي المنضبط هما المعيار السائد. أما أوضح مظاهر ثقافة التمرد هذه في آسيا، فهو انحصارها ضمن الشريحة التي تمتلك أكبر قوة شرائية - أبناء النخبة الثرية الراتعة في الامتيازات والمزايا. وكما أشارت مجلة "آسيا ويك"، فإن الموسيقى الشعبية الغربية، ومحطة "ام تي في"، والبرامج والمسلسلات التلفزيونية "قد خلقت ثقافة شبابية ذات نزعة لكسب المال تتطلب إشباعا آنيا، وتحقق مرادها في

'قصف' الوسائط السمعية - البصرية... ففي مرحلة ما قبل المدرسة، يرغب الأطفال بأحذية 'كريستيان ديور' الرياضية، ثم يريدون نظارات 'بيفرلي هيلز'. بل يستخدمون حافظات من ماركات شهيرة لأقلام الرصاص"[18]. لكن هذه السلع لا تولد سوى التمرد والسخط، لأن النبرة في الثقافة المستوردة في حالة مستمرة من السخط والتمرد والاستياء. التمرد هو الثقافة الشبابية للأغنياء الذين يريدون العثور على معنى في غضب الفقراء. وبالتالي يبدو أن الشباب المترفين في كل مكان من آسيا يعكسون ما دعته ماليزيا بـ"ليباك"، لتشير إلى أحدث مشاكلها الاجتماعية المحددة: التسكع في متاجر التسوق وشراء كل البضائع التي تتماشى مع أسلوب حياتهم، لكنه أسلوب حياة يعتبر الزي أمرا جوهريا في دلالته على الخلو من المعنى، ويكون فيه التأنق حسب آخر صرعات "الموضة" جوهر التمرد والسخط. وفيما وراء ذلك يكمن التظاهر بتدمير الذات والسلوك الإدماني.

وهكذا تستخدم العولمة بقيادة أمريكا الموسيقى الشعبية، والبرامج والمسلسلات التلفزيونية، والأزياء، لتحويل هوية الشباب في الدول النامية إلى سلعة. "الصفقة" تباع مع إغراء "الحرية" الفتان. لكن فكرة "الحرية" هذه - أو بالأحرى

الفردانية الليبرتارية التي تروج لتحقيق الإمكانية الكامنة في كل فرد، والسعي وراء الاستهلاك الذي لا تحده حدود، والانسحاب من تحمل كافة المسؤوليات الجمعية والجماعية والاجتماعية. تقوض كل ما تمثله الثقافات المحلية والتقاليد الراسخة والتاريخ الوطني.

الإنتاج الثقافي المحلي يتعرض للتهميش في أفضل الأحوال، وللكبت والقمع كليا في أسوأها. يتوجب على الموسيقى المحلية أن تنتزع من سياقها و"تُغَرين" كي تصبح مقبولة لدى أولئك الذين يفترض بهم أن يكونوا ورثتها الشرعيين. لنأخذ على سبيل المثال موسيقى "القوالين" الابتهالية الراسخة في تراث الهند وباكستان وبنغلادش. تعزف هذه الموسيقى ذات الأصول الصوفية على الطبول التقليدية بإيقاع بسيط رتيب بمصاحبة تصفيق الأيدي ومدائح تمجد الله، والرسول، وعليا (رابع الخلفاء الراشدين) وبعض أئمة الصوفية، لكن في شكلها "الجديد المحسن" الذي غدت بسببه مقبولة لدى الجيل الشاب في شبه القارة، تحولت إلى الإيقاع العنيف الراقص المشابه لموسيقى "الروك"، وذلك باستخدام أجهزة التركيب والتوليف الإلكترونية الحديثة، وهكذا فإن الموسيقى المصممة بالأصل لتحفيز النشوة الصوفية تستخدم الآن لتوليد حالة من الهستريا

تناسب موسيقى "الروك" وتلائم الرقص في "الديسكو". وعلى نحو مشابه، تضمنت أغنيات الأفلام الهندية تقليديا قدرا كبيرا من الشاعرية، أما اليوم فهي تعكس كلمات أغنيات الموسيقى الشعبية الأمريكية الخالية من المعنى. ونظرا لهيمنة اللغة الإنكليزية في المنتجات الثقافية العالمية، فإن اللغات المحلية تتراجع لتحتل مرتبة دونية. بكلمات أخرى، يكتسب إنتاج الثقافة المحلية شعورا بأنه رجعي ومتخلف؛ لا علاقة لمواضيعه واهتماماته وهمومه بالأجيال الشابة. ولا غرو أن تصبح سياسة الهوية على درجة كبيرة من الأهمية في معظم الدول النامية.

تعتبر اللغة واحدة من الأدوات الرئيسة للتعبير الثقافي بالطبع. ولذلك لا يجب أن يفاجئنا اكتشاف أن لانحطاط وتدهور الثقافات المحلية تأثيرا خطيرا في لغات العالم. وفي الحقيقة، هنالك لغة محلية تندثر كل أسبوعين. ويقدر بأن خمسة آلاف وخمسمائة لغة من أصل ستة آلاف لغة محكية الآن سوف تنقرض وتموت - مثل اليونانية القديمة واللاتينية - بحلول نهاية القرن الحادي والعشرين. تكمن فيما وراء كل لغة ثقافة، الغنى التعبيري للسان حي بقدرته اللانهائية على عكس حالة فكرية مميزة وواضحة. إذن، حين تموت لغة من اللغات، فهذا يقلص حقا قدرة عالمنا على التفكير، والمعرفة، وأن يكون مختلفا

ويـؤدي عملـه بشـكل مخـتلف ـ أن يكـون فعـلا شيئا آخـر غـير الـثقافة السـائدة المهيمنة. وكمـا أشـار جـون سـوذرلاند في كتابه "الاستقلال يوم الأحد":

لـيس ثمـة غمـوض يـبهم السـبب الجـذري لـلمحرقة اللغويـة الـتي نعـيش فصـولها. خـذ إجـازة في أي مكـان في العـالم، فسـتجد أن قـائد طائرتك يتصل، وأنت تستمع إلى تعليمات السـلامة (بالإنكلـيزية) مـع بـرج المراقـبة بالإنكلـيزية. اللافتات في المطـار، في أية مديـنة أنت فيها، سوف تكـرر بواحـدة مـن اللغـات العشـرين الأوسـع انتشـارا في العـالم ـ الإنكلـيزية عـلى الأرجـح. لسـوف تـرى شـعارات "كوكـا كـولا"، ومحطـة "ام تي في" على كل الشاشات. مكبرات الصـوت سـوف تدنـدن الأغنـيات الانغلـو ـ أمريكـية عـلى مسـامعك وأنـت تسير عبر الممر لتأخذ حقائبك. في الفندق، سيتكلم موظف الاستقبال بلغتك الأم، إضافة إلى الخـادم عـلى الأرجـح (فمـا يحصـل علـيه مـن بقشـيش يعـتمد عـلى تعدديته اللغويـة). اذهـب إلى أي مقهـى إنترنـت، وسـتجد أن رمــز لوحــة المفاتـيح الــذي يعطـيك أفضــل الـنـتائج هــو بالإنكلــيزية ـ لغــة عصــرنا الشــائعة.. إن انتشــار اللغــة الإنكليزية هو نتاج القوة العظمى اللغوية العارية[19].

يخبرنا سوذرلاند أن الحقيقة البدهية المفضلة لدى اللغويين هي: "اللغة لهجة وراءها جيش". اتبع زحف الجيوش الجرارة (الرومانية، النورماندية، الصينية، الروسية) وستجد "لغات العالم". أقوى جيش في العالم سنة 2002 يلوح براية النجوم والخطوط. ليست اللغة الإنكليزية، بل اللهجة الأمريكية المسيطرة هي التي تقتل اللغات المحلية في كل مكان. إنها استعمار، كما يشير سوذرلاند، أشد شرا وشؤما من أي استعمار آخر عرفه التاريخ: "ذات مرة اكتفينا بنهب مواردهم الأولية، الآن نغزو عقولهم، عبر تغيير الأداة الرئيسة التي يفكرون بها: لغتهم 'هم'"[20].

ليست شطائر الهمبرغر مجرد ثقافة واقتصاد. فهي تتطلب الموقع المكاني أيضا. يمكننا أن نأكلها في أي مكان، لكن معظمها نلتهمه على استعجال. في كل كيلو متر على الطريق يمكننا أن نقف بسياراتنا أمام نافذة جاهزة لبيع شطائر الهمبرغر للزبائن المتنقلين من مكان لآخر. وبالتالي هنالك حيز معماري وجغرافي مرتبط بالهمبرغر. وحين افتتح "مكدونالد" فرعا له في الساحة الحمراء في موسكو، أو المدينة المحرمة في بكين، غير البنية المعمارية، إضافة للديناميات المكانية في المدينة. فالمدينة - أية مدينة - تعبير عن قيم الثقافة ومثلها، وآمالها

وتطلعاتها، ووجهة نظرها الاجتماعية ومسلكها، وبالتالي، فإن المدن تتجاوز كثيرا مجرد الشكل - مجرد الطرق والشوارع والأبنية، والآجر والملاط؛ إنها صور ذهنية لإدراك المجتمع لهويته. وبالتالي فإن مظهر العديد من مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية في أية مدينة يغير منظرها العام إضافة إلى مدركات قطانها عن أنفسهم. تعمل العولمة بقيادة الولايات المتحدة بشكل متزايد، من خلال فرض جملة وحيدة من المعايير، على تغيير معالم مدن الدول النامية وتحويلها إلى مجرد أبنية وشوارع وشواهد تذكر بالهيمنة الأمريكية. العمارة التقليدية تتعرض للهدم والإزالة لتحل محلها أبنية جامدة تفتقد الملامح المميزة، وشوارع عريضة متعددة المسارب، ومراكز تسوق، وفنادق، ومطاعم للوجبات السريعة. وأصبحت معظم المدن في الدول الغنية من العالم الثالث تبدو إما مثل دالاس أو مدن الملاهي المتصلة بلوس أنجلوس.

على سبيل المثال، تعتبر جدة في المملكة العربية السعودية مدينة تاريخية لها شخصيتها المتميزة التي تترك أثرا في زوارها على الدوام. فهي تضم شبكة من البيوت المرتفعة الرائعة التي تستفيد من الظروف المناخية السائدة إلى الحد الأقصى، حيث صممت الطوابق العلوية لاستقبال نسيم البحر، مما يخلق تيارات

هوائية صاعدة متفاوتة الحرارة بانتظام؛ أما النوافذ المقوسة، المفتوحة، المزودة بـ"أباجورات" فتحجب وهج الشمس لكنها تسمح بدخول الهواء ليرطب الغرف. في حين تتيح الأسطح المحيطة بعوارضها الخشبية المتصالبة للهواء البارد أن يتحرك بحرية في أشد ليالي الصيف حرارة. لقد أظهرت هذه البيوت التقليدية ما تستطيع أن تحققه قوة المخيلة المحلية والمهارة الحرفية المبدعة في فن العمارة. لكن الشوارع العريضة الضخمة المسفوعة بأشعة الشمس المحرقة والمباني البشعة التي لا تقي من هجير الصيف، حلت محل الأزقة والطرقات الضيقة الرطيبة. اختفت العمارة التقليدية، والأسواق القديمة، والمقاهي السعودية - لتحتل مكانها مراكز التسوق، ومطاعم الوجبات السريعة، ومدن الملاهي، والفنادق.

نفس الشيء ينطبق على العديد من المدن الأخرى في دول العالم النامية. فعلى سبيل المثال، وجد وليام غيبسون (مؤلف قصص الخيال العلمي التي تتناول ثقافة المجتمعات المضطهدة الخاضعة لهيمنة تقانة الكمبيوتر)، عندما قام بزيارة إلى سنغافورة، أن:

الإحساس بمحاولة الاتصال - نفسيا وعقليا وروحيا - مع سنغافورة القديمة يبدو مؤلما نوعا ما، كأنما انتصبت

ساحة نيو اورليانز الجديدة المقامة في "ديزني لاند" في الموقع الحقيقي للحي الفرنسي، لتمحو آثاره في العملية لكنها تترك في مكانه معلما زائفا صقيلا. واجهات ما تبقى من البيوت/المتاجر المشيدة على الطراز الفيكتوري تذكر بمنطقة كوفنت جاردن في يوم لندني يستحيل أن تشرق فيه الشمس بمثل هذا السطوع.. ليس هناك الكثير لرؤيته من معالم الماضي الواقعية: قضيب من البخور [الذي كان يحرق أمام الأوثان الصينية] يدخُن في حامل نحاسي عتيق فوق عمود مطلي لبيت/متجر؛ مرآة متوضعة فوق باب حانوت لبيع الأدوات الكهربائية، لتتصيد وتحرف مسار الأرواح الشريرة التي تهاجم في خط مستقيم؛ عربة ثلاثية العجلات هرأها الصدأ، ربطت بسلسلة إلى حاجز حديدي طلي حديثا. الآثار المادية المتعينة للماضي هنا اختفت كلية تقريبا[21].

لربما تعتبر سنغافورة، بعد أمريكا ذاتها، أكثر الأماكن التي تتوضح فيها آثار مرض "الأمركة" على سطح الأرض، وهي تمثل مستقبل العديد من المدن في آسيا وأمريكا اللاتينية.

تخلق مثل هذه الإمبريالية الثقافية المفرطة نزوعا عميقا لكره للولايات المتحدة، حتى في الدول التي يفترض أن تكون

من أخلص الحلفاء. فمثلا، هنالك شعور جارف بالكراهية والمقت للمنتجات الثقافية الأمريكية ينتشر بين المجتمعات المحلية الشعبية (Minjung) في كوريا الجنوبية. تتألف هذه الشريحة الاجتماعية من تحالف واسع النطاق يشمل العمال والفلاحين وفقراء المدن، الذين يعتبرون أنفسهم بمثابة المدافعين عن الثقافة الكورية التقليدية، إضافة لكونهم ضحايا الثقافة المعولمة والرأسمالية الأمريكية. وهم يشعرون - ماديا/جسديا، وثقافيا، وجغرافيا، وبالتالي سيكولوجيا - بالاغتراب والعزلة والإقصاء نتيجة "أمركة" كوريا الجنوبية. فالسياسات الاقتصادية المفروضة من قبل الولايات المتحدة، مثل تلك التي ناقشناها في الفصل الرابع، اقتلعت المجتمعات المحلية الريفية (الشعبية) ذات الاستقلال الذاتي من جذورها، ودمرت أساليبها الحياتية، وأجبرتها على المشاركة الذليلة في دوامة الحداثة المؤمركة. وهي تؤمن بأن الأمركة قد أفرزت الظلم، والاستغلال، والعنف، والاغتراب، والإقصاء الثقافي؛ وأن الثقافة الأمريكية تهدد فعلا اللغة الكورية ذاتها، التي قد تموت خلال العقود الثلاثة القادمة، كما يشير بعض الخبراء. وفي الحقيقة، تعتبر هذه الشريحة الولايات المتحدة قوة احتلال، ويملأ كيانها الاشمئزاز من وجود خمسة وأربعين ألفا من الجنود الأمريكيين على تراب الوطن منذ أكثر من خمسة عقود. ليس من المفاجئ

إذن قيام جماهيرها بتنظيم المظاهرات ضد الولايات المتحدة، وإحراق العلم الأمريكي في مناسبات منتظمة.

يقول ستيف فولر، الأكاديمي الأمريكي وأستاذ علم الاجتماع في جامعة واريك: "من الخطأ التفكير بالعولمة بقيادة الولايات المتحدة باعتبارها شكلا من أشكال الاستعمار الثقافي، ففكرة الاستعمار الثقافي تتضمن تأثيرا يطال الثقافة المحلية بصورة أكثر تخطيطا وتوجيها - أي ما كان يدعى بـ'الحرب الأيديولوجية'، حيث يبلغ الناس علنا، أو يجبرون على التخلي عن عاداتهم التقليدية وتبني العادات الغربية. لكن ذلك لا يمثل فعلا أسلوب أمريكا. وفي الحقيقة، وعلى العكس من الاستعمار الثقافي الأوروبي، فإن من النادر أن تتورط حكومة الولايات المتحدة بشكل مباشر في أشد أشكال الإرهاب الثقافي شيوعا وانتشارا، مثل غرس مبادئ 'المكدونالدية'". إن الرغبة بالمنتجات الثقافية الأمريكية - التي تدرك باعتبارها متفوقة، وحديثة، وموجة المستقبل - تعني أن يلعب "الضحايا" أنفسهم دورا رئيسا في نشر الثقافة الأمريكية. ويقترح فوللر أننا بحاجة، من أجل فهم ما تفعله أمريكا ببقية العالم فعلا، أن نفكر بالممارسات الثقافية للولايات المتحدة بلغة "الإرهاب البيولوجي"،

الذي هو النقيض التام للشكل الكلاسيكي من الاستعمار العسكري والثقافي.

أولا، [الإرهاب البيولوجي] ليس له هدف واضح أو معنى محدد. إذ لا يمكن لأحد أن يحرز نصرا في حملة الإرهاب البيولوجي: بل أن يكتفي بالأمل بأن يكون انتشار الجرثوم أو الفيروس مدمرا وممزقا للمجتمع إلى أقصى حد ممكن. الأمر الذي يوجد الظرف المناسب لتحقيق بقية الأهداف. ثانيا، تنحصر مهمة الإرهابيين البيولوجيين أنفسهم في بدء الحملة فقط. ومعظم "الحرب" الفعلية يشنها الضحايا الذين ينقلون عدوى الجرثوم أو الفيروس إلى بعضهم بعضا في تفاعلاتهم اليومية. ثالثا، مع انتشار حملة الإرهاب البيولوجي، وتراكم تأثيرات الجراثيم والفيروسات مع غيرها من التأثيرات، يصبح من المستحيل عمليا العثور على العامل المرض المسؤول، نظرا لأن كل الضحايا آنئذ قد تورطوا وتآمروا على نشره.

"مكدونالد" يوضح معنى الإرهاب الثقافي هذا أفضل توضيح. لنفكر مثلا باللافتة الموضوعة أمام كل الأقواس الذهبية: "قدمنا الخدمة لمليارات من البشر". لنلاحظ أن العبارة ليست: "قدمنا الغذاء لمليارات من البشر". فمن

وجهة النظر التسويقية، يعتبر الشعار لافتا إلى حد مدهش. فهو لا يشير إلى أي هدف سوى تكاثر وانتشار شطائر الهمبرغر، ولا يأتي على أي ذكر لاستجابة أولئك الذين قدمت لهم مطاعم "مكدونالد" خدماتها. لكن لانتشار شطائر الهمبرغر، كما نعلم، أثرا مدمرا على معظم سكان الأرض - بدءا بإجبار الأهالي المحليين على تبني ممارسات الثقافة الأمريكية لإفساد وتخريب مناظرهم الطبيعية وحياتهم الثقافية. في الحقيقة، حين يبدأ السكان المحليون بالتصرف تبعا لمبادئ الهمبرغر، ونقل العدوى الممرضة لبعضهم بعضا عبر المواقف والسلوك (نفاذ الصبر، والبدانة، والآفات القلبية..)، يصبحون أكثر استعدادا لقبول المزيد من التدخل الأمريكي في حياتهم. وبحلول الوقت الذي يصبح فيه الدمار الخطير أمرا واقعا، يغدو عدد الأهالي الذين استفادوا شخصيا من التدخل كافيا، ويصعب كثيرا آنئذ إزالة أضراره.[22]

وفي الوقت الذي استطاع فيه "الإرهاب البيولوجي" لثقافة الهمبرغر الكلية الحضور اختزال جغرافيا العالم الثقافية إلى مجرد حيز أمريكي مطلق، وقتل لغات معظم الدول النامية، وأساليبها المعمارية، وصناعاتها السينمائية، وبرامجها

التلفزيونية، وموسيقاها، وفنونها، يبقى الجو الثقافي الأمريكي نظيفا معقما من كافة أشكال "التلوث". "التجارة الحرة" في المجال الثقافي الأمريكي طريق أحادي الاتجاه فقط. حاولْ مشاهدة فيلم إيراني، أو مسلسل تلفزيوني صيني يعرض الولايات المتحدة. حتى أفضل الأفلام البريطانية والكندية والأسترالية - التي تستخدم نفس اللغة وتشترك في تاريخ ثقافي مشابه - من النادر أن تعرض في أكثر من بضع صالات قليلة في الولايات المتحدة. ومع بعض الاستثناءات النادرة، لا تعرض شبكات التلفزة الأمريكية إلا المنتجات الأمريكية. ولن تجد الأفلام الأجنبية إلا على القنوات الكبلية مثل "صندانس" (Sundance) و"اندنبدنت فيلم تشانلز" (Independent Film Channels)، مع بعض الأعمال الدرامية والأفلام الوثائقية البريطانية التي تعرض على شاشة "بي بي اس" (PBS). تقول مارغريت ويرتهايم: "إذا أنتج عمل لا يقاوم فعلا في إحدى البلاد الأجنبية، فإن الاستجابة الأمريكية المعيارية هي شراء الحقوق وصنع نسخة أمريكية منه". هذا ما حدث بالضبط للمسلسل التلفزيوني الناجح "الناجي" (Survivor)، الذي انطلقت فكرته الأصلية من هولندا، والكوميديا البريطانية الناجحة "خرافي مائة بالمائة" (Absolutely Fabulous)، التي اشترى حقوق إعادة إنتاجها روسيان بار. هذا مجرد غيض من فيض. أما في المسلسل

البريطاني الكوميدي الرائد (الذي أنتج في الستينيات) "إلى أن يفرقنا الموت" (Till Death Us Do Part)، فقد تحول الانتقاد الهجائي الاشتراكي/الليبرالي مقابل المحافظ/الرجعي إلى عالم "آرشي بنكر" (Archie Bunker) الرقيق المؤثر، حالما عبر المحيط الأطلسي. وشملت الأفلام التي عانت هذا المصير المذل فيلم ويم ويندرز الرقيق "أجنحة الرغبة" (Wings of Desire)، الذي أعيد إنتاجه تحت اسم "مدينة الملائكة" (City of Angels) وقامت ببطولته نجمة أمريكا المحبوبة ميغ ريان، والفيلم الكوميدي الفرنسي الرائع "الزوار" (Les Visiteurs)، الذي أعادت هوليود إنتاجه بأسلوب غريب، حيث احتفظت بالممثلين الفرنسيين بينما استبدلت نساء النسخة الفرنسية بممثلات لم يتجاوزن نصف أعمارهن. في كلتا الحالتين، كانت النسخة الهوليودية باهتة ومجرد انعكاس واه للأصل الأوروبي. تلاحظ ويرتهايم قائلة: "آلة إعادة التغليف الأمريكية اختزلت كل التجارب، بغض النظر عن سياقها الثقافي، وحولتها إلى تجربة أمريكية"[23].

توكيد وسائل الإعلام الأمريكية المركز والمكثف والضاري على الربح التجاري، رسخ الحكمة التقليدية القائلة بإعطاء الناس القاسم المشترك الأصغر. ونظرا لأن أمريكا قارة ضخمة المساحة يسكنها أكثر من مائتين وخمسين مليونا،

فلابد أن يوجد فيها شريحة متميزة ومتخصصة من المشاهدين والقراء لهم أذواقهم الخاصة. لكن الاتجاه السائد لوسائل الإعلام في أوقات الذروة يراعي ذوق جماهير العامة، وقرارات الإنتاج التي تتخذها تعكس الفكرة التي أثبتها السوق بالتجربة والاختبار حول ما يرغب الأمريكيون بمعرفته عن العالم. من الحكم التقليدية الشائعة تلك التي تقول بأن العالم لا يثير الاهتمام إلا إذا تواجد فيه أمريكي. الممارسة المعيارية ظلت لمدة طويلة تتمثل في إعطاء الدور الرئيسي لنجم أمريكي. لكنها تحولت لتعني بشكل متزايد تهيئة وتبيئة القصة لدمج المنظور الأمريكي، حتى وإن أدى ذلك إلى تفريغها من مضمونها ودلالاتها. في عام 2001 بثت قناة "هولمارك" (Hallmark) مسلسلا تلفزيونيا مصغرا مأخوذا عن رواية صينية كلاسيكية (من القرن السادس عشر) بعنوان "الرحلة إلى الغرب"، وهي عبارة عن حكاية خرافية مجازية عن رحلة حقيقية إلى الهند، تمت في القرن السابع بحثا عن النصوص البوذية المقدسة. من منظور التلفزيون، وتبعا لدعايات القناة، خضعت قصة ووتشينغ- ان لعملية "تحديث وتجديد". وتحقق ذلك عبر إقحام "بطل مغامر" كان أمريكيا معاصرا، و"فقيها تحول إلى مستشار تجاري في الصين"، عرفه "محاربو التيراكوتا" بوصفه "العالم القادم من الأعلى"، وحملوه مسؤولية تنفيذ مهمة بطولية تتمثل في العثور

على المخطوط في خلال ثلاثة أيام أو مواجهة "نهاية العالم". في هذه النسخة المعدلة، يصاحب البطل الجديد بطل القصة الأصلية، "الملك القرد"، الذي يلقنه المهارات النبيلة لفنون القتال العسكرية في نفس الوقت الذي يتعلم فيه "شيئا عن القلب الإنساني"[24].

لا يقتصر الأمر على الأدب الذي يجب أن يعدل ويخضع للشروط الأمريكية ليغدو مستساغا للمشاهد الأمريكي وأحاسيسه ومشاعره. التاريخ أيضا ينبغي إخضاعه لنفس الإجراء. وطبق الأمران معا على فيلم "أميرة صغيرة" (A Little Princess) (1995). فقصة فرانسيس هودجسون بيرنيت (1849 ـ 1924) الكلاسيكية للأطفال، التي كتبتها عام 1888 وأعادت كتابتها عام 1905، عبارة عن حكاية حول ابنة ضابط بريطاني في جيش الهند، أرسلت إلى مدرسة داخلية، ولبست الأسمال وعرفت معنى الفقر بعد أن رتعت في الغنى. غيرت نسخة الفيلم المعدلة أحداث القصة لتدور عام 1914، حين توجب على الأب الذهاب إلى الحرب في الخنادق. لكن ابنته ـ التي نشأت في الهند، وتدبرت أمر اكتساب اللهجة الأمريكية! ـ أرسلت إلى مدرسة في نيويورك. وعند وصولها إلى هناك، وجدت أن ابن سيد عجوز يسكن في البيت المجاور

يبكي لأنه سيرسل إلى الحرب أيضا - وهو أمر كان سيسبب شغبا لو حدث في الواقع، نظرا لأن أمريكا كانت عام 1914 في ذروة انعزاليتها، ومصممة على عدم الانجرار إلى أية حرب أوروبية.

تجسد الحرب واحدا من الميادين الرئيسة التي تعمل عبرها الأفلام الأمريكية بشكل روتيني على إعادة تخيل التاريخ أو تشويهه. ولربما تأثر النظارة الأوروبيون ببعث فظاعات عمليات الإنزال في النورماندي بتفاصيلها الدقيقة في فيلم ستيفن سبيلبيرغ "إنقاذ الجندي ريان" (Saving Private Ryan) (1998)، لكنهم شعروا بالسخط والاستياء لأن الفيلم لم يعترف في أية مرحلة بمشاركة أية أمة أخرى في الحرب ضد هتلر. فالتعصب الذي كان ذات مرة موقفا سياسيا أمريكيا أصبح شرنقة ثقافية يُحاصر العالم داخلها لتقديم الخلفية المناسبة للبطولات الأمريكية وتزويدها بالأشرار الذين يتوجب على الولايات المتحدة التغلب عليهم. في فيلم "الوطني" (Patriot) (2000)، ملحمة ميل غيبسون عن الحرب الثورية الأمريكية (حرب الاستقلال)، صور الجنود البريطانيون وكأنهم نازيون حقيقيون، يرتكبون الأعمال الوحشية المأخوذة من الحرب العالمية الثانية.

إذن، في حين يختنق العالم تحت ثقل وضغط المنتجات الثقافية الأمريكية، يعيش الأمريكيون أنفسهم في عزلة تامة عن الثقافات اللاأمريكية. تقول ويرتهايم: "المشهد الموسيقي لا يختلف كثيرا عن نظيره التلفزيوني/السينمائي. مشهد متصل من موسيقى 'البوب' و'الراب'، و'الريف' (Country music) الأمريكية، لا يقطع استمراريته اللانهائية إلا بعض الاختراقات القليلة التي تحققها بين الحين والآخر فرقة غنائية بريطانية. اذكرْ أمام عاشق أمريكي عادي للموسيقى اسم أم كلثوم، كوكب الشرق المصرية التي يطرب لها كل العالم العربي، أو لاتا مانغاشتار، المطربة الهندية التي فاقت مبيعات أسطواناتها كافة المغنيين الآخرين، بمن فيهم مايكل جاكسون و'البيتلز'، ولسوف يحدق إليك مشدوها دون أن يفهم شيئا"[25].

لا تقتصر هذه الحالة بالطبع على أمريكا. فهي أمارة دالة على مشكلة أكثر عمومية في الغرب ككل، حيث لا يعرف الناس الكثير عن الفنون والثقافات اللاغربية. لكن حالة أمريكا تبدو أشد سوءا لأنها في موقع مهيمن تتمتع فيه بالقدرة على تصدير ثقافتها. علاوة على أن جهلها بالثقافة الأوروبية يعادل جهلها بباقي الثقافات.

ذلك أحد الأسباب التي تحول بين العديد من الأمريكيين وبين تصور مدى عمق مشاعر الاستياء والسخط التي يثيرونها. وكما لاحظت ويرتهايم: "يبدو أنهم غير قادرين على تخيل الحياة نفسها في أية هيئة ما عدا تلك التي علقوا هم أنفسهم في حبائلها. وكيف يمكنهم ذلك حين يكون مشهدهم الثقافي على هذا القدر من أحادية النبرة؟ فمن غير الواقعي توقع أن يفهم من تربى على معارف وسائل الإعلام الأمريكية وحدها ديناميات الثقافة العربية، أو أن يقدر الكفاح من أجل البقاء في إحدى قرى أفريقيا. وإذا كنا نتحدث هنا عن إخفاق المخيلة الأمريكية الجمعية، فإن لهذا الإخفاق بعض الجذور على الأقل في الفشل الذريع لصناعات المنتجات الثقافية الأمريكية التي ترفض بعناد فتح أبوابها أمام كل ما هو أجنبي"[26]. باختصار، أصبح الأمريكيون أنفسهم ضحايا تخنقهم الإمبريالية الثقافية الأمريكية المفرطة.

وهكذا، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا كانت الأغلبية الساحقة من الأمريكيين جاهلة بالإمكانات والأساليب والأشكال الثقافية الأخرى، فهل هي بريئة من ذنب الإمبريالية المفرطة لثقافتها التي تزداد خبثا وضررا باستمرار؟ هل يستحق

المواطنون الأمريكيون اللوم على تصرفات حكومتهم مثلما نلوم فيروس نقص المناعة المكتسبة (HIV) على مرض الإيدز؟ هل هم كائنات حية فاقدة للحس والوعي والإدراك كلية؟ هل يمكن أن نجد العذر التبريري لجهل المواطنين الأمريكيين بالإرهاب البيولوجي الذي تمارسه ثقافتهم؟ الجهل هنا إرادي ومتعمد في جوهره. ومثلما أشارت مارغريت ويرتهايم: "يبدو أن قلة قليلة من الأمريكيين يعرفون عن الخيارات الثقافية الأخرى؛ وقلة قليلة على استعداد للانخراط في خيارات الشعوب الأخرى، وطرائق وجودها. في أرض الحرية والأحرار، يبدو أن المبدأ الأخلاقي الضمني للخطاب السائد هو أن المرء حر فقط في فعل الأشياء 'على طريقتنا'. وكما قال هنري فورد عن سيارته: 'يمكنك أن تحصل عليها بأي لون تريده طالما هو أسود'. في هذه الحالة يكون الخيار الوحيد هو الأبيض بالطبع. لربما يكون الجهل نعمة - رغم أن هذه الحكمة القديمة قد وضعت موضع المساءلة في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر. ومع قيام العولمة بقيادة الولايات المتحدة بتدمير ومحو ثقافات العالم، تقع على عاتق المواطنين الأمريكيين مسؤولية الحفاظ على ما يمكن أن ندعوه بالتنوع البيولوجي الثقافي. لا يمكن للمواطنين الأمريكيين

التنصل من حمل هذه المسؤولية والاحتفاظ بالاستقامة الأخلاقية، تماماً مثلما لا يستطيعون التهرب من واجبهم في المشاركة في الحفاظ على التنوع البيولوجي الطبيعي. ولن يؤدي التملص والمراوغة إلا إلى مزيد من الكراهية من جانب العالم الخارجي ومزيد من الردود الانتقامية في الداخل"[27].

حتى في ميدان الهمبرغر، هنالك أكثر من طريقة واحدة لشي أقراص الهمبرغر المفروم. لقد ظهر أول مطعم "ويمبي" للهمبرغر عام 1934. اقتبس المطعم اسمه من الشخصية التي تأكل الهمبرغر في أفلام الرسوم المتحركة الشهيرة "باباي"، وقدم لزبائنه تجربة الجلوس داخل المطعم وتناول الوجبة السريعة، ثم اختار التركيز على الزبائن الأصعب إرضاء الذين يستطيعون دفع مبلغ عشرة سنتات ثمنا لشطيرة الهمبرغر. علاوة على ذلك، رفض المطعم بتصميم دوغمائي عنيد تقليد مطاعم الهمبرغر الأخرى التي بدأت تبيع الوجبات للزبائن وهم في سياراتهم عن طريق منافذ مخصصة لذلك منذ أواخر الثلاثينيات. فالتجربة مع "ويمبي" لا يمكن الحصول عليها إن سمح للزبائن بالبقاء في سياراتهم. لكن "ويمبي" فعل أكثر من مجرد مقاومة مفهوم تقديم وجبة الطعام للزبون وهو في سيارته، وهي ممارسة شكلت

الدعامة الأساسية لصناعة الوجبات السريعة الأمريكية. إذ أدرك مؤسسه بأنه خلق "فيروسا" كامنا. وتبعا لوصيته، تم إغلاق ألف وخمسمائة مطعم "ويمبي" في الولايات المتحدة وباقي دول العالم، بعد أن توفي عام 1978[28]

الفصل الخامس:

القصص الأمريكية
ورواية القصص لأمريكا

الأحداث الجسام والجرائم النكراء تسبب صدمة للناس، وتشكل اعتداء على الروح الجمعية. كما تتطلب نصبا عامة لتخليد ذكرى الضحايا، وكلمات وعلامات ورموزا. وحين تحدث الرئيس جورج بوش في جلسة مشتركة للكونغرس في العشرين من أيلول/ سبتمبر 2001، علق قائلا: "الأمريكيون يسألون: لماذا يكرهوننا؟"، ثم قدم جوابا مباشرا: "لأنهم يكرهون حرياتنا - حريتنا الدينية، حريتنا في التعبير والكلام، حريتنا في التصويت والانتخاب، والتجمع، والاختلاف في وجهات النظر". لقد أيقظ الخطر أمريكا واستدعيت للدفاع عن الحرية، كما قال. وأضاف: "وبغض النظر عما إذا أحضرنا أعداءنا إلى العدالة أو أرسلنا العدالة إلى أعدائنا، سوف نطبق العدالة عليهم". وفي أول خطاب متلفز للرئيس بوش حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر، قدم نفس الجواب بكلمات تذكر بتطلعات ومطامح المستوطنين الأوائل: "استهدف الهجوم أمريكا لأننا المنارة الأكثر إشعاعا للحرية والفرص المتاحة في

العالم. ولن يستطيع أحد أن يمنع هذا النور من الضياء والتألق".
علاوة على ذلك، أعلن في خطابه السنوي إلى الكونغرس أن حالة الاتحاد بينة بجلاء في ردة فعل الأمة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر: فرق الإنقاذ تجاوزت حدود الإنهاك في العمل، الرايات الأمريكية خفقت مرفرفة في كل مكان، مسلك المواطنين المترعين بمشاعر الحب والتضحية والعطاء. لقد تأثرت أمريكا برؤية أعضاء الكونغرس يتجمعون على درجات مبنى الكابيتول مساء الحادي عشر من سبتمبر، لينشدوا معا: "ليبارك الله أمريكا"

في الخطاب المنمق المؤثر والرموز الدلالية، كانت "فكرة أمريكا، فكرة أمريكا عن ذاتها، هي التي احتلت مركز الوعي الوطني منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر. حب الوطن ليس سمة تتفرد بها أمريكا، ولا يمكن ازدراؤها. لكن المسألة تكمن في كيفية استغلال هذا الإحساس بالهوية لوضع قيود على/أو استخدامه كبديل للحوار السياسي حول السياسات والأفعال والإجراءات التي اتخذت باسم الأمة داخل الوطن وخارجه.

لا توجد أمة على وجه الأرض تطفح صورتها الذهنية الوطنية في الكلمة، والأغنية، والرمز مثل أمريكا. ولا توجد

أمة تتفوق عليها في استخدام رموزها للتعبير عن فكرة الذات التي هي نظرة صريحة للتاريخ، والمجتمع، والرسالة الوطنية. الخطاب الأمريكي المنمق المثير والتراث السردي الأمريكي يتشكلان بواسطة رؤية أسطورية مؤمثلة خلقت عن وعي وتعمد، ولقنت بجهد دؤوب، وفرضت فرضا على المواطنين الجدد الذين سيصبحون أمريكيين. في فترة حاسمة من عملية تكوين المجتمع الأمريكي الحديث، وجدت هذه الرؤية الأسطورية الخيالية وما تحتويه من روح الشعب والوطن، التعبير عن نفسها في السينما. وهذا ما عبر عنه فرانك بيرسون رئيس "أكاديمية فنون السينما والعلوم"، في خطابه خلال حفل توزيع جوائز "الأوسكار" عام 2002. ففي السنوات المبكرة من القرن العشرين - حين كان المهاجرون الجدد، الذين شكلوا أضخم موجة تدفقت على أمريكا، يخضعون لعملية تحول كي يصبحوا أمريكيين - وفرت الأفلام الصامتة لغة سينمائية مشتركة للسكان الذين لم يتعلموا الإنكليزية بعد، حسب رأيه. وكان بمقدوره أن يضيف أن الأفلام السينمائية عرفتهم بالرؤية الأسطورية المثالية، "رأسمال" القصص والحكايا وقيمها المشفرة، فكرة أمريكا. ومن خلال السينما والتلفزيون، لم تكتف أمريكا برواية وسرد القصص التي تشكل رؤيتها الأسطورية المثالية الخاصة بها وحسب، بل صدرتها إلى العالم الخارجي

باستخدام هيمنتها على الثقافة الشعبية ووسائل الترفيه والتسلية العالمية. العالم كله مطلع على فكرة أمريكا وفكرة أمريكا عن الذات. لكن بدلا من توفير ما دعاه بيرسون "لغة عالمية" للنقاش حول الأحداث المهمة، فإن الأسطورة الأمريكية تعمل على تطويق وتحديد الحوار، وخنق المعارضة، وتأجيج مشاعر العداء والخصومة.

علاوة على أن الرواية الأمريكية المتزمتة، تقرأ بصورة مختلفة تماما من خارج أمريكا، من منظور باقي سكان العالم وتجربتهم التاريخية. وبدلا من أن يؤكد هذا المنظور على اعتبار أمريكا أفضل أمل للبشرية، فهو يكشف حقيقة أن أمريكا هي المحرك الرئيس والمستفيد الأول من العمليات والأنساق التي تخلق وتؤبد عالما من الأغنياء والفقراء، والمهمين والمهمشين، والسادة والأتباع، والحكام والمحكومين. ومن وجهة نظر وتجارب الدول النامية، هنالك إضافات كثيرة على القصة الأمريكية تتجاوز ما تعترف به رؤيتها الأسطورية. لقد أصبح إيمان أمريكا بأسطورتها الوطنية كنموذج يحتذى لكل الأمم عاملا رئيسا هيمن على مسرح العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية. هذه النظرة العنيدة الصلدة الأحادية التركيز جرى تلقيها كشيء أكثر من مجرد عقيدة غيرية تؤثر الآخرين. فقد بدا

موقف أمريكا تجاه العالم استعمارا جديدا، مختلفا، لكنه لا يتميز عن ممارسات القوى الاستعمارية المتنوعة التي ظلت تشوه طموحات وتطلعات ثلاثة أخماس البشر طيلة قرون عديدة. وفي الحقيقة، وضع مسعى تحقيق الحلم الأمريكي، باعتباره تراكما لكافة الأشكال الاستعمارية السابقة، ونظام عالميا سائدا، القاعدة المؤسسة للإمبريالية المفرطة القوة والنفوذ، حيث تعتبر أمريكا العالم فناءها الخلفي، ينبغي معرفته والتعامل معه وفقا للشروط والتعابير الأمريكية الصرفة.

إن استخدام التاريخ واللجوء المتغطرس للمثل الأسطورية باعتبارها حقيقة، داخل أمريكا نفسها وفي السياسة الأمريكية المتبعة تجاه بقية دول العالم، يمثلان قضايا سياسية مهمة يتوجب إخضاعها للنقاش والحوار. وحين تهمش الانتقادات الموجهة للولايات المتحدة من الداخل، وتتعرض للإدانة والشجب والذم والقدح، فهل نعجب حين تعتبر بمثابة موقف عدائي عندما توجه من العالم الخارجي؟ أو كما عبر عن ذلك لويس لافام، محرر "مجلة هاربر" عام 1997:

أعجب كيف يمكن لمجتمع أن يستمر في البقاء لمدة طويلة اعتمادا على تعريف الحقيقة بأنها قبول الكذب، أو عبر إصدار تشريع لا يمكن تطبيقه، أو عبر الظن بأن

الحرية صندوق ادخار يورَّث عند الولادة ويبقى طيلة الحياة... [1].

ثمن الحرية هو التيقظ والحذر والاحتراس إلى الأبد، وتلك حكمة مأثورة استخدمت غالبا لتعزيز وتمكين دولة الأمن القومي وسياستها الخارجية، وبالتالي تعقيد المشكلة. هنالك نوع آخر من الحذر والاحتراس لا يحتاج إلى منع تفحص الذات، أو إعاقة تقصي أفكارها ودوافعها ومشاعرها، ولا يحول دون الحوار حول إخفاقات الحرية الحقيقية وإساءة استخدامها. ليست المشكلة حب الوطن، أو الولاء للهوية، بل التعصب المتزمت لرؤية محددة للوطنية، وعدم التسامح مع انتقاد الذات، والابتعاد عن التفكير المتروي، والانغلاق أمام التفسير البديل والمتنوع. لقد أشار الدكتور صمويل جونسون (1709.1784) الكاتب والناقد ومؤلف المعاجم البريطاني الشهير، عشية الثورة الأمريكية عام 1775، إلى أن الوطنية هي آخر ملجأ للوغد. أما المهرطق الأمريكي امبروس بيرس (1842 ـ1914؟)، فقد توسل من أجل الاختلاف ـ لأنه الأول والأهم كما قال. هنالك أيضا، كما لاحظت الروائية البريطانية اليزابيث غاسيكل (1810 ـ 1865)، ذلك النوع من الوطنية المؤسس على كراهية كل الأمم الأخرى واعتبارها إما نماذج فاشلة لما يجب أن تكون عليه

الأمة، أو أمثلة دونية وعاجزة وفي حاجة ماسة للتعليم العلاجي المخصص للمعاقين. وكلما كانت الوطنية التي تسيطر على المخيال الشعبي والخطاب العام أقل خضوعا للنقد المنطقي، كلما زادت قدرة الروح الأمريكية على جعل الناس يشعرون بالوحدة، والانعزال، والخصوصية، والاختلاف. وكلما تشبثت بالمرآة المشوهة التي تحرف صورتها وصورة العالم الخارجي، كلما أصبحت أقل قدرة على فهمه، وبدا لها مليئا بالعناصر المعادية العاجزة عن الإفصاح عن ذاتها، عالما مكونا من البرابرة. و"البربري" تعبير ظهر بين الإغريق القدماء. فقد كانت اللغات الأجنبية تبدو بالنسبة لآذانهم مجرد "بربرة". ثم أصبحت اللفظة تشير إلى كل من لا يقدر على التحدث باليونانية، وتضمن المعنى الدلالي للبربرية علة أو نقصا أو عيبا في المنطق العقلي السليم. هذه الاستعارة المجازية لا تبتعد كثيرا عن إدراك العالم لأمريكا - وله ما يبرر ذلك - وتصوره لكيفية رؤيتها لذاتها: إذ تعتبر نفسها موقعا وموئلا لكل ما هو منطقي وصالح ومفيد، في حين تظن أن كل الآخرين عبارة عن برابرة لا يمكن فهمهم ولن يعرفوا صالحهم.

ما يراه العالم في تصرفات أمريكا داخليا وخارجيا على درجة من التناقض والتعارض مع رؤيتها الأسطورية المثالية بحيث

تستحث طرح العديد من الأسئلة التي يتعذر اجتنابها. لماذا لا تشوش النقائص والمثالب المتأصلة في الأمة، والإخفاقات في تحقيق مبادئها المثالية أو الالتزام بها فعليا، على ثقة الأمريكيين بأنفسهم؟ لماذا يلجأ الخطاب السياسي، عند مواجهة أي قضية أو أزمة، إلى توكيد نماذج الكمال لفكرة أمريكا باعتبارها حقائق راسخة غير قابلة للتغيير؟ بدلا من التشبث بالحريات التي تزعم أمتهم أن الأمريكيين ورثتها، تبدو لغة الخطاب السياسي أكثر ضيقا مع مزيد من الإشارات المرجعية الملحة إلى الأسطورة الوطنية المتزمتة وروحها وحالتها المزاجية.

القصة الأمريكية أسطورة بالمعنى الدقيق للكلمة. الأساطير عبارة عن قصص وحكايا تتعلق بأصول أو تخلّق ظاهرة معينة هي في جوهرها اجتماعية وليست فردية. والرؤية الأسطورية الأمريكية مجموعة من البواعث والحوافز المترابطة: بدءا من ترويض البراري والاستيطان في مناطق الغرب الأمريكي، والكفاح من أجل الحرية، مرورا بالفردانية الصارمة، والاعتماد على الذات بالنسبة لأولئك الرواد الذين أوجدوا الأمة، وانتهاء بتأسيس الاتحاد الكامل، وضمان الحفاظ على الحقائق البدهية، وتحقيق "القدر/ الواجب المحتوم" (ساد اعتقاد في القرن التاسع عشر بأن توسع الولايات المتحدة في

الأمريكيتين واجب مبرر ومحتوم). يجسد التراث السردي الأمريكي هذه الرؤية الأسطورية على شكل حكايا أخلاقية تكون فيها فكرة أمريكا نقية ومثالية إلى حد الكمال، والذات الأمريكية بريئة وصالحة وخيرة. في فيلم فرانك كابرا "السيد سميث يذهب إلى واشنطن" (1939)، ينتصر الاعتقاد البريء بنقاء وصفاء وطهارة الديمقراطية الأمريكية على السياسيين الفاسدين والصحفيين المتشككين العيَّابين، بفضل الطيبة والصلاح المتأصلين في أعماق السيد سميث.

هنالك تناقض، ضمن هذا التراث الأسطوري، خلقته قراءة انتقائية للتاريخ. هذه المختارات المنتقاة من التاريخ اعتبرت بمثابة الحقائق الوحيدة. وكلما أخضعت هذه الحقائق لمزيد من المساءلة، تضاعف العناد والتصميم على الدفاع عن الأسطورة، وتفاقم استقطاب المجتمع. يمكننا رؤية ذلك في الجدل الأمريكي حول التعددية الثقافية، أكثر الميادين إثارة للخلاف، حيث تركز عليها التعليم. خصوصا تطور ذلك التعليم المؤسس على أهمية الثقافة الإفريقية. لقد حاول الأمريكيون السود إثبات أن تلقيهم التعليم ضمن إطار مجموعة المبادئ والقواعد الغربية لم يؤد فقط إلى تأبيد إقصائهم الاجتماعي، بل إلى استمرارية القصة الخيالية التي تشير إلى أن السود قد لعبوا دورا هامشيا

في نمو أمريكا. وفي سبيل تطور إحساس جديد ومتمكن بقيمة الذات، هنالك حاجة لمناهج مدرسية جديدة تعكس تجربة المواطنين السود، وتدمج فيها التعريف بالجذور الإفريقية والإنجاز الثقافي الإفريقي. أما المعارضون فيقدمون الحجة على أن ذلك يضعف الحضارة الحقيقية، نظرا لأن مجموعة المبادئ والقواعد الغربية تمثل أعظم مستودع للمنجزات الفكرية والفنية للإنسانية وأكثرها استدامة واستمرارية، ولذلك ينبغي أن تكون إجبارية في الدراسة. فالتعليم المرتكز على تفوق الثقافة الإفريقية، كما يحتج نقّاده، يقوم مقام دراسة الآثار والأفكار الثقافية الدونية التي لم تسهم في نهوض الحضارة، علاوة على أنه يقدم فكرة أسطورية ورومانسية عن أفريقيا.

الجدل حول التعددية الثقافية داخل أمريكا، باعتبارها أمة من المهاجرين، يتجه مباشرة إلى معنى الهوية، إلى طبيعة القالب الذي خلق الصفة أو الشخصية التي تدعى "أمريكي". في السياق العالمي، يتصل الجدل بالسؤال المتعلق بنوع العلاقات المحتملة في عالم تشكل طيلة قرون عديدة من خلال الهيمنة الغربية. إذ لم تكتف الحضارة الغربية بتشييد المستعمرات والإمبراطوريات الأرضية، بل بنت إمبراطورية فكرية تمثل فيها وحدها المعنى

الحقيقي والاستخدام الأمثل للعقل، والموضوعية، والالتزام بالمفاهيم والمبادئ العالمية الجامعة، وتلك إجراءات روتينية في قواعدها وأنظمتها المعرفية. لكل ذلك، عرفت الحضارة الغربية دائما حقيقة الحضارات الأخرى وواقعها، وتاريخها، وأفكارها، بشكل أفضل مما تعرفه هي عن نفسها. إذن، فالمجتمعات الأخرى وتمظهراتها الثقافية هي ـ بالتعريف ـ ليست عالمية ولا جامعة، كما أن جعلها أساس التعليم الحديث يعني الانحراف عن سيرورة التقدم الإنساني والحط من قيمة التعليم.

بالنسبة لأمريكا، يبدو جدل التعددية الثقافية مثل صراع من أجل البقاء، وهذا هو لب المشكلة. فإذا لم تكن الحرية والتحرر والعدالة خالصة ونقية وكاملة وصالحة عند التطبيق ـ في التاريخ أو في المجتمع المعاصر ـ فإن أمريكا لا تتصف لا بالبراءة ولا الفضيلة، لا بالفرادة والتميز ولا بالاختلاف والتباين، وليست آخر الآمال الباقية، بل مجرد مجتمع كباقي المجتمعات، مسعى إنساني مثقل بالعيوب والمثالب والنواقص عليه أن يواجه تحدي التغيير ويقبله.

بدأت حروب الولايات المتحدة الثقافية، أو التفرع الحاد بين وجهتي النظر الليبرالية والمحافظة، مع انبثاق الثقافة المضادة المنشقة خلال الاضطراب العظيم الذي سببته حرب فيتنام في

أواخر الستينيات. الروح الليبرالية والثقافية المضادة هي التي حفزت أيضا جدل التعددية الثقافية، وانشغلت الحركتان كلتاهما بقضية المسموح به فيما يتعلق بالاعتقاد بما هو صادق وصحيح في الأصول والجذور والنظام الاجتماعي لأمريكا. وكانت معركة مريرة خلقت صدوعا غائرة في السياسة، والبيئة الأكاديمية، والجدال الشعبي. ثم تحولت بصورة متزايدة إلى معركة بين التعصب المتزمت والهرطقة المنشقة المطالبة بتدعيم الحقوق المدنية، لكن ركز كل من الطرفين على كسب الأنصار والمؤيدين بدلا من التفكير المتروي بالأسئلة المطروحة أو معاينة الاحتمالات البديلة عبر النقد الذاتي. ما الذي كان سينتج عن تفحص المشاعر والأفكار والدوافع الذاتية عبر النقد الذاتي البناء؟ لربما كان سيبين ويشرح ويفسر رأي العالم الخارجي بأمريكا، ولماذا يعتبر مزاعم أمريكا عن نفسها متناقضة وغير مقنعة، ولماذا يرى أمريكا بؤرة المشكلات العالمية بين الغرب وباقي دول العالم، ولماذا يؤجج التصلب الأمريكي مشاعر القلق والانزعاج، والإحباط العداء في العالم أجمع. باختصار، ربما فتح سؤال لماذا يكره العالم أمريكا أمام الجدل والحوار، بدلا من تحريض خطاب "الإقناع بالقنابل"، وهي العبارة العامية العتيقة التي استخدمها الجنود الأمريكيون للإشارة إلى القصف الشامل

الواسع النطاق ("قصف السجادة") لفيتنام، والتي سوف نستقصي أهميتها الدلالية في الفصل التالي.

من منظور العالم الثالث، ليست أصول وجذور أمريكا أسطورية على الإطلاق. فهي تبدأ بالعقيدة التي ترعرع في حضنها الاستعمار. وإنشاء أمريكا ليس سوى فرع من القصة المألوفة لنهوض القوة الأوروبية التي انطلقت مع التوسع الاستعماري الأوروبي. لذلك، دعونا نأخذ انعطافة وجيزة نحو جذور الاستعمار الأوروبي لنرى كيف أصبحت القاعدة المؤسسة للإمبريالية الأمريكية المفرطة القوة.

كان التوسع الأوروبي مشروعا واعيا مقصودا، تشكل أسه المنطقي ومسوغه الأخلاقي بواسطة تاريخ، وأفكار، وهوية النصرانية الغربية. تبدى الأس والمسوغ بوضوح وصراحة في سلسلة من الأوامر والتفويضات الرسمية البابوية التي أجازت ما دعي بـ"الرحلات الاستكشافية". وهذا يظهر أن المقدمة المنطقية للنزعة التوسعية الغربية كانت أيديولوجية تصادمية انطلقت من شعورها الذاتي بالتفوق، تفوق حقها الخاص، تفوق الذات على "الآخر"، المختلف، الدوني، المنحط. هذه الأوامر والتفويضات تبرر حق أوروبا بمهاجمة أراضي وممتلكات الشعوب الأخرى والاستيلاء عليها وامتلاكها، مع أن أفرادها يرون، من وجهة

نظرهم، أن لهم الحق الكامل بالاعتقاد بأنهم الملاك الحقيقيون لأراضيهم وممتلكاتهم ومصائرهم. وكان لابد أن تؤدي هذه العملية، ما إن بدأت، إلى الاستعمار بكل صوره وأقنعته وأشكاله، وهي مستمرة مع إمبريالية أمريكا المفرطة القوة في يومنا هذا.

الأمر البابوي المعروف باسم "Dum Diversas"، هو الأول في سلسلة من الأوامر البابوية، وكان موجها إلى ملك البرتغال عام 1453. ومن اللافت أن لغته وأفكاره قد استخدمت من قبل كافة الأمم الأوروبية التي رعت المشاريع الاستعمارية التوسعية. الأمر البابوي فوض ملك البرتغال بمهاجمة "المسلمين" وقهرهم وإخضاعهم، إضافة إلى غيرهم من الوثنيين والكفار المعادين للمسيح؛ والاستيلاء على بضائعهم وأراضيهم وسبيهم عبيدا إلى الأبد؛ ونقل ملكية أراضيهم وممتلكاتهم إلى ملك البرتغال وخلفائه. تفويضات مشابهة منحت إلى ملك وملكة إسبانيا فيردناند وايزابيل قبل أن ينطلق كولمبوس في رحلته. نفس اللغة ظهرت في التفويض الذي منحه ملك إنكلترا هنري السابع (حكم بين عامي 1485 ـ 1509) إلى جون كابوت قبل أن ينطلق في رحلاته الاستكشافية في أمريكا الشمالية، والذي شكل أساس كل المطالب الإنكليزية اللاحقة بالأراضي

والأملاك فيما سيعرف بعدئذ بالولايات المتحدة. منح آل كابوت الحق باحتلال/ ورفع رايات وشارات الملك "في أية بلدة، أو مدينة، أو قلعة، أو جزيرة، أو بر، تم استكشافها بواسطتهم"، في أية بقعة في "البحر الشرقي أو الغربي أو الشمالي" يملكها "الوثنيون والكفار في أي جزء من العالم، الذي لم يكن معروفا من قبل لدى كافة المسيحيين". التفويض زودهم بالصلاحية "لفتح، واحتلال، وامتلاك" مثل هذه الأماكن كلها، بشرط أن يدفعوا للملك "خمس المكاسب المالية برمتها" في كل رحلة.

لم تكن الجهود المنظمة من قبل الأمم الأوروبية لـ"اكتشاف" أراض جديدة تستهدف إشباع الفضول العلمي. بل كانت استجابة براغماتية لمشكلة قديمة، المشكلة الجيوسياسية التي صاغت الهوية الأوروبية، وطورت نوعا من الإحساس الأوروبي بحمل الرسالة، وطرحت معضلة اقتصادية أمام أوروبا منذ القرن الثامن. وحين قدم كولمبوس خطته الجديدة للوصول إلى الشرق، إلى أرض "الكاثي" (كما كانت تعرف الصين في القرون الوسطى)، عبر الإبحار غربا، كان يأمل، في داخلته، بفتح جبهة جديدة من خلال حملة صليبية سابعة، وجعل استعادة بيت المقدس أمرا ممكنا، كما ذكر مرارا وتكرارا في كتاباته. أما ما عرف باسم "عصر الاستكشاف"، فكان مناورة

استراتيجية ضمن إطار تنافس القوة المستمر بين المسيحية والإسلام. ولهذا الصراع كثير من الملامح المتماثلة مع الحرب الباردة، حيث لفق الأفكار والمواقف التي أصبحت عناصر جوهرانية في تكوين أمريكا.

على شاكلة الحرب الباردة، كان صراع القوة بين المسيحية والإسلام عقائديا. وفي الحقيقة لم يكن محتوما، ولا مؤسسا على شيء متأصل في الدين المسيحي، أو الإسلامي، بحد ذاته. بل كان نتاجا للأفكار ووجهة النظر المسيحية التأويلية المعتمدة على فهم محدد للدين في مرحلة محددة من التاريخ. كانت هذه "الحرب الساخنة" العقائدية طويلة، ودموية، ووحشية، وولدت شعوذات الدعاية المغرضة لدعم وتأييد الحملات العسكرية المعروفة باسم الحملات الصليبية و"حرب استرداد الأندلس" (Reconquista). كما شكل بالنسبة لأوروبا فهما للعالم تجذر في العداء المستدام المتكئ على الأيديولوجيا. لقد أنتجت كافة الأنظمة الأيديولوجية فارقا مميزا بين "نحن" و"هم"، مثلما كانت الأسس الداعمة للحرب الباردة في القرن العشرين تعريفا إيضاحيا للفوارق بين أساليب الحياة، والمبادئ، والقيم، والنظام الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي. لم تكن الأمور مختلفة في الحقبة المبكرة من تنافس القوة. في "الحرب

الساخنة"، جرى النظر إلى كل تلك الفوارق باعتبارها نتائج طبيعية للاختلاف في الدين.

الحدث المؤسس لهذه النظرة الجيوسياسية كان معركة تورز (بلاط الشهداء) في فرنسا عام 732م، حيث أوقف شارل مارتيل (688؟-741) زحف المسلمين (بقيادة عبد الرحمن الغافقي أمير قرطبة) وتوسعهم في أوروبا. كان النصر أوروبيًا، فالجيش الذي واجه المسلمين وصف بأنه من "الأوروبيين" في السجلات والمحفوظات المعاصرة. ولهذا، تشكل المجتمع الأوروبي القروسطي ضمن إطار مقاومة ومعارضة الحضارة الإسلامية. فقد أقامت المسيحية في القرون الوسطى مجتمعا شموليا - بل بالأحرى استبداديا كليانيا. وأول طقوس الكنيسة، التعميد، هو ما يجعل الطفل إنسانا حقيقيا وعضوا في المجتمع المدني، ومواطنا. المعتقد المتزمت هو الذي يعرّف المواطن الصالح. أما تخوم المواطنية فكانت محددة بالهرطقة، والجريمة/الخطيئة بحق الدين، التي تحقق بها الكنيسة لكن يعاقب عليها الحكام الدنيويون. الإيمان المسيحي المتزمت هو الشرط المسبق الضروري لتكوين المجتمع بكافة أبعاده القانونية والسياسية والاجتماعية الممكنة.

عاشت أوروبا وتطورت ضمن إسار ذهان الحرب، وتهوس الوعي بعدو متفوق لا يضاهى. فقد واجهت أوروبا الضعيفة والمقسمة عدوا أكثر تقدما على كافة الصعد الفكرية، والثقافية، والاقتصادية. ومثلت اندفاعة الإمبراطورية الإسلامية المفاجئة أمرا يتعذر تفسيره بالنسبة لأوروبا. فمن منظور المسيحية، ما هي الحاجة لدين جديد وقد مات "ابن" الله تكفيرا عن خطايا البشر؟ تراث العداء العنيف للإسلام بدأ مع يوحنا الدمشقي (ت. 748م) الذي صوره كدين زائف، وحشي، شيطاني، فاسق، خليع، متعصب، مناقض بشكل يتعذر تغييره لكافة معايير وقواعد الحياة المسيحية. في الجوهر، رفض يوحنا الدمشقي الإسلام باعتباره "دينا مزيفا اخترع منذ البداية لتسهيل العدوانية والشهوة"[2]، وذلك عبر تقديمه كشيء لا يمكن أن يكون، بل يسهل في الحقيقة معرفة استحالة أن يكون، بهذه الصورة. في كتابه "الأبطال والمسلمون"، وصف نورمان دانييل (كما رأينا في الفصل الثاني) هذا الموقف بـ"المعرفة الجاهلة"، الذي استخدم استراتيجيا للأغراض الدعائية. كان للنماذج المنمطة الفظة التي اخترعها يوحنا الدمشقي تأثير نافذ على المعرفة والمنتجات الثقافية الغربية. "فردات الفعل المسيحية المبكرة على الإسلام ظلت مماثلة لتلك التي ظهرت منذ عهد قريب. وللتراث استمرارية وما زال حيا وفاعلا"، كما يقول

دانييل[3]. سيعرف هذا التراث باسم "الاستشراق"، وأصبح يُشخص اليوم باعتباره "إسلاموفوبيا" (خوف رهابي من الإسلام): "كره وخوف يفتقدان المنطق العقلاني من الإسلام والمسلمين"[4]. ويقدم دانييل الحجة على أن رواية سلمان رشدي "آيات شيطانية" (1988) تجسد مثالا معاصرا على هذا التراث الحي. "أسلوب العصر تغير، لكن المواضيع متواترة ومتكررة وباقية"، حسبما يقول[5].

أصبحت حياة العالم الإسلامي معروفة لأوروبا بأنها حياة وفرة وغنى ونماء، تصقلها التقانة المتقدمة، والمعرفة العلمية، والمنجزات الأدبية والفلسفية، وتعتبر نبعا للموارد الثرة التي تتجاوز كل ما هو متاح في الغرب. وفي سبيل الحصول على هذه البضائع والسلع والأساليب التقنية، اعتمدت أوروبا على التجارة مع عدوها اللدود. أما كفة ميزان التجارة القروسطية فكانت تميل لصالح العالم الإسلامي بدرجة هائلة، وأضاف الحصول على الذهب لدفع ثمن البضائع مزيدا من التعقيد إلى المشكلة. كان الذهب يأتي من غرب أفريقيا عبر طرق التجارة التي تخترق الصحراء إلى المغرب العربي الإسلامي (المنطقة التي تضم حاليا المغرب والجزائر وتونس)، ومن هناك إلى أوروبا. ثم يوزع في مختلف أرجائها قبل أن يتدفق مرة أخرى من خلال التجارة مع

الموانئ الإسلامية في الشرق الأوسط، (المنطقة الممتدة على طول الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، من تركيا إلى مصر)، حيث تنتهي عندها الطرق التجارية التي يسيطر عليها المسلمون وتمتد إلى جزر الهند الشرقية ("جزر التوابل") والصين في الشرق الأقصى.

بدأت الحملات الصليبية في السابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1095م، حين ألقى البابا اوربان الثاني (1035؟ - 1099) عظة في كليرمون بفرنسا. في كلتا الروايتين الباقيتين عن هذه العظة، يصف البابا العدو بالتعابير الأيديولوجية المألوفة: "عرق محتقر ومنحط، يعبد الشياطين"؛ "جنس ملعون"؛ "أمم نجسة". العدو كان، كما افترض، يهاجم المسيحيين في الشرق الأوسط، ويطردهم من أراضيهم، ويدنس ويدمر أماكن العبادة المسيحية، ويستولي على الكنائس لإقامة شعائر ديانته. وتبعا لنسخة روبرت الراهب، عرض البابا الحملة الصليبية باعتبارها مهمة خاصة للفرانكيين (الفرنجة)، أو الشعب الفرنسي، وكذلك بوصفها فرصة لهذا الشعب بالتحديد للنجاة من قيود الأرض التي "ضاقت كثيرا على العدد الكبير من سكانكم". فأوروبا، كما زعم اوربان، قد فرقتها الصراعات الداخلية، ومن الأفضل أن ينأى الأوروبيون عن هذه المنافسة الأثيمة لينجزوا

مهمتهم الصحيحة المتمثلة في مهاجمة الوثنيين والكفار. وستكون الحملة الصليبية "حربا مقدسة" بمعنيين اثنين: ستكون لصالح تقدم المجتمع المسيحي؛ وستكون مشروعا حربيا يكفر عن خطايا وذنوب كل من يشارك فيه. أولئك الذين حملوا الصليب، وأصبحوا صليبيين، سوف يسيرون على الدرب الموصل لجنة الخلد. هذا الصراع كان متجذرا في التاريخ، كان "حربا يجب أن تشن منذ زمن طويل".

لم تكن الحملات الصليبية خمسة أو ستة أحداث منفصلة - لقد مثلت حقبة، جملة من الأفكار، سياقا شكل وصاغ خمسة قرون من التاريخ الأوروبي. كانت نظرة للعالم تتجاوز السياسة والقانون، ؛ وجدت التعبير المناسب في كافة المنتجات الثقافية للحضارة، وشكلت المثل الصليبية التراث القصصي الذي يمكن العثور عليه في الأدب الشعبي ضمن كل اللغات الأوروبية: الحكايا الرومانسية لشهامة الفرسان الذين "يفعلون ما ينبغي على الإنسان فعله" (على حد تعبير جون واين). لم تكن الحملات الصليبية مجرد حملات عسكرية خارجية بالنسبة لأوروبا - لكن جرى أيضا "تذويتها" (جعلها جزءا من الذات) باعتبارها نظرة ورؤية للعالم. علاوة على ذلك، خاض الطرفان الصراع ضمن مناطق نعتبرها الآن أوروبية. كانت إسبانيا

والبرتغال مناطق بديلة للحملات الصليبية، كحال أوروبا الشرقية. وحين استطاع شارل مارتل تغيير مجرى الأمور رأسا على عقب، كانت معظم مناطق شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال حاليا) جزءا من الإمبراطورية الإسلامية. وغدت الممالك الإسلامية في الأندلس بمثابة قناة رئيسية عبرت من خلالها معارف وتقانة وموارد الحضارة الإسلامية إلى أوروبا - بدءا بالفلسفة والاكتشافات العلمية، مرورا بصناعة الورق والطواحين الهوائية، وانتهاء بالسكر والتوابل. وإذا كانت الأراضي والمناطق الإسلامية تحدد تخوم أوروبا، فإن إسبانيا هي الحدود. الحدود الإسبانية كانت بمثابة "الغرب الضاري" (الأمريكي) آنئذ، مناطق اجتذبت المرتزقة والفرسان الذين قدموا من كافة أنحاء أوروبا. وكان ذلك، كما أشار تيري جونز، جزءا من الهجاء الانتقادي في عمل جفري تشوسر (1350؟ 1400) الشهير "حكايا كانتربري" (بدأ كتابتها عام 1387). فمن بين جماعة الحجاج التي وصفها تشوسر هنالك "فارس مثالي جدا"، لكن قائمة مآثره البطولية تشمل بعض الأفعال العنيفة والشائنة في إسبانيا وكذلك على الحدود الشرقية. أما هدف العنف فكان غنم مناطق من العدو الكافر، أراض سوف تجعل آمنة بواسطة المستوطنين الجدد الذين سيروضون ما كان بريا جامحا يقسم ما بين الحضارة ونقيضها.

حددت المسيحية القروسطية هوية أوروبا، وأنتجت بذلك تعريفا واضحا لـ"الآخر"، من هو وماذا يكون: إنه اللامسيحي، الذي لم يتعمد. لكن لم تكن كافة الشعوب الأخرى متماثلة. القديس توما الإكويني حدد فئتين أساسيتين: الجهلة الذين يمكن قهرهم، والجهلة الذين لا يمكن قهرهم. الفئة الأولى تضم "الآخرين" الذين لديهم معرفة بالمسيحية لكنهم رفضوا عامدين متعمدين اعتناقها. وكما يتضح بجلاء من القانون الكنسي، فإن هذه المجموعة تتألف من اليهود والمسلمين. اليهود هم "الآخرون" الذين تواجدوا داخل تخوم المجتمع المسيحي، وتعرضوا للتمييز والتفرقة والاضطهاد نتيجة كونهم يمثلون "الآخر" المختلف. أما المسلمون فكانوا "الآخر" الخارجي، ولم يكن يتوقع منهم أن يتواجدوا داخل المجتمع الأوروبي. الجهلة الذين لا يمكن قهرهم هم البرابرة، ويشمل هؤلاء المتوحشين- الذين يمكن استرقاقهم (مؤسسة الرق ظلت باقية من العهد الروماني ولم تختف تماما من أوروبا القروسطية. والكلمة اللاتينية (Slave /عبد، رقيق) أتت من كلمة /Slav/ أي الشعوب السلافية في شرق أوروبا). أملت أوروبا أن تجد حلفاء من بين الفئة الثانية [الجهلة الذين لا يمكن إخضاعهم] في حربها ضد الإسلام، إن تمكنت من العثور على طريق يلتف حول أراضي المسلمين ويطوقها.

اكتشاف طريق يلتف حول أراضي المسلمين سوف يتيح أيضا حرية الوصول مباشرة إلى "جزر الهند" والحصول منها بواسطة التجارة على السلع التي أصبحت من المواد الأساسية في الحياة الأوروبية. كما سيضعف قبضة الحضارة الإسلامية الاقتصادية الممسكة بخناق أوروبا. وحين فشل الصليبيون في تحقيق هدفهم وتعثر مشروعهم الهادف لضمان وجود أوروبي في الشرق الأوسط، بدأت مغامرة الاستكشافات بشكل جدي. ففي عام 1492 ، وبعد أيام قليلة من اكتمال استرداد الأندلس وذلك مع سقوط أخر معاقل المسلمين في غرناطة، استدعى فرديناند وايزابيلا، أعظم الملوك الكاثوليك (دعيت دولتهما "مملكة الملوك الكاثوليك")، كريستوفر كولمبوس ومنحاه أخيرا الموافقة على اقتراحه الجديد بمتابعة الحملات الصليبية ضد الكفار، وذلك بالوصول إلى الشرق عن طريق الإبحار غربا عبر المحيط الأطلسي.

انطلق كولمبوس برحلته متسلحا بالأفكار والمعارف الأوروبية التقليدية. أما اقتراحه الإبحار غربا فقد استمد إلهامه من غلطة مطبعية تكررت من جديد، أولا وهي الخطأ في حساب قطر الأرض من قبل العالم الإغريقي بطليموس. سافر كولمبوس حاملا في جعبته مجموعة من الكتب الحاوية على

مخزون الأفكار الأوروبية المعاصرة حول العالم وسكانه؛ ونسب إليه الفضل باكتشاف "عالم جديد" بالرغم من إصراره على أنه وصل فعلا إلى الشرق الأقصى القديم. ومع ذلك، فإن الأفكار العتيقة هي التي استخدمتها أوروبا لفهم هذا الحدث الجديد. والأوروبيون الذين استوطنوا القارة المكتشفة حديثا حملوا معهم البواعث والحوافز، وطرائق التفكير، والمدركات عن الذات للمسيحية الغربية. في هذا الموقع المكاني الجديد، بدأت الأفكار القديمة وأساليب التفكير والسلوك المعتادة مرحلة جديدة من الهيمنة الاستعمارية

أمكن للأوروبيين، بعد كولمبوس، الزعم بأنهم تقدموا إلى الأمام متجاوزين معارف اليونان والرومان القدماء، وآباء المسيحية، علاوة على جملة معارف الحضارات الإسلامية والهندوسية والصينية. أصر القدماء وآباء اللاهوت على أن "المناطق الواقعة على الطرف الآخر من الكرة الأرضية" لا يمكن أن يسكنها البشر، وأن الحياة الإنسانية مستحيلة في المناطق الحارة من الأرض. لكن الأوروبيين المعاصرين، في عصر الاكتشافات، أثبتوا خطأ ذلك. فالمعرفة العملية، أي المعلومات التي جمعها البحارة والرحالة، لعبت دورا رئيسا في تشكيل وجهة النظر العلمية الجديدة التي كانت تبزغ في أوروبا، وحين

استخدمت لاستقصاء وتفحص العالم من جديد، أمكن تقديم صورة مختلفة عن الشرق. فتقارير الرحالة، والتجار، والبعثات التبشيرية ذكرت بانتظام أن الشرق كان في عصر انحطاط وتفسخ وضمور وردة رجعية إلى الخرافات والخوف اللاعقلاني من المجهول، بينما كان الأوروبيون يتقدمون ويطورون معارفهم. ولربما كان الشرق أعظم ثقافة وأكثر مهارة علمية وتقانية، لكن هذا أصبح شيئا من الماضي الغابر. الشرق في حالة جمود أبدية، وتوقف تطوره، أما السبب الرئيس لانحطاطه وتفسخه فهو التزامه المستمر بالدين الخطأ. إن مشعل الحضارة، والعقل، والمعرفة العلمية، وموئل الابتكار الإبداعي الخلاق، رسالة المسيحية، قد انتقل إلى الغرب. تحمله أيد جديدة، أيدي الأمم الأوروبية التي تدفع وتمد حدود أوروبا في العالم على الدوام.

هناك جيل واحد امتد من عام 1492، حين نزل كولمبوس على شاطئ "هيسبانيولا" (إحدى جزر الهند الغربية المقسمة الآن بين هايتي وجمهورية الدومينيكان)، إلى عام 1529، حين أكمل فيردناند ماجلان أول رحلة بحرية حول الأرض، شكل معلما بارزا وهاما في تاريخ أوروبا. لم يقتصر الأمر على إثبات حقيقة أن كل الكتب التعليمية القديمة ناقصة تبعا للاكتشافات الجديدة، بل أعيدت صياغة طريقة تفكير

الأوروبيين بهذه المعلومات، وما تعنيه بالنسبة لأصول ونشأة العالم والغاية منه. بخلال جيل واحد، حدثت طفرتان عظيمتان على صعيد الكم. فمع توسع المعارف عن العالم الدنيوي، خضع العالم الروحي لعملية "إصلاح ديني". الدين الجديد الناتج عن "الإصلاح" وفر سلطة جديدة للفرد كي يبحث ويدرس ويتقصى كتاب الله المكتوب ("الإنجيل") وكتاب الله المنظور ("الطبيعة")، متسلحا بالعقل الإنساني والمنطق البشري. الإصلاح الديني البروتستانتي صدَّع بنى السلطة المرجعية القديمة وأوجد أخرى جديدة. وغدا الضمير الإنساني الفردي أساس نوع جديد من الميثاق المدني، ألهمت فكرته قرونا من المساعي الدؤوبة لتأسيس وترسيخ الحريات المدنية الفردية. بدأ الإصلاح الديني كحركة لمغالبة فساد وانتهاكات وأضاليل وأخطاء الدين الرسمي الخاضع لتأويل الكنيسة الكاثوليكية. فانفتح عالم جديد، أرض موعودة من الالتزام الإيماني، والعلاقة الصحيحة مع الله، أمام أولئك الذين قاموا بالرحلة الروحية والفكرية إلى منطقة اللاهوت القويم. المؤمنون الملتزمون بالطوائف والمذاهب الدينية الجديدة، وقد تسلحوا بمقاربتهم الجديدة للكتاب المقدس، ضمن إطار فكرة "جسد المسيح" بعد إصلاحها، أرادوا بناء موئل مثالي للأرواح التي خلفها المسيح في مجتمعاتهم المدنية على الأرض. الحجاج الذي غامروا بالسفر إلى العالم الجديد اعتبروا

أنفسهم فعلا بمثابة عبرانيين جدد يسعون إلى الأرض الموعودة، أرض كنعان.

انطلق الحجاج لتأسيس مجتمع جديد وبذهنهم هذا الهدف السامي. كتب جون رولف (1585 ـ 1622) يصف في عام 1617 "العمل الحماسي" لتأسيس مستوطنة فيرجينيا: "لا داعي للخوف. كل ما علينا فعله أن نشيدها، كجماعة استثنائية، أشارت إليها واختارتها إصبع الله كي نمتلكها"[6]. حين أبحر جون وينثروب إلى أمريكا عام 1630، كتب يقول: "يجب أن نعتبر بأننا سنكون 'نارا على علم'، وأعين الناس جميعا مركزة علينا"[7]. لقد حدد كل من رولف، أحد مؤسسي صناعة التبغ في مستعمرة فيرجينيا، ووينثروب، الذي أصبح أول حاكم لمستعمرة ماساتشوستس، الصفات المقبولة والسائدة لأمريكا من نقاء، وحق مقدر، واستقامة أخلاقية، وبراءة. أما حياته المهنية فاحتوت تناقضات أقلقت العديد من المراقبين لأمريكا. وكما يقول جيمي دورهام الكاتب الأمريكي (الهندي الأصل):

يمكن حتى الآن أن نقرأ افتتاحية صحيفة يومية عن "فقد أمريكا لذاتها"، في هذه المرحلة أو تلك، وحول وقت ما في الماضي حين كانت أمريكا صالحة وطيبة وخيرة فعلا.

لقد بدأ الاعتقاد بالتفوق الأخلاقي للذات والإصرار على البراءة والطهارة، مع بدء الولايات المتحدة بالغزو والقتل[8].

في رأي دورهام، شعرت أمريكا منذ البداية بحنين مرضي إلى ذاتها نتيجة الإثم الفعلي. فالولايات المتحدة، في اعتقاده، كانت أول مستعمرة استيطانية تأسست "ضد"، وعبر "إنكار"، حقوق السكان الأصليين. وهكذا "طورت رواية كانت أكثر اكتمالا، وأشد إرضاء.. تلك الرواية ولدت سلوكا ثقافيا وسياسيا جديدا كان له التأثير الرئيس النافذ في العالم الحديث"[9].

"الأسطورة الكبرى"، كما يدعوها بيتر ماثيسون، التي استخدمت لتبرير وتأبيد الاستيلاء على أمريكا، هي ما "اكتشف" أنه أراض شاسعة من البراري المقفرة. "العالم الجديد: نقي، عذري، لم تغيره يد البشر، ونتيجة للاعتقاد بالطبيعة البكر للأرض المكتشفة هنا، فإن كل الثقافة على هذه القارة، اعتبرت آنئذ، وما زالت تعتبر من قبل الكثيرين الآن، أنها منقولة من حضارات أوروبا 'المتقدمة'، حضارات 'العالم القديم'"[10]. كتب أوائل المستوطنين يقولون بأنهم وجدوا "جنة عدن" جديدة، أرض كنعان، فردوسا أرضيا. أمكنهم هنا البدء بتجارب جديدة لاختبار المجتمع، وإلغاء وحل المشكلات،

وتجاوز فساد وعيوب ونواقص وإخفاقات "العالم القديم". الحرية التي خصَّ بها المستوطنون أنفسهم، اتصلت مباشرة بالحرية التي أنكروها على السكان الأصليين لأرض مأهولة، ومستوطنة ومزروعة، كانت منظرا مشهديا ناتجا عن تفاعل الإنسان والطبيعة.

الإنكار الذي يشير إليه دورهام يبدأ مع السؤال المتعلق بما إذا كان السكان المحليون في العالم الجديد كائنات بشرية لها أرواح أم لا. وظل حاضرا في تقاليد التوصيفات والروايات المبكرة عن سكان أمريكا الأصليين، التي بقيت سلبية باستمرار. واللازمة المتكررة كانت "ليس لديهم.."، بغض النظر هل كان الموضوع يدور حول مفهوم الممتلكات الشخصية، أو شكل الحكم، أو الدين، أو الزواج. ما "ليس لديهم.." هو الأشكال والأنماط والسلوكيات الاجتماعية الأوروبية. هذه التوصيفات والروايات السلبية تلقفها الفلاسفة في أبراجهم العاجية في أوروبا ووظفوها لتشكيل وصياغة رؤية تراتبية للكينونة الإنسانية الاجتماعية والثقافية التي كانت في مرحلة البناء حين وطأت أقدام الحجاج أرض ما سوف يعرف باسم أمريكا. هنالك فترة حمل طويلة ومراحل متنوعة من عملية "التعريف بالإنكار/السلب/ النفي" لسكان أمريكا الأصليين. لكن ما يتضح بجلاء هو كيفية امتداد وتوسع طرائق التفكير

القديمة والمبتذلة التي تشكلت خلال تنافس القوة في القرون الوسطى بين المسيحية والإسلام، لتشمل تصنيع الأفكار والمواقف والوسائل المطلوبة للتعامل مع سكان أمريكا الأصليين.

إسبانيا، أول قوة استعمارية في العالم الجديد، ناقشت بشكل جدي الوضع الشرعي/القانوني للأهالي المحليين. النقطة التي تركز عليها الجدل هي: هل أهالي أمريكا الأصليين هم من دعاهم الفيلسوف اليوناني أرسطو بـ"العبيد الطبيعيين"، أي ذلك القسم من البشر الذين اختارتهم الطبيعة ليكونوا عبيدا في خدمة أولئك الذين ولدوا من أجل حياة الفضيلة المتحررة من عبء العمل اليدوي. لم تكن السلطة المرجعية للقدماء العامل الوحيد الذي أعطى الاعتبار والاحترام لهذه الفكرة - بل وجدت لها أيضا مسوغا تبريريا في الإشارة التوراتية إلى أبناء حام الذين قدر عليهم أن يكونوا "حطابين وسقاءين". أما أول تطبيق لهذه الفكرة على العالم الجديد فستظهر في كتابات الفيلسوف الاسكتلندي جون ميجر الذي أقام في باريس عام 1510. الفكرة تعرضت للدحض على الفور. "أنا صوت يصرخ في البرية، فلا حياة لمن تنادي"، هذا هو نص الموعظة التي ألقاها انتونيو دي مونتيسنوس عام 1511 في إحدى كنائس هيسبانيولا، حيث نزل كولمبوس لأول مرة. ثم سأل: "هل هؤلاء

الهنود لا ينتمون إلى البشر؟ ألا يملكون نفوسا وأرواحا وعقولا؟ أليس من واجبكم أن تحبوهم كما تحبون أنفسكم؟". أدت هذه الآراء المتناقضة إلى سلسلة من النقاشات والمجادلات العامة في إسبانيا طيلة عقود من السنين، الأمر الذي أدى بدوره إلى صدور مجموعة من التعليمات المتعلقة بمعاملة السكان المحليين، وتعريف وضعهم الشرعي.

لم تكن المجادلات مجرد بحث نزيه وموضوعي عن فهم لجماعات جديدة من الناس. إذ إن فهم أوروبا وتعريفها لسكان أمريكا الأصليين يؤثران في تبرير وتسويغ وضمان مزاعمها بالحق في الاستيلاء على أراضي الإمبراطورية واستملاكها. المجادلات الأولى أنتجت "الشرط الأساسي"، الذي يتطلب قراءة إعلان رسمي على الهنود الحمر، بلغة لا يفهمونها، يخيرهم بين الخضوع للحكم الإسباني والسماح بالتبشير بالدين المسيحي، أو التعرض في حالة الرفض لإجراءات عقابية يحق للأسبان اتخاذها ضدهم واجتياح أراضيهم بالنار وحد السيف: "نبيعكم أو نتخلص منكم حسب مشيئة صاحب السمو؛ وسوف نأخذ من الأتباع العصاة بضائعهم، وننزل بهم كل ما نستطيع من الضرر والأذى والدمار"[11].

في خمسينيات القرن السادس عشر، وحين جرت المجادلات الكبرى في بلد الوليد في إسبانيا بين الفيلسوف/اللاهوتي خوان

جين دي سيبولفيدا (1490 ـ 1573)، والراهب الدومنيكاني بارتولومي دي لاس كاساس (1474 ـ 1566)، (المعروف باسم "الرسول" المبعوث إلى الهنود الحمر)، قدمت نظرة بديلة، وفكرة ثابتة عن الإمبراطورية. سكان أمريكا الأصليون ليسوا عبيدا بالطبيعة. فـ"كل البشر سواسية"، كما أصر لاس كاساس، وتابع حجته بالقول: "والسكان المتوحشون في الأرض يمكن مقارنتهم بالتربة غير المزروعة التي تنبت الأعشاب الضارة والأشواك التي لا نفع لها، لكن تكمن فيها فضيلة طبيعية بحيث يجعلها العمل والحرث تغل ثمارا مفيدة وصالحة"[12]. وهذه حجة تدعم اعتبار الهنود الحمر "أطفال الطبيعة"، الذين يجب حمايتهم، وتعليمهم، وهدايتهم، وإدخالهم إلى الحضارة. لكن المشكلة مع هذا الإطار الكولونيالي الشمولي تتمثل في الافتقار إلى أي نوع من الامتحان الذي يمكن اجتيازه بنجاح. ومن الصعب إلى حد ما على الضحية قبول وصاية وبيداغوجيا القتلة والمضطهدين واللصوص الذين نهبوا وسلبوا. لقد كانت فكرة "طفل الطبيعة" أكذوبة مهذبة تأسست على غطرسة عرقية وعنصرية عميقة الجذور، حتى حين أتت من رجل طيب ورع مثل لاس كاساس، الذي رغب فقط بفضح الممارسة الوحشية وعمليات الإبادة الجماعية التي ارتكبها معاصروه.

عمرت فلسفة "طفل الطبيعة" زمنا طويلا في الوعي الأوروبي - وفي الحقيقة مازالت معنا جميعا. فهي تشكل النص الحقيقي لما يلقى على الدول "النامية" من محاضرات توبيخية وتحذيرات متغطرسة تحت مختلف العناوين (من السياسة الاقتصادية وحتى حقوق الإنسان) من قبل الدول المتقدمة التي اغتنت من الاستعمار ومازالت تقتنص مرابح غير متوقعة كسبتها بدون جهد نتيجة جور وظلم النظام الاقتصادي العالمي الذي أقامته. في القرن السادس عشر، اعتنق فكرة "طفل الطبيعة" حكام الإدارات الاستعمارية، لا بسبب الغيرية وحب الخير للآخرين بل نتيجة الأنانية والمصلحة الذاتية. وباعتبارهم بشرا لهم أرواح، ولديهم القدرة على تلقي الدروس والإرشادات، اعتبر سكان أمريكا الأصليون متمتعين بما يكفي من الأهلية للتخلي عن أراضيهم، وأملاكهم، ونفوسهم لسلطة وإدارة القوة الاستعمارية. الأمر الذي ساعد على حل نقطة خلافية في القانون والسياسة البراغماتية الواقعية تثير الارتباك والغيظ والتساؤل. في الإدراك القروسطية للعالم الذي صاغ شكل التوسع الأوروبي، كانت هناك أربعة مفاهيم خلقت الادعاءات بحقوق امتلاك المناطق المتنازع عليها: الفتح؛ الموافقة أو التنازل؛ "الهبة" البابوية؛ الاحتلال الأصلي (الاكتشاف). أما أعظم أو أضمن هذه المفاهيم فكان الموافقة أو التنازل من جانب السكان المحليين، بغض النظر عما

إذا تم الحصول على أحدهما بالخداع، أو بالكذب، أو بالوهم. فالعبيد الذين هم ممتلكات أصلا لا يمكن أن يكون لهم أملاك أو حق بالموافقة أو التنازل، في حين يستطيع "أطفال الطبيعة" ذلك. والأراضي التي فتحت يمكن فتحها مجددا بواسطة دولة أوروبية أخرى. في حين لم تعد لـ"الهبة" البابوية سلطة على الدول البروتستانتية مثل إنكلترا وهولندا والدانمرك. أما الاحتلال الأصلي فمسألة خلافية. حيث شمل أسئلة واستقصاءات مبهمة صيغت بلغة التاريخ التوراتي العرقي، وكانت مبالغة في غموضها إلى حد أنها غير قابلة للتطبيق في العالم الجديد. في الولايات المتحدة، كانت المعاهدات التي تم من خلالها الاستيلاء على الأرض. إضافة إلى جميع الترتيبات البطركية/الأبوية التي اتخذتها الحكومة لإدارة شؤون حياة السكان المحليين الذين سلموا مصائرهم للجمهورية الجديدة. تدعى بـ"القانون الهندي الاتحادي". الأكاديمي الأمريكي فينيس دولوريا (الهندي الأصل)، أستاذ دراسات وتاريخ الأمريكيين الهنود في جامعة كولورادو، أدان منذ وقت طويل هذه العبارة: فهي "لا تنقل أي معنى دلالي تقريبا، ونادرا ما مست عالم شؤون البشر، كما تغطي عددا كبيرا من الخطايا والآثام التاريخية بطلاء قانوني من اللّك"[13]. الطلاء صنع من إطار الجدل المنطقي الذي دار في القرون الوسطى وطبق باستمرار منذ البداية. وبغض

النظر عن سماكة الطبقات، فإن الحقائق تحتها تعطي فكرة العدالة صيتا سيئا.

النقاشات الجدالية في إسبانيا اتبعها بلهف شديد المتحمسون الإنكليز للإمبراطورية. فقد انضمت الأفكار والحجج الإسبانية إلى ذخيرة الجدل وألهمت وشكلت السياق الذي ستؤسس فيه المستعمرات الإنكليزية في أمريكا. وتردد صدى كافة الاستجابات الإسبانية للسكان المحليين في الكتابات الاستعمارية المبكرة في إنكلترا. التوصيف السلبي "ليس لديهم.."، أصبح حجة برهانية لمفهومي "لي" و"لك". فالهنود الذين ليس لديهم مفهوم حقيقي عن الملكية، أي لا يعرفون معنى "لي" و"لك"، هم مجرد "مستخدمين" لأراضيهم وليسوا ملاكا لها. ولذلك، وتبعا للقانون، يمكن طردهم من الأراضي التي يحتلونها. كان هناك أيضا الأكليروس من طائفة المتطهرين (البيوريتان) الذين أكدوا على أن الهنود الحمر هم أطفال الشيطان ومن الأفضل والأربح محوهم والاستيلاء على أراضيهم. أما المقاربة المعتمدة على حد السيف والحرق بالنار، فقد شرعنتها التعليمات المقدمة إلى أوائل المستوطنين، والالتزام بها في ممارستهم العملية. لم تكن المقاومة أمرا لا يمكن التساهل معه فقط، كانت عملا عبثيا لا طائل فيه. وعندما لا يتم اللجوء إلى الأعمال العدائية - كما كانت الحال في "حرب الملك فيليب"، أو

الحملـة في مسـتعمرة ماساتشوسـتس (1675 ـ 1676)، الـتي شـكلت نقطة تحـول رئيسـة في العلاقـات بـين المستوطنين والهنود الحمر، حسبما أكد فرانسيس جينغز في كتابه "غزو أمريكا" ـ فإن أيـة شـكوى مـن جانـب المسـتوطنين يمكـن أن تشـكل انـتهاكا يـبرر ردا عسـكريا سـاحقا. أو تمـارس الديمقراطـية دورهـا في التصـويت علـى نفـي وجـود مشـكلة الاسـتيلاء علـى ملكية الأراضـي. في عـام 1640 ، أقـر تجمع لمستوطني نيوانغلند سلسلة من القرارات المهمة المباشرة:

1 ـ الأرض ملك الرب والغنى منه. (موافقة بإجماع الأصوات).
2 ـ قـد يهـب الـرب الأرض أو أي جـزء مـنها لمـن اصـطفى مـن عباده. (موافقة بإجماع الأصوات).
3 ـ نحن عباده الذين اصطفاهم. (موافقة بإجماع الأصوات)[14].

لخص الجدل جون رولـف في "الحـرب العظيمة التي خاضها بتأملاته". كان رولف متيما بالأميرة الهندية بوكاهونتاس (المرأة الحقيقية، وليسـت الشخصـية الكارتونـية التي عرضتها "ديزني" مؤخـرا). وفي رسالة كتبها عام 1614 ، عرض حججه التفصيلية وبحثه عـن مـبرر للـزواج مـن الأمـيرة. كانت الرسـالة بمثابة دراسة تشـريحية جدلـية مـن المسـوغات للإمـبراطورية. فقـد صـور نفسـه وإخوانـه المسـتوطنين بـأنهم يتحملون واجـب إقامـة مجتمع جديد،

منفصل عن أخطاء وفساد أوروبا. هذا البروز والإعلان والتوكيد على الانفصال كان نصا من العهد الجديد (سفر الكورنثيين، 17:6) له دلالة مزدوجة المعنى في أمريكا. فقد فصل الحجاج أنفسهم عن أوروبا لإقامة وتطوير مجتمع نقي طاهر وأكثر كمالا. لكن هذا وسواه من النصوص المقدسة (عزرا، 10:10 التكوين، 25:9) كانت لها أهمية دلالية مباشرة فيما يتعلق بالزواج الذي يخترق الخطوط الإثنية والدينية، الزواج المختلط من الأعراق الدنسة الملعونة، وبالتالي ستشكل سدا منيعا أمام الزواج الذي نوى عقده. احتاج رولف إلى خط آخر من الحجج للتغلب على ما بدا أنه عقبة كأداء. ووجد حجته البديلة في فكرة أن بوكاهونتاس، برغم وضوح أنها ابنة قبيلة دنسة بربرية، كانت على استعداد لأن تتلقى التعليم والتلقين وبالتالي الانضمام إلى الجماعة المؤمنة بالمسيحية، ولذلك سيحقق زواجه بدقة الهدف التبشيري للاستيطان في العالم الجديد. كانت بوكاهونتاس أول وأشهر من اعتنق المسيحية فيما سيصبح لاحقا الولايات المتحدة الأمريكية. هذه الصورة، تعميد بوكاهونتاس، هي التي نقشت على قبة مبنى الكابيتول (الكونغرس). صورة العمادة أكثر أهمية، من الناحيتين المفهومية والقانونية، من قصص الكابتن جون سميث الطويلة التي تخدم الذات عن بوكاهونتاس. كان سميث مرتزقا وأحد قادة المستعمرات

الإنكليزية الناجحة في ما سيعرف بالولايات المتحدة فيما بعد، كما ألف عددا من من الكتب الشعبية تناول فيه تجربته. في واحد من هذه الكتب فقط تطرق إلى القصة التي أصبحت أشهر أسطورة عن بوكاهونتاس: حين كان سميث على وشك أن ينفذ به حكم الإعدام في قبيلة بوهاتان الهندية، لكن بوكاهونتاس، ابنة الزعيم، وضعت رأسها على رأسه وطالبت بالإبقاء على حياته. وفي الحقيقة، قد تكون هذه هي الأسطورة الوحيدة التي يعرفها معظم الناس عن بوكاهونتاس. وقد شكلت الجزء المركزي من فيلم الرسوم المتحركة التي أنتجته "ديزني" عام 1995.

من خلال استغلال الأفكار القديمة والتلاعب بها، أمكن إجبار العالم الجديد على التأطر ضمن التقاليد والأعراف والمواثيق الأوروبية. وأمكن كذلك الاستيلاء على ممتلكات سكانه الأصليين وتصنيفهم وإزاحتهم لخلق الحيز الفعلي والفلسفي والقانوني لفكرة أمريكا وتأسيسها على قاعدة البراءة. ثم أتى أشد احتفالات النصر إثارة للاشمئزاز. إذ سرعان ما وجد المستوطنون أن معدلات الوفيات بين السكان المحليين ترتفع بشكل ينذر بالخطر. فغزو العوامل الممرضة لأنواع جديدة من الأمراض التي أدخلها المستوطنون معهم، ولم يكن لدى

الأهـالي مـناعة طبيعـية ضـدهـا ـ أدى إلى تدمـير مجـتمعات محلية وشعوب بأكملها. وبدا وكأن المرض والموت يمهدان السبيل لفتح البلاد وجعل الأراضـي متوفرة للمستوطنين. وكان من المفهوم في كـتابات الحجـاج أن يـد العـناية الإلهية تشـتغل مـن أجـل "العمـل الحماسـي" لـ"الشـعب المخـتار"، لقـد قـدر عـدد السـكان المحليين عـند أول اتصـال لهم مـع الأوروبيين بعشـرين وربما خمسين مليونا يعيشـون عـلى الأرض الـتي أصـبحت تعـرف بالولايـات المـتحدة. وبحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، عند نهاية الحروب الهندية وبعـد جائحـة الأوبئة والأمـراض، ونهـب وسـلب البـراري وترويضها وتدجينها واستيطانها، لم يعد عددهم يتجاوز 250 ألفا!

في القـرن التاسـع عشـر، تراجعـت حجة "يد العناية الإلهية" عن موقعهـا لصـالح رومانسـية الحـنين إلى الماضـي مجسـدة في فكـرة "الهـندي الـذي اختفى"، والفكـرة التجـريدية الملفقـة الـتي أمكـن بهـا إبـداء الأسـف لمـوت "المتوحش النبـيل"، بيـنما وصـل السـكان الهـنود في الواقـع الفعلـي إلى حافـة الانقـراض نتـيجة الخطـط المقصـودة، والقـانون المتحيز، والإدارة السياسية الظالمة. أرهصت الفكـرتان التجـريديتان كلتاهـما لظهـور مبدأ "البقاء للأصلح"، المفهـوم الداروينـي الاجـتماعي عـن الحضـارات، والشـعوب، والأعـراق، باعتبارهـا خاضـعة لقـدر الطبيعة المحتوم الذي يخيرهـا

بين التكيف أو الانقراض. لم تعتمد الحضارة الغربية على القانون البشري وحده، بل لجأت أيضا إلى قوانين الطبيعة. عبر تحويل الفلسفة الاجتماعية إلى قوانين بيولوجية واستغلال وتهجين القواعد الانضباطية للمعرفة الحديثة. لإنتاج "التجريدات النظرية التي أضفت الصفات المثالية على العقلانية البشرية لإعطاء معنى منطقي للأحداث والحوادث التي ما كانت لتأخذه لولا ذلك" [15]. يشكل سكان أمريكا الأصليون أحد الأمثلة، الداخلية والأداتية لفكرة أمريكا، على ظرف عام حلت نوازله وبلاياه بالعالم الثالث. وفي الحقيقة، فرض تكييفهم مع الواقع (هدايتهم، تحضيرهم بواسطة بعثات التبشير، تطورهم) فرضا عبر حرمانهم من الحرية العامة والفردية، في حين دفعوا إلى حافة الانقراض، إما من خلال الأعمال الإجرائية المتعمدة (حروب، تجويع، إهمال مهلك) أو استراتيجيات التجاهل والنبذ والتهميش (الإهمال الذي لا يلحق ضررا مباشرا، والإقصاء عن المشاركة الكاملة في شؤون الاقتصاد والسياسة والمجتمع) التي كانت أضرارها مماثلة لأضرار الحرب المباشرة.

يشرح جيمي دورهام العملية وعواقبها بلغة مألوفة يتردد صداها في تجربة شعوب الدول النامية:

القصة الرئيسة للولايات المتحدة لم (ولا يمكن لها أن) تتغير. فقد توسعت، وذاعت، وانتشرت. هذه القصة ليس لها سوى اهتمام سطحي "بترويض البراري" و "اجتياز الحدود الجديدة". لقد طورت الولايات المتحدة مفهوما نظريا وواقعا حقيقيا عن الدولة، ولربما أقول "الدولتية"، لأن ثقافة الولايات المتحدة أيديولوجية بصورة كاملة.. القصة الرئيسة للولايات المتحدة تزعم عدم وجود "هنود" في البلاد، بل مجرد برية مقفرة. ثم ادعت أن "الهنود" متوحشون في حاجة للولايات المتحدة. ثم أشارت إلى أن "الهنود" ماتوا كلهم لسوء الحظ. ثم أصبح الهنود اليوم: 1) سعداء أساسا بالحالة التي هم فيها، 2) ليسوا "هنودا" حقيقيين. ثم، ادعت والأهم من كل ذلك، أن القصة قد اكتملت[16].

وعلى شاكلة الولايات المتحدة، بنى الغرب نفسه باعتباره مشيد المعرفة. فالعلم والمعرفة المؤسسان على العقل هما من ممتلكاته الخاصة، ولذلك فهو يدرس ويعرف الشعوب الأخرى بشكل أفضل مما يمكن أن تعرفه هي عن نفسها. والقواعد الناظمة للمعرفة، مثل الأنثروبولوجيا ودراسات التطور والعلم السياسي، تفسر بقية دول العالم وشعوبه، ولا تنحصر مهمتها في

استخدامها لصياغة علم السياسة وسياسة الغرب فقط، بل في تفسير العالم لذاته. وما يقوله دورهام عن الأمريكيين الأصليين ينطبق على المسلمين، وهنود شبه القارة، وعدد لا يحصى من الشعوب الأخرى. "يعرف العالم جيدا من نحن، وكيف نبدو، وماذا نفعل، وماذا نقول - من رواية المضطهد القامع، المعرفة مزورة، لكنها معروفة"[17]. وبالنسبة لمن يريد أن يفهم الشعوب الأخرى، هذا هو أكثر الأسئلة التي يجب أن يواجهها أهمية وإرباكا وخطورة. "المعرفة الجاهلة" تقليد مألوف. إنها العلم الذي يقدمه الغرب بنفوذه وسلطته إلى نفسه وإلى بقية العالم. يتألف التعليم، الأساس الوطيد لبرامج التنمية المصممة لتحديث الدول النامية، من التعرف إلى تاريخها عبر موشور هذه "المعرفة الجاهلة"، وبالتالي معرفة السر وراء دونيتها. الأمر الذي يفسر الأسباب التي جعلت المعارك المحتدمة حول مضمون المناهج المدرسية أشد أجزاء جدل التعددية الثقافية إثارة للخلاف والنزاع في الولايات المتحدة.

دعونا نوجز ما تطرقنا إليه. الأفكار التكوينية للأسطورة الأمريكية أتت من أوروبا، بعد أن تمت صياغتها من خلال التجربة الأوروبية في "حربها المقدسة" مع الإسلام والحرب الذهانية التي أفرزتها. الهوية الأوروبية تشكلت وتحددت في

سياق المواجهة الصدامية والتعارض مع "الآخر"، خصوصا المسلم، وعملت على أبلسة العدو وتشويه سمعته والحط من قدره. ثم نقلت المواقف التي تشكلت عبر القرون على حدود الصدع الفاصل بين الحضارة الأوروبية والإسلام، إلى أمريكا، حيث وفرت البواعث المحفزة التي جعلت من الممكن إقامة مجتمع جديد. هذه الافتراضات القديمة والمألوفة ليست مجرد تاريخ. فهي تشتغل اليوم في ردود الأفعال الانعكاسية، وأفكار ومواقف الإمبريالية المفرطة في جبروتها. وهي مجسدة في الخطاب الأمريكي الطنان وفي السياسة. ويعاد إنتاجها واستخدامها في كل عملية تدخل للولايات المتحدة في شؤون الدول الأخرى.

القضية المربكة والخطيرة حقا لا تتمثل فقط في الاعتراف بما حدث من غزو، وقتل، وقمع، بل في حقيقة أن المؤسسات والقيم والأفكار التي استخدمت لـ"ممارسة الفضيلة" كانت، وظلت، مسؤولة عن استمرار حالة الإقصاء والنبذ والتهميش؛ وفي أنها تزودنا بالأمثلة العملية على الطريقة التي يتم فيها "مضاعفة الشر والإثم بعمل الخير". خلال الاستيلاء على أراضي سكان أمريكا الأصليين، تم عقد ثمانمائة اتفاقية بين مختلف القبائل والشعوب الهندية من جهة والولايات المتحدة من جهة أخرى، منها 430 تقريبا لم يصادق عليها الكونغرس الأمريكي، رغم

وجوب التزام الهنود بشروطها وبنودها. وكما لاحظ السناتور دانييل كي. اينوي، رئيس اللجنة المختارة للشؤون الهندية في مجلس الشيوخ: ".. والأشد مأساوية أن الاتفاقيات الثلاثمائة والسبعين التي صادقت عليها الولايات المتحدة قد انتهكت شروطها جميعا"[18]. أما ديفيد اي. ولكينز الأكاديمي الأمريكي (الهندي الأصل) والأستاذ المساعد للدراسات الهندية الأمريكية والعلوم السياسية في جامعة مينيسوتا، فيشير إلى إضفاء الصفات المثالية على المحكمة العليا باعتبارها القوة التي تمنع الحكومة من إصدار قراراتها الاعتباطية والمفاجئة والمتحيزة، وفي كتابه "سيادة الهنود الأمريكيين والمحكمة العليا في الولايات المتحدة: تقنيع العدالة"، درس خمس عشرة حالة تعاملت فيها المحكمة العليا مع قضايا تخص الأمريكيين الأصليين. "القضايا الخمس عشرة.. رسمت صورة لمحكمة تصدر أحكاما اعتباطية، تعتمد على النزوات المفاجئة والمواقف المسبقة المتحيزة". عواقب قرارات المحكمة العليا هذه:

لم يكن لها تأثير هائل، ومدمر في أغلب الأحيان، بالنسبة للوضع السيادي القبلي والمسمى القانوني لأراضي السكان الأصليين فقط، لكنها أسهمت إلى حد كبير أيضا في الفوضى والتشوش اللذين يحيطان بالعلاقات بين

أنظمة الحكم القبلية وحكومة الولايات المتحدة. فقد أزالت سلطة الكونغرس سلطة القبائل الهندية، وتناوبت في التوكيد على/ وتجاهل مبدأ الإذعان القضائي للأفرع السياسية. وعلاوة على كل ذلك، ألغت حقوق المعاهدات، وكان لها تأثير عكسي على الوضع القانوني للهنود الأفراد، كما قيدت. وفي بعض الأحيان ألغت، سلطة التشريعات الجنائية القبلية، وعرضت للخطر ممارسة، لا بل وجود الطرائق الروحية الهندية[19].

إذا كان الجواب عن السؤال، "لماذا يكره العالم أمريكا"، هو "لأنهم يكرهون حرياتنا - حريتنا الدينية، حريتنا في الكلام والتعبير، حريتنا في الاقتراع والتجمع والمعارضة والاختلاف"، فإن على أمريكا أن تجيب أيضا عن:

مسألة أكبر تتعلق بالسبب الذي يمنع تطبيق جوهر المفاهيم الديمقراطية عن النزاهة، والعدالة، وقبول ورضى المحكومين، على القبائل الهندية ومواطنيها حتى الآن، برغم الإعلان الواضح لحقوق المعاهدات، والسياسات الفيدرالية حول حق الهنود في تقرير المصير والحكم الذاتي، والسوابق القضائية الإيجابية، والمواطنية الثلاثية[20].

إن قضية السكان الأصليين في أمريكا، كما حاولنا أن نفسر، مجرد مثال يجسد مشكلة أوسع. فالأفكار المتعلقة بـ"العبد الطبيعي" أو "طفل الطبيعة" لم تطبق على تاريخ سكان أمريكا الأصليين فقط. ولقد رأينا كيف عارض لاس كاساس الفكرة الأرسطية عن العبد الطبيعي؛ ومع ذلك كان هو ذاته مالكا للعبيد. وفي مرحلة مبكرة من حياته المهنية اقترح استيراد العبيد الأفارقة إلى الأمريكيتين لتجنيب الهنود عبء العمل المضني المفروض عليهم. وفي حين أنه رفض في نهاية الأمر استرقاق الزنوج "لنفس الأسباب" التي طبقها على الهنود الأمريكيين، ظل حتى عام 1544 يملك عبيدا من الزنوج. أما السجل الأول للعبيد الزنوج في أمريكا الشمالية فيأتي في رسالة أخرى كتبها جون رولف، الذي سرعان ما سيصبح زوجا لبوكاهونتاس. فقد كتب عام 1609 يقول إن عشرين من "الخدم" الزنوج قد تم إحضارهم "بأفضل وأرخص سعر" من سفينة هولندية رست في جيمس تاون[21]. فتطور أمريكا، تماما مثل فكرة أمريكا، "ملطخ بالدم البشري" على نحو مزدوج[22]، و"لنفس الأسباب". الرق جعل مسألة العرق أمرا مركزيا بالنسبة لوجود أمريكا. وتطلب إلغاء الرق حربا أهلية دموية وإعادة تعريف فكرة أمريكا ونظام الحكم فيها، ومع ذلك فشل في إزالة حالة التهميش الدائمة التي يعيشها الأمريكيون الأفارقة. "المؤسسة الغريبة" للعبودية كانت ظاهرة

أمريكية، أو ظاهرة لازمت الأمريكيتين، مثلما برهن الأكاديمي البارز ديفيد بريون ديفيز: كانت متميزة عن شكل العبودية الذي مورس في العالم القديم، أو في أوروبا القروسطية، أو في أية حضارة أخرى. وحمّلت أمريكا إرث مشكلة غريبة واستثنائية لم تجد لها حلا.

يتحدى جدل التعددية الثقافية المعرفة، والقواعد الضابطة لإنتاجها، والصورة الذهنية الذاتية التي صيغت عن فكرة أمريكا. فهو يشير إلى حقائق أخرى لم تكن جزءا في العملية التكوينية لفكرة أمريكا. كما يمثل سؤالا محرجا ومربكا وخطيرا يتناول السلطة المهيمنة على المعرفة، وماذا يعني ذلك في دلالته على حق تقرير المصير بالنسبة للجماعات المهمشة. علاوة على أنه لا يكتفي بتقديم قراءات بديلة للتاريخ وحسب، بل قراءات بديلة للأفكار، والقيم، وطبيعة الحضارات الأخرى أيضا. أما فيما يتعلق بالدعوة الساذجة المسطحة إلى التخندق وراء متاريس أطروحة "صراع الحضارات"، التي تحاول أن تبرهن على أن العداء والكراهية يمثلان المستقبل المحتوم الذي يجب علينا توقعه، فيقترح جدل التعددية الثقافية أن اختيارا مختلفا للحقائق غير المكتشفة يمكن أن يجعل "حوار الحضارات" أمرا ممكنا بالنسبة لأولئك المستعدين للإصغاء والتعلم. ولا غرو أن

يتعرض جدل التعددية الثقافية للاتهام بتمزيق أمريكا نتفا وتفريق شمل الأمة.

ومن أجل توضيح الطريقة التي يقتحم فيها جدل التعددية الثقافية قلب الصورة الذاتية الأمريكية، دعونا نأخذ كمثال أحد الأسئلة المربكة الحرجة: هل قام الآباء المؤسسون للأمة الأمريكية، الذين صاغوا دستورها، باستعارة وتطوير مفهوم الحكومة الاتحادية من نموذج "اتحاد شعوب ايركواي الستة" (اتحاد لخمسة من القبائل الهندية التي كانت تسكن ولاية نيويورك، ثم أصبحت ستة بعد عام 1722)؟ جواب هذا السؤال يتيح كتابة أسفار عن حرية الاختلاف الموجودة في أمريكا. في عام 1977، نشر الأكاديمي الأمريكي (الهندي الأصل) دونالد ايه. غريند، أستاذ التاريخ وبرنامج الدراسات الإثنية في جامعة فيرمونت، أول دراسة استقصائية لهذه الفكرة في كتابه، "الايركواي وتأسيس الأمة الأمريكية". وكان بروس يوهانسون، أستاذ الاتصالات ودراسات الأمريكيين الأصليين في جامعة نبراسكا، أول من خطرت له الفكرة خلال مقابلة مع الأمريكيين الأصليين أجراها من أجل مقالة صحفية كتبها عام 1976 بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لإعلان الاستقلال، وجعلها موضوعا لرسالته للحصول على شهادة الدكتوراة،

وأكملها عام 1979 ، وتمكن في نهاية المطاف، وبعد أن واجه صعوبات عدة، من نشرها عام 1982 بعنوان: "المؤسسون المنسيون: بنجامين فرانكلين، الايركواي، والأس المنطقي للثورة الأمريكية". وبخلال بضع سنين، وجد كل من الباحثين نفسه في حمأة معركة ضارية حول مقاربة الجدل الأكاديمي العلمي المقبول والتحكم به. كما تعرض الاثنان لإدانات حماسية في وسائل الإعلام الشعبية وذلك مع توسع خطوط المعركة السياسية حول جدل التعددية الثقافية.

الفكرة التي قدمها كل من غريند ويوهانسون ليست جديدة في حد ذاتها. فقد وجدت في الأدب والسياسة في أمريكا كحكاية نادرة، كملاحظة جانبية غير ذات صلة. عضو مجلس الشيوخ وليام ف. والش، وجد معناها في محفوظات الكونغرس عام 1975. وفي مقدمة لمؤلف وليام براندوند "كتاب الهنود في التراث الأمريكي" صدر عام (1961)، كتب الرئيس جون. اف. كيندي عام 1960 يقول: ألهمت جامعة ايركواي بنجامين فرانكلين فنسخها في التخطيط لاتحاد الولايات"[23]. لكن اهتمام غريند ويوهانسون انصب على فهم معنى الحكاية الطريفة بوصفها تاريخا، قراءة مختلفة لمجتمع الأمريكيين الأصليين، حقائق يمكنها تغيير فكرة أمريكا، وهذا ما سبب كل الغضب الحانق والضجة الصاخبة.

في عام 1744، كان بنجامين فرانكلين يطبع نصوص المعاهدات الهندية، بما في ذلك كلمات كاساتيغو، رئيس اتحاد ايركواي والناطق باسمه. أوصى كاساتيغو المستوطنين الإنكليز بتبني النظام الاتحادي الذي مارسته شعوب الايركواي كنموذج يحتذى. وفي البدايات المبكرة من خمسينيات القرن الثامن عشر، راقب فرانكلين مجلس الايركواي الكبير لدى شعب اونونداغا. وكان النظام يعمل على شكل جمهورية اتحادية تحكمها مجالس محلية ووطنية تختار الزعماء بواسطة إجماع العشائر. أما المجلس الكبير فمؤلف من هيئة تشريعية واحدة. في عام 1754، قدم فرانكلين خطته ("خطة الباني") لاتحاد المستعمرات، مناديا بنظام اتحادي وهيئة تشريعية من مجلس واحد. ودعي زعماء عصبة الايركواي إلى فيلادلفيا لمراقبة المناقشات حول إعلان الاستقلال عام 1775. ولو كان لتاريخ الأفكار أو دراسة انتشار العوامل الثقافية أية أهمية، فإن الحقائق العارية توفر المادة الجوهرية لإثبات التأثر بعصبة الايركواي. كما أن تأثيرها يعني أيضا أن مجتمعا آخر كانت لديه، ومازالت، أفكار عن الحرية الفردية، وحرية التجمع، وصيغا للحكم تعتمد على التمثيل النيابي، وهيكلية فيدرالية تشتغل فيها الديمقراطية لإنتاج نقاشات ومفاوضات سلمية حول شؤون مختلف الطوائف والمجتمعات المحلية. وفي هذه الحالة،

تعتبر جملة القيم التي جرى تشفيرها في فكرة أمريكا مجرد واحدة من تشكيلة متنوعة من الأنظمة الأخرى المؤسسة على القيم المشتركة التي تتواجد في مختلف الحضارات. واعتبرت هذه هرطقة تجاوزت كل الحدود.

الحجة المتزمتة تشبثت بمقولة أن الأفكار المؤسسة لإعلان الاستقلال والدستور - الصيغة المحددة من النظام الفيدرالي للولايات، وحقوقها، وضوابط وتوازنات المؤسسات التي تكون البنية السياسية لأمريكا عبارة عن ابتكارات مستقلة اعتمدت كلية على الأفكار المستمدة من أوروبا. لا سيما وقد اعتبرت بحثا فكريا وعقليا عن المعنى الحقيقي لما دعي بـ"الدستور القديم"، المفهوم الأسطوري للحريات الفردية المدفون ضمن الأسرار الغامضة للتاريخ الإنكليزي. الدستور القديم، الوهم الخرافي الذي هيج أيضا حقبة الثورة الإنكليزية التي امتدت من أربعينيات القرن السابع عشر وحتى ستينياته، يعود إلى ما قبل "الماغنا كارتا" (وثيقة الحريات السياسية والمدنية التي وافق عليها الملك جون عام 1215م)، ليصل إلى الانكلو - ساكسون، الذين كانوا - طبعا - من الأقوام الغازية التي اجتاحت البلاد وطردت سكانها، دون اعتبار عمليات الإبادة الواسعة النطاق التي قامت بها، وذلك تبعا للشعوب السلتية التي كانت تسكن

الجزر البريطانية. الدستور القديم كما هو موجود في إنكلترا لا يتكون من قانون "الحرف الأسود" القوطي، المعروف أيضا باسم القانون المكتوب أو وثائق الحقوق. فمازال الجزء الجوهري من الدستور البريطاني غير مكتوب - وهذا هو غموضه الملغز وميزته العظيمة. وما ليس مكتوبا منه يمكن إعادة صياغته بدهاء في خضم وجلبة الأحداث ليسمح باستيعاب التغيير. أما ما ولد في فلادلفيا فشيء مختلف تماما - دستور مكتوب ونظام مميز واضح للعلاقات بين الهيئات التنفيذية والتشريعية والقضائية. في فيلادلفيا، ناقش الآباء المؤسسون الأفكار المتعلقة بالحكم والحرية - المستمدة من المجتمع القديم والتاريخ الأوروبي - وتنازعوا حول السؤال المتعلق بكيفية منع الاستبداد، استبداد الأهواء على وجه الخصوص، وجماهير العامة على وجه العموم. ثم خرجوا بجواب جديد، وكان الجواب عفيفا ونقيا ومثاليا. هذا التعصب الأرثوذكسي هو القاعدة المؤسسة لما دعاه الكاتب والصحفي دانييل لازار بـ"الدين المدني" الأمريكي. وفي هذه الحالة، اعتبر لازار نفسه مهرطقا نظرا لأنه قدم الحجة البرهانية على أن:

المجتمع لم يعرف أبدا مثل حالة التشظي هذه، والسياسة لم تكن أبدا على هذا القدر من ضيق الأفق وقصر

النظر، في حين أن الكهنوت الدستوري المتوسع (القضاة، الأساتذة البارزون للقانون الدستوري، كتاب الأعمدة الصحفية، وغيرهم) لم يكن أبدا بمثل هذه الدوغمائية. وحتى حين يحاول الليبراليون والمحافظون خنق بعضهم بعضا حتى الموت، فإنهم لم يكونوا أبدا أكثر اتحادا في ولائهم للدين العلماني الذي افترض أنه يعزز لحمة المجتمع بينما هو في الحقيقة يمزقه إربا إربا[24].

الإيمان بالدستور، كما يقول لازار، هو شكل من أشكال التهور الطائش: "فهو يعني اعتماد المرء على فكر الآخرين بدلا من فكره". وليس الدستور، الذي هو أبعد ما يكون عن تجسيد الحكمة السرمدية، سوى جواب مقيد بإسار سياقه الزماني عن مشكلات القرن التاسع عشر. وبما أنه اعتبر الخلاصة المقطرة الصافية لأفكار أوروبا، التي أصبحت ثابتة لا تقبل التغيير في واقع الأمر، فقد بلغ حد "ديكتاتورية مريعة يمارسها الماضي على الحاضر":

الأمريكيون أسرى في الواقع لواحد من أشد أنظمة تقييد التاريخ دهاء ومكرا وقوة، نظام يستحيل فيه شتم الرئيس، والتعرض بالكلمات البذيئة للكونغرس، وكل شيء آخر فيما عدا استعراض جسمك العاري في

برودواي، ومع ذلك فمن المحال عمليا تغيير التركيبة السياسية بطريقة جوهرية. الأمريكيون يعيشون في ظل نظام لا يكتفي بتقييد الحكومة، بل يقيد الديمقراطية أيضا، ولهذا السبب أصبحت السياسة مؤخرا على هذا القدر من الكبت والتدمير[25].

إذا كان الدستور نتاجا لسياقه الزمني، فهو أيضا نتاج تجربة أولئك الذين ناقشوه وأطروه. وإن شملت تلك التجربة حاجة براغماتية للاهتمام بمجتمعات سكان أمريكا الأصليين، فلمَ يكون تأثير الايركواي محلا لهذا القدر من الخلاف والنزاع. لقد كان ظرف وتفاعلات المستعمرات الأمريكية أكثر تعقيدا مما سيسمح به موضوع "اختفاء الهنود الحمر". فكيف يمكن ترسيخ الحقائق حول تفاعل أوائل المستوطنين الأمريكيين ومجتمعات السكان الأصليين ثم الاحتفاظ برفض غاضب يمتنع عن الانخراط في المعنى الدلالي لهذه الحقائق. بات بوكانان، السياسي اليميني ومرشح الرئاسة عام 2000، اعتبر الفكرة "حماقة بالغة"[26]. أما روش ليمباو، الذي يجسد اليمين في وسائل الإعلام الشعبية، فيظن بأنها "أسوأ من مذهب تعديل التاريخ. فهي أكثر من مجرد تشويه للحقائق. إنها إلغاء الحقائق"[27]. في حين اعتبرها جوريست روبرت بورك، عملا ذا

دوافع سياسية يرتكبه قتلة أكثر قواعد ومبادئ الحضارة الغربية مدعاة للاحترام والإجلال، وذلك في كتابه "التعثر الأخرق باتجاه عمورية: الليبرالية الحديثة والانحطاط الأمريكي".

يقف خلف الإدانات العنيفة التي أطلقها المدافعون عن القواعد والمبادئ الغربية اتجاه يتكئ على المعرفة الأكاديمية الراسخة، التي ترفع شعارا يقول "لا يمكن لعالم مشهور" أن يقبل بالحقائق المتعلقة بالايركواي. في كتابه "مجادلة الديمقراطية: ميراث الحرية لدى الأمريكيين الأصليين"(1998)، يقدم بروس يوهانسون، النصير المؤيد لفكرة تأثير الايركواي، تاريخا واضحا ومتوازنا عن الجدل الخلافي. أما الموضوع المتكرر فهو الموقف المتغطرس للأكاديميين والعلماء "المشهورين"، الذين يعتبرون أنفسهم حراس بوابة المعرفة المتعلقة بسكان أمريكا الأصليين. ويصف يوهانسون حالة خاصة عن متلازمة شائعة ومألوفة. فقد استولت المعرفة الأكاديمية الغربية على تاريخ المجتمعات الأخرى بشكل كلي، حيث اعتبرتها جميعا - بغض النظر عما إذا كانت مجتمعات سكان أمريكا الأصليين، أو المسلمين، أو الهندوس، أو الأفارقة - موجودة في عالم من التراث الجامد والثابت والماضوي. إذ إن "التراث" تركيب بنيوي خلقه ما

دعاه يوهانسون بـ"التشكيل الأوروبي" - أي تفسير واقع المجتمعات الأخرى من الموشور المشوه للمفاهيم الأوروبية. والأهم من كل ذلك أن الشعوب الأخرى وطرائقها التقليدية موجودة ضمن علاقة تراتبية دونية مع الحضارة الغربية، التقدمية والمتطورة والمتقدمة.

قضية تأثير الايركواي لا تدور فقط حول المصدر الذي نهل منه الآباء المؤسسون أفكارهم. بل تتعلق باحتمالات التنوع. بسلطة الحضارة اللاغربية، أو بالأحرى افتقادها لسلطة تمثيل نفسها، وأفكارها، وقيمها، وتاريخها. القضية تتصل باستحالة وجود حوار عادل يحظى بالاحترام ويخترق حدود الثقافات. فإذا أنتج هذا الجدل حالة من التعصب والغضب داخل أمريكا، فكيف يمكن لبقية العالم أن يتأمل بالدخول في حوار هادئ ومسالم ويحظى بالاحترام مع أمريكا؟

يختتم بروس يوهانسون كتابه بفكرة أن "الثقافة الأوروبية ليست مهددة نتيجة وجود الثقافات الأخرى. وفي الحقيقة، فإن الخطر قد تدفق دوما من الاتجاه المعاكس". لكن تفحص دوافع ومشاعر وأفكار الذات والمساءلة النقدية يعنيان القبول بدرس صعب:

بالنسبة للمفكرين والأكاديميين الأوروبيين، قد يبدو أن إعادة إطار المرجعية الغربية إلى حجمه الطبيعي، باعتباره

مجرد واحدة من بين العديد من وجهات النظر، يؤدي إلى إضعاف مكانته، لكن ذلك مجرد هلوسة بصرية. وسوف يفقد تأثيره. الحقيقة أن أوروبا لم تكن أبدا بحجم ظلها الذي جعلها تبدو على هذا القدر من العظمة [28].

الحجة التي تثبت تأثير الايركواي تتحدى الفهم التقليدي لسكان أمريكا الأصليين، ومجتمعهم وتاريخهم. كما تتحدى السلطة المرجعية للمعرفة الأكاديمية الغربية. إضافة إلى الرؤية الأسطورية المتعلقة بأسئلة مثل من أين أتت أمريكا وماذا تعني. تتحدى نخبوية الحضارة الغربية وإقصاءها لـ"الآخر" وتفوقها التراتبي. فالاعتراف بأن الدستور الأمريكي قد تأثر بأفكار سكان أمريكا الأصليين عن الديمقراطية يعني إطلاق شبح أمريكا الهجينة. وإجبار الولايات المتحدة على مواجهة آخر معاقل الأحكام المسبقة المتحيزة: احتمال اختلاط الأجناس الفكري بكل ما يسببه من قلق وإزعاج. هجينية مبادئها وقواعدها السلوكية والأخلاقية التي تعرف وتحدد كيانها. هذه المشكلة الأخيرة، بكل تبعاتها وعواقبها ومضامينها بالنسبة لهوية وتعريف ما هو أمريكي، هي التي تتحرك تحت سطح جدل التعددية الثقافية. أمريكا أمة من المهاجرين، من مختلف الأعراق والأجناس والمشارب. لكن كل العناصر المكونة

لفكرة أمريكا هي أوروبية حصرا، متحدرة من نسل الحضارة الغربية التي تعتبر متفوقة على كل ما عداها، وذلك بالرغم مما يسيطر على أمريكا حاليا من ارتياب وجهل بأوروبا. هذه النقطة أوجزها تأثير تيار المحافظين الجدد على المؤرخ الليبرالي ارثر شلسنجر (الابن)، وذلك في كرّاسه الجدالي حول مآزق وشراك التعددية الثقافية:

> مهما كانت الجرائم التي ارتكبتها أوروبا، فإن تلك القارة هي أيضا المصدر - المنهل الفريد - للأفكار التحريرية للحرية الفردية، والديمقراطية السياسية، والمساواة أمام القانون، وحرية العبادة، وحقوق الإنسان، والحرية الثقافية التي تكون أثمن ميراث لدينا والتي تطمح إليها معظم شعوب العالم اليوم. هذه أفكار أوروبية، وليست آسيوية، ولا إفريقية، ولا شرق أوسطية، إلا إذا كانت بالتبني[29].

الخيار الوحيد الذي يقدمه هذا المنطق لبقية شعوب العالم هو الإذعان، والخضوع، والاستمرار في تلقي الدروس. إنه جهل واسع النطاق يتزيا بلبوس المعرفة. إن الإنكار الصريح لاحتمال أن تأتي أية أفكار عن الحرية والعدالة وغيرهما من الفضائل من الشعوب اللاغربية يجعل الحوار مع الثقافات الأخرى أمرا عديم

القيمة والأهمية. ومما لا شك فيه أن هذه الجهالة المتغطرسة مؤذية وخطيرة. فهي تقدم عالما من طبقتين، وتؤجج مشاعر الكراهية العالمية لأمريكا. هناك، في العالم، الذي قذف به في حلكة البربرية الدائمة، يتخلق ويتعاظم التأييد الشعبي للجماعات المتطرفة التي يتمثل برنامجها الوحيد في المقاومة العنيفة والعدائية للدولة المهيمنة المفرطة في قوتها. ومن أجل تفادي صراع الحضارات، يتوجب على الولايات المتحدة قبول حقيقة أن لكافة الحضارات نفس الحق بالوجود، ونفس الحق بحرية التعبير عن الذات، ونفس الحق بحرية تنظيم مجتمعها على هدي رؤيتها الأخلاقية الخاصة بها. علاوة على كل ذلك، فإن لكافة سكان العالم كامل الحق والحرية بالاختلاف مع أمريكا.

الفصل السادس

عبء البطل الأمريكي

في مواجهة الخوف والخطر، رصت أمريكا الصفوف، وادثرت برمزيتها الوطنية وأساطيرها المستدامة. لقد حطمت أحداث الحادي عشر من سبتمبر صورة أمريكا السعيدة، الآمنة، المطمئنة، ألغت الاستثناء الخاص الذي يعفي ويقي ترابها الوطني من بلوى الإرهاب الذي ينكب البلاد الأخرى. الواقع الراهن - والتهديد المستقبلي - دفع أمريكا للبحث عن أبطال. وفي إطار تقاليد الرواية الأسطورية الأمريكية، يعيد هذا البحث إلى الأذهان تلك اللحظة التي يقوم فيها بطل فيلم رعاة البقر الكلاسيكي "شين" (Shane) (1953)، الذي سينشر العدالة، بركوب حصانه ونزول الوادي الأخضر الرحيب المطوق بجلال "الجبال الأرجوانية المهيبة" - التعبير السينمائي عن الأغنية الوطنية "أمريكا الجميلة".

إذا أردنا اكتشاف السبب الذي يجعل العالم يظهر مثل هذه العداوة نحو أمريكا، خصوصا في أوروبا الغربية، يمكننا رؤية جزء من الجواب في قراءات المشاهدين الأوروبيين المختلفة لهذا الفيلم النموذجي الأصيل عن رعاة البقر. فما يعتبره

الأمريكان بمثابة رؤية رمزية لفضائل بسيطة وفر الحماية لها فارس تائه في البرية، يراه العالم مليئا بالغموض والالتباس في قلب أمريكا: يراه عنفا. الخطاب السياسي الأمريكي المنمق الطنان قد يدور بعجلاته حول الأفكار المبتذلة القديمة المتعلقة بهوية الذات الوطنية، مع اعتراف واضح وموقن بالحاجة إلى الحفاظ على الذات والأمن. لكن فيما وراء الدخان ولهب النار، خارج تلك الدائرة، يصبح المعنى واضحا وبسيطا: على الآخرين أن يموتوا. وحين يذهب شين على صهوة جواده إلى مساكن المستوطنين المذعورين المرتاعين، يحمل في ركابه أساليب وذهنية ومسلك العنف. في نهاية المطاف سوف ينطق بالاستجابة المناسبة للخطر، ويقود الدفاع ضد هجوم الشر الضاري، وبفوهة المسدس سيأتي بالأمن الذي يجعل الأرض آمنة مطمئنة ومهيأة لفضائل التقدم الاجتماعي وتحقيق المهمة الوطنية. لسوف يفعل ذلك بوحشية وقسوة لا تعرفان الرحمة، ليقتل دون هوادة أولئك الذين يعترضون المسار المستقبلي لأمريكا.

جرى الاستشهاد بالفيلم في أحيان كثيرة بوصفه أسطورة "بلغت سن الرشد". لكن ذلك أقل علاقة بالشخصية المحورية لجو الصغير، الصبي الذي كان أول من رأى شين يقترب من المستوطنة، ليصبح بسرعة تابعه المتحمس، مقارنة بفكرة

أمريكا ذاتها. يتناول الفيلم المرحلة الانتقالية من حقبة مربي الماشية، الذين حلوا محل صيادي الحيوانات والحطابين، ليخلوا السبيل بدورهم للفضائل المتحضرة للاستيطان والاستقرار. ولذلك، فإن "شين" أسطورة تدور حول حقوق الملكية، واحتكار المطالب العادلة بحق الاستخدام القويم للأرض. مواضيعه توجزها حجج مربي الماشية، ريكر: الدم هو الرابطة التي تشرعن الاستيلاء على الأرض. وهو يعني إراقة الدم من خلال العنف. وما رسخه "شين" في نهاية المطاف هو أن العنف عمل تحريري تخليصي، لتحقيق العدالة التي تضمن للحضارة أمنها وتقدمها. الفيلم عبارة عن قصيدة رومانسية تأملية مترعة بالحنين إلى الماضي وكيف تشكلت فيه الأمة، أمريكا.

تمثل أفلام رعاة البقر حيزا أسطوريا يتم فيه استكشاف تاريخ وفكرة ومواضيع أمريكا؛ ولذلك تصبح مكانا مناسبا لنا لتقصي وتفحص الفكرة الملتبسة للهوية الذاتية الأمريكية، وكيف أصاب تشكل هذه الهوية أوروبا بالذعر والرعب. المنظّر السينمائي الأمريكي ريتشارد سلوتكين، أستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة ويسليان، قام بتفحص الطريقة التي تم بها استغلال أدب رعاة البقر (الكاوبوي) في مراحل متلاحقة من التاريخ الأمريكي، كدلالة مجازية قوية على الاتصال السياسي

وسياسة الأمة. تطورت هذه الدلالة المجازية عبر ثلاث مراحل، يتفحصها سلوتكين بتفصيل مسهب، وانعكست كل منها بوضوح في عناوين كتبه: "الانبعاث من خلال العنف: أسطورة الحدود الأمريكية النائية 1600 ـ1860"؛ "البيئة المهلكة: أسطورة الحدود النائية في عصر التصنيع 1800 ـ1890"؛ "الأمة المقاتلة بالبندقية: أسطورة الحدود النائية في أمريكا القرن العشرين". يقدم سلوتكين الحجة على أن العنف كان في كل مرحلة عنصرا محوريا لتخصيص وشرعنة وتعريف هوية أمريكا.

القوة الانفعالية العاطفية للمواضيع الأسطورية في الفيلم هي التي تعلّم الفوارق المميزة بين صورة أمريكا الذاتية وتقاليد رواياتها من ناحية ووجهة نظر العالم من ناحية أخرى. ففي تاريخ أمريكا، أوجد الدولة الأسطوري الخيالي، والواقعي الحقيقي، والعنف الفردي والجماعي. ونظرا لعدم قدرة الدولة على توفير العدالة والأمن، وتجسيد أداة فاعلة للقانون، فقد استمرت في شرعنة اللجوء إلى العنف الفردي والجماعي لكي يضمن السكان حفظ الذات؛ وبهذه الطريقة أمكنهم جعل الأمة/الدولة حقيقة واقعة. " الواجب/ الحق بالتوسع" لنشر رسالة أمريكا وأداء مهمتها طبق بالعنف. ولا يقتصر أدب رعاة البقر (روايات، أفلام سينمائية، مسلسلات تلفزيونية، برامج إذاعية)،

النوع التعبيري الأمريكي المحدد، على مجرد كونه أنشودة ابتهالية تترنم بالعنف. بل هو وجهة نظر تعتمد على الضرورة الجوهرية، والمحتومة، والمستمرة للعنف من أجل الحفاظ على الحضارة. روايات وأفلام ومسلسلات رعاة البقر تتبنى الأسطورة التي تقول إن الشر شموس عنيد ولا مفر من إزالته واستئصاله، وإن العدالة تعتمد في نهاية المطاف على الاستعداد/ والرغبة بسفك الدماء، وإن الحرية تكمن في الحق بالرد المسلح، وإن اللجوء إلى العنف أمر مشروع، والسبيل الوحيد المضمون لحل الصراع. لقد عرف العالم كله وخبر مذهب رعاة البقر وتعبيراته الأدبية والفنية، وكمنت في شهرته وشعبيته ردة فعل مختلفة: الخوف.

قد يكون من أصعب الأشياء على الأمريكيين تقدير وإدراك كيف تثير أساطيرهم الوطنية الثملة بالانتصارات مشاعر الشك والخوف لدى العالم، وكيف تؤجج حكاياتهم المميزة قلقه، وتوفر الأساس المنطقي لارتيابه بأمريكا. إنه الخوف من استمرار وجهة النظر السياسية الأمريكية في الانتشار/ والتشكل السهل السريع ضمن إطار أسطورة قوى العنف الإنقاذية والتجديدية والتحريرية، بدون إخضاعها للنقد العقلاني السليم. أما السؤال الذي يكمن في قلب هذه الرؤية الأسطورية

فهو: هل تتبنى أمريكا وتحترم وتبجل معيارا مزدوجا فيما يتعلق بالمنتصر والمهزوم، والقاتل والضحية؟ في عقيدة رعاة البقر، لا يستحضر التأملات ويثير المشاعر سوى البطل - ما يدافع عنه، ويبرره، ويحميه، وينقذه - في حين لا يندب أحد المهزومين والمغلوبين والضحايا؛ فهؤلاء لا يحتاجون للرثاء والأسف، وباعتبارهم عناصر للشر لا يرتفعون - بالتعريف - إلى مستوى قيمة البشر. ومع قيام الثقافة الشعبية الأمريكية على نحو متزايد باطراد بتطويق وإحاطة كل القصص، وكافة التواريخ، بإطار سلطتها المرجعية وسلطة مبتكريها، فإنها تعيد حفر وطبع أهواءها وانفعالاتها الأسطورية، ومبادئها الأخلاقية، على أفكار العالم التي غدت أكثر تعقيدا وتحديا. وبالنسبة للعالم الثالث، يبدو المعنى الضمني في الرواية الأمريكية جليا للعيان: أنتم هنود حمر، أجانب، تعصبون رؤوسكم وتركبون الجمال. لكن ما أخفق غالبا في التأثير في الوعي الأمريكي هو أن أوروبا - الغرب فيما وراء حدود أمريكا - تشعر أيضا بقلق عميق، وخوف شديد، والتباس محير، نتيجة الدلالات والمواضيع المتضمنة في الأسطورة الأمريكية.

غاص تاريخ أوروبا أيضا في مستنقع الدم (داخليا)، وتخضب تراثها الاستعماري بدماء الشعوب المستعمرة (خارجيا). لكن

التاريخ الأوروبي هو قصة شعوب وأمم لم تغادر قارتها وتبذل جهدها من أجل صياغة رسالة جديدة، وبيان بالأهداف والقيم، ومهمة واجبة تؤديها. فقد تشكل تاريخها من خلال الصراع الداخلي في سبيل حل واستيعاب ودمج قصة المغلوبين ضمن إطار الأمة ككل، وهذا الكل من نتاج نوع من التغيير يختلف عن ذلك الذي تمثله أساطير أمريكا. وبغض النظر عما إذا كانت القصة قصة الخاسرين في التاريخ الذين استهدف كفاحهم مزيدا من الحرية المدنية، ومشاركة أكثر عدالة ومساواة، أو كانت عبارة عن ميراث الحرب بوصفها تجربة جمعية للسكان برمتهم، هنا على ترابهم الوطني و"هناك" أيضا، فإن العنف، والعدالة، والمحافظة على الذات، والأمن، أوجدت جميعا مخزونا مختلفا من الاستجابات لدى الأوروبيين. وبغض النظر عما إذا كنا نناقش تقدم وانتشار العولمة أو بناء تحالف عالمي لـ"الحرب على الإرهاب"، فإن من الخطأ تجاهل ما يكمن تحت سطح التعاون الأوروبي مع القوة الأمريكية من اختلاف وتباين في المواقف، والأفكار، والمعاني. إن الخوف من العواقب العملية، إضافة إلى الاعتراضات على قواعد وموجبات ممارسة القوة الأمريكية، يوفر فهما نقديا منطقيا للأسباب التي تجعل الأوروبيين يكرهون أمريكا.

لكن رسم صورة دقيقة للمواقف الأوروبية والأمريكية تجاه العنف، تتطلب إلقاء نظرة أقرب على محورية أسطورة رعاة البقر في الوعي الأمريكي. أمريكا تبدأ فعلا من روايات رعاة البقر، من حكايا الحدود النائية الخرافية، حيث يمكن ترويض وتعمير البرية المقفرة عبر نقل أسباب الحضارة إليها. وتلك كانت حكايا خرافية ابتكرت عمدا وكتبت بغرض دعائي وأصبحت مادة الأسطورة وقوامها وجوهرها. كل الأخبار التي وصلت عن الأمريكيتين، بدءا من تقارير كولمبوس وأمريكو فيسبوتشي، إلى الكابتن جون سميث ومن بعده، اشتركت جميعا في هدف جعل العالم الجديد مكانا متاحا ومغريا للمستثمرين والمستوطنين الطامحين بالقدوم إلى أمريكا. إن فكرة أمريكا والمواضيع التي ستصبح مبتذلة في ثقافة "الكاوبوي"، جرى بيعها ونشرها عبر الأدب الشعبي لحث وتحفيز وضمان إنشاء مستعمرات المستوطنين. وكان أدب الرحلات، الذي ضم جهود ومساعي ما دعاهم بيرسي ادامز بـ"الرحالة الكذابين"، بمآثرهم الجسورة المألوفة، تراثا مزدهرا ألهم بدايات الاستيطان في أمريكا، ثم تطور ليخدم تكوين الأمة[1].

من اليسير تقدير مدى السرعة والسهولة اللتين تم بهما تكييف وتهيئة أسطورة الملك آرثر وفرسان الدائرة المستديرة في التراث الأوروبي لصنع التراث السردي في رواية أمريكا. كانت أساطير الملك آرثر وفرسان الدائرة المستديرة تمثل أشهر وأشمل تراث تقليدي في الأدب المحلي الشعبي، حيث يمكن العثور عليها في كل اللغات الأوروبية. وفي الحقيقة، وفرت المناخ الشعبي الملائم لتبرير الحملات الصليبية ضد "الكفار" المسلمين. لأن جوهر مواضيع الكفاح الجهادي والبحث عن الضالة المنشودة (الكأس المقدسة) في أساطير الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة هو الصراع بين الخير والشر، والمسعى وراء النقاء والطهر، والدفاع عن الحضارة بقوة السلاح، وأبلسة الأعداء. يقدم ريتشارد سلوتكين الحجة على وجود مصدر آخر لأصول ثقافة "رعاة البقر"، يتمثل في إعادة ترتيب تقاليد الأدب المتزمت التطهري (البيوريتاني) بأسلوب حاذق وماكر. فالمواضيع الرئيسة في هذا الأدب، الذي انشغل بالصراع داخل وعي المتطهرين (البيوريتان)، شملت الشعور بعدم الأمان، والضعف البشري، والإحساس بالعزلة، باعتبارها قوى دافعة تستحث على الاتكال على الرب، والبحث عن ضمانة إلهية لأفعال البشر، واليقين بأداء مهمة الله في إعمار الأرض وبناء الحياة المتحضرة للمجتمع. ويحاول سلوتكين إثبات أن روايات الغرب الأمريكي ورعاة

البقر عملت على تجسيد وتبرير هذه المواضيع ووجدت الحل لها في مشروع الاستيلاء على الأرض وترويض البرية. راعي البقر/البطل يجسد كل فضائل ويقينيات هذا المشروع، جنبا إلى جنب كافة حالات الغموض والإبهام والالتباس والتسامي عن الشعور بالذنب المتضمن فيها. كما يحل غموض والتباسات العنف، الذي يمثل جزءا جوهريا من الرد البطولي على تحدي البراري الموحشة.

لا توجد رواية عن الغرب الأمريكي الضاري بدون بطل، وهو على الدوام رجل يحمل مسدسا. في رواية جيمس فنيمور كوبر (1789. 1851) "آخر الموهيكان" (1826)، التي اعتبرت أصل التقاليد الشعبية لأدب (وفن) رعاة البقر برمته، يتم استدعاء البطل هوكي، الرجل الذي يحمل مسدسا ضخما، من أجل استخدام معرفته بالأرض، ومهارات السكان المحليين التي تعلمها، وبراعته في استعمال المسدس، لتعبيد الطريق أمام (وضمان الحفاظ على) المجتمع الأبيض. كان بطل كوبر متخما بالغموض، مثلما كان رأيه هو حول تقدم حركة مستوطنات البيض. لكن جرى تبسيط هذه التعقيدات لتشكل المادة الخام لعدد لا يحصى من الروايات الرخيصة التي ظهرت في ستينيات القرن التاسع عشر وانشغلت بأسطرة التخوم النائية للغرب

الضاري، حتى وإن دارت أحداثها في حوض المسيسبي، ثم استعارتها السينما، والإذاعة، والتلفزيون وكررتها إلى ما لا نهاية اعتمادا على التقاليد التي أرساها كوبر، الأمر الذي جعل "رعاة البقر" الأسطورة الرامزة للهوية الذاتية الأمريكية.

حتى شين يدين بفضل عظيم إلى بطل كوبر. فحين يمتطي جواده وينزل إلى الوادي، كان يرتدي جلد الغزال ويتمنطق بمسدس (الرمزين الدالين على اغتصاب الأرض). وعلى شاكلة هوكي قبله، حاول التكيف مع الحياة المستقرة التي تخضع البرية بالعمل الشاق، إلى أن حانت لحظة الذروة عندما توجب عليه مرة أخرى ارتداء جلد الغزال وحمل المسدس ليجد حلا للصراع بين الحضارة وأعدائها من خلال إطلاق الرصاص على الأشرار. ومثل هوكي أيضا، رحل على جواده تاركا وراءه مجتمعا محليا امتلك الشرعية، والقدرة على التجدد، والحفاظ على الذات، والتمتع بالأمان من خلال العنف. إن مسعى المستوطنين للاستقرار يتطهر من خلال العنف الذي يمارسه البطل، كما يحل مشكلة شعورهم بعدم الأمان والضعف المتأصلة في صراعهم من أجل ترويض الأرض. أما القتلى فلا يمكن الحزن عليهم لأنهم جسدوا كل ما هو مناقض للخير، والنقاء، والطهر، الصفات التي قدر لها أن تنتصر بقيمتها

الجوهرية الأصلية. باختصار، لدينا هنا كل العناصر الجوهرية لواجب/ وحق أمريكا بالتوسع. وفي الحقيقة، فإن فيلم المخرج جورج ستيفنز صنع بوعي ذاتي ليكون بمثابة أسطورة رمزية.

ومنذ كوبر، أصبح أدب "رعاة البقر" عنصرا محوريا في نمو الثقافة الشعبية الأمريكية، وعمادا أساسيا لأشكال الترفيه والتسلية الشعبية التي أنتجتها، ونوعا أدبيا / فنيا وفر الموقع المكاني لتفحص دوافع ومشاعر وأفكار الذات في تاريخ أمريكا. كما هيمن على نهوض السينما باعتبارها واسطة لتمثل وصنع هوية أمريكية وطنية، لكن ليس من المفاجئ أن يجمد أدب "الكاوبوي" الإدراك الذاتي التاريخي لأمريكا في قالب مفارقة تاريخية تشوه الواقع الزماني/المكاني. فقد وسع وضخم وشفّر فهما جمعيا لمعنى روح ومزاج الأمة عبر تجسده في تقاليد شكله الروائي.

ليس ثمة مهرب من أدب "رعاة البقر"، وبالتالي ليس هناك من سبيل لتفادي المبادئ الأخلاقية التي تأسس عليها. وشكلت وعي الرأي العام الأمريكي. وكما عبر عن ذلك جون واين في عبارته الشهيرة حين لعب دور رينغو كيد في فيلم "مركبة السفر" (Stagecoach): "هنالك بعض الأشياء، التي لا يمكن

للإنسان أن يدير لها ظهره ببساطة". ما عناه هو حسم النزاعات بواسطة العنف، بواسطة معركة المسدسات التي يشرعن فيها البطل مهمة أمريكا عبر قتل كل من يقف في طريقه، أو طريقها. لقد وصلت أفلام رعاة البقر الملحمية (في السينما والتلفزيون) إلى أوجها في الحقبة التي أسست فيها أمريكا دولة الأمن القومي على مبدأ مناهضة شر الشيوعية ("إمبراطورية الشر" كما أصر على وصفها نجم أفلام رعاة البقر في الأدوار الثانوية)، ثم الرئيس الأربعون للولايات المتحدة، رونالد ريغان)، وبدأت تلعب دور "الشريف/العمدة" في معركة المسدسات العالمية التي استلهمت وحيها من "الكاوبوي". بكلمات أخرى، أنها الحقبة التي قامت فيها أمريكا بعولمة فلسفة/ مفهوم رعاة البقر لتجسد وجهة نظرها في الشؤون الدولية؛ حين ظلت تجد تهديدات. لا تستطيع أن تدير ظهرها لها - في كل الحروب المحلية والصراعات عند التخوم القصية النائية للعالم الثالث؛ وحين مارست في السياسة الخارجية عقيدة مؤسسة على مبدأ أن الرد العنيف هو الوسيلة الأولى والوحيدة والموثوقة لحل الصراعات.

هذه السياسة الخارجية، المعتمدة على فلسفة "الكاوبوي" كدراما ملحمية وبطولية وأسطورية، كانت أيضا تحقيقا لمفهوم أمريكا الملتبس عن "حقها / واجبها في التوسع". فكرة

"الواجب / الحق في التوسع" أعلنت لأول مرة من قبل المجادل العنيف جون ل. اوسوليفان في مجلته السياسية "ديموكراتيك ريفيو" (Democratic Review). عبر اوسوليفان عن الفكرة عام 1845 وجرى الاستشهاد بها مرارا وتكرارا، فهو يعتقد أن للأمريكيين:

الحق بالتوسع في/ وامتلاك كل القارة التي منحتنا إياها العناية الإلهية من أجل تطوير التجربة العظيمة للحرية والحكم الذاتي الاتحادي الذي أنيط بنا. إنه مثل حق الشجرة في حيز الفضاء والأرض المناسب لتوسيع مبدئها وقدرها المحتوم بالنمو(2).

توسع أمريكا القاري هذا كان مجرد إرهاص تمهيدي للمعنى الكامل لواجب/ حق أمريكا كما اختطه القدر وعبر عنه اوسوليفان في عام 1839، إحساس مسبق بالهيمنة العالمية اللاحقة لأمريكا باعتبارها المالك الوحيد للحقيقة وللقيم الإنسانية الشمولية:

ولادة دولتنا الوطنية شكلت بداية لتاريخ جديد، بداية تشكل وتقدم نظام سياسي لم يختبر قبلا، يفصلنا عن الماضي ويصلنا بالمستقبل فقط، وطالما يتعلق الأمر بالتطور الكلي للحقوق الطبيعية للإنسان، في الحياة الأخلاقية،

والسياسية، والوطنية، يمكننا الافتراض بكل ثقة أن بلادنا مقدر عليها أن تكون أعظم أمة في المستقبل.. نحن أمة التقدم الإنساني، ومن يقدر على وضع حدود لمسيرتنا إلى الأمام؟ العناية الإلهية إلى جانبنا، ولا يمكن لقوة دنيوية أن تعرقل هذه المسيرة.. لقد اختيرت أمريكا لحمل هذه الرسالة المباركة إلى أمم العالم، المنغلقة أمام نور الحقيقة الواهب للحياة؛ ونموذجها الرفيع سوف يدك عروش الملوك المستبدين، وطغيان الزعماء الدينيين، وديكتاتورية حكم القلة، ويحمل الأنباء السعيدة عن السلام والمودة والرضا إلى كل الذين يتحملون الآن حياة لا تحسدهم عليها البهائم. إذن، من يقدر على التشكيك بحقيقة أن بلادنا مقدر عليها أن تكون أعظم أمة في المستقبل؟[3]

استوعب الحيز الأسطوري لأدب وفلسفة "رعاة البقر" بكل ارتياح العنصرين المتضمنين في أفكار اوسولفيان الشعبية عن الحق/ الواجب المحتوم بالقضاء والقدر. الأسطورة تعتمد على التجربة التاريخية للثقافة ومصادرها من الإحساس، والخوف، والطموح؛ وكما برهن ريتشارد سلوتكين، يمكن "إظهارها وهي تعمل في تلك الثقافة باعتبارها 'وصفة' للفعل التاريخي

وحكم القيمة"[4]. فأدب "رعاة البقر" متخم بثقة عظيمة بالمستقبل الذي يصنع على التخوم القصية للغرب الأمريكي، الموقع المكاني الكلاسيكي لحكم القيمة. ومع ذلك، يقدم المستقبل وكأنه يصنع في مراكز حدودية نائية، ومعزولة، ومعرضة للخطر، وغير آمنة، وتحت التهديد الداهم المستمر، تنهكها وتروعها غارات عملاء الشر المتنكرين بأقنعة عديدة، لكن يمكن تميزهم جميعا بوصفهم أعداء للحضارة الحقيقية الصحيحة. العلاقة الملتبسة بين الشعور بعدم الأمان، والحاجة للحفاظ على الذات، والواجبات الأخلاقية الضرورية لعظمة المستقبل، تحل غموضها بنفس 'وصفة' الفعل التاريخي في كافة الأشكال التعبيرية لفلسفة "رعاة البقر": البطل المتمنطق بالمسدس، الرجل الذي يفوق الجميع. بحكم الضرورة الأخلاقية - في براعة سحب مسدسه واستئصال المشكلة.

التقاليد المتبعة في أفلام "الكاوبوي" (الويسترن) لا تبقى محصورة في الحدود الداخلية لأمريكا. فقد رسخت فكرة حرية التجوال وغرس الجذور أينما كان؛ وفي أي مكان غرست فيه، تصبح تلك الأرض أمريكا. وعلى شاكلة الحق / الواجب المحتوم بالقضاء والقدر الذي وصفه اوسوليفان، فإن قيم فلسفة "الكاوبوي" هذه تتوسع لتغدو "مَدْوَنة" قوانين ومبادئ عالمية /

شمولية يمكن أن تقحم معانيها / وتستخدم لبناء كل القصص. وبالتالي فإن الصراع بين الخير والشر في كل مكان آخر يمكن نقله بسهولة إلى أدب "رعاة البقر"؛ كل قصص العالم يمكن إعادة روايتها عبر أدب "رعاة البقر". وبذلك أصبح من الشائع لهوليود ترجمة القصص "الشرقية" التي جرت أحداثها في الشرق إلى قصص "الكاوبوي" التي تجري في الغرب الضاري الأمريكي. على سبيل المثال، أنتجت هوليود عام 1935 فيلما بعنوان: "حياة حملة الرماح في البنغال"، على شكل دراما فروسية تجري أحداثها على التخوم الشمالية الغربية من الهند البريطانية، حيث يتجسد عدو الحضارة ببدوي أفغاني خسيس يدعى محمد خان. لا يسهل فقط اعتبار محمد خان "هنديا من الهنود الحمر"، بل إن الفيلم أعيد إنتاجه عام 1939 باسم "جيرونيمو" لتدور أحداثه في الغرب الأمريكي. الرابطة المناسبة بين منطقتي الحدود جسدها مشهد تعذيب ضابط من الخيالة أسره رجال القبائل المحلية، وهو موضوع شكل على الدوام أسلوبا معياريا في أدب "الكاوبوي".

لم تبتكر هوليود هذه الفكرة المتعلقة بتبادلية القيم على حدود الحضارة. فقد أعلنها الرئيس (السادس والعشرون) للولايات المتحدة، تيودور روزفلت (1901 ـ 1909)، الذي كان في بداية حياته المهنية كاتبا وأحد الذين أضفوا الصفات الأسطورية على الغرب الأمريكي. نشر روزفلت مؤلفا تاريخيا

من أربعة أجزاء بعنوان: "تكوين الغرب" (1894 ـ 1896)، إضافة إلى العديد من الكتب الأخرى المستمدة من تجربته في تأسيس مزرعة للمواشي في مقاطعة داكوتا عام 1883. كان روزفلت، كسياسي، واحدا من مهندسي الإمبراطورية الأمريكية، وسياسة التوسع، وفكرة "الحق/ الواجب المحتوم" في مناطق المحيط الهادي وباقي العالم. أعلن روزفلت حول الاحتلال الأمريكي للفليبين عام 1898، أن: كل حجة يمكن أن تقدم لصالح الفليبين تنطبق على الأباتشي. كل كلمة تقال عن اغوينالدو* يمكن أن تقال عن "الثور الجالس"**. [فضائل] السلام، والنظام، والرخاء تبعت جميعا توسعنا في أراضي الهنود. وكذلك سوف تتبعنا في الفليبين[5].

ثم أتت ملاحظة روزفلت الشهيرة، في تطابق تام مع ممارسة أدب وفلسفة وذهنية "الكاوبوي"، حول فعالية السياسة الخارجية: "لا يمكن للانتصار في السلام أن يعادل النصر المسلح في الحرب"[6].

---

* اميلو اغوينالدو: زعيم فليبيني قاد ثورة ضد الحكم الإسباني (1896 - 1898)، ثم انتفاضة ضد السلطة الأمريكية في الفليبين (1899 - 1901). (م).

** "الثور الجالس" (1834؟ -1890): زعيم هندي هزم خيالة الجنرال كستر في معركة "ليتل بيغ هورن" عام 1876. (م).

ليس التاريخ الأمريكي، على عدة مستويات، سوى رواية حربية. البواعث والخطاب المنمق الطنان لحرب الولايات المتحدة على الحدود الداخلية (ضد الهنود الحمر مثلا) جرى تصديرها إلى الحدود الخارجية كوسيلة لفهم وتشكيل العالم. ويمكن بسهولة قراءة تقاليد أفلام "الكاوبوي " (الويستون) في كافة أفلام الحركة (action)، بما فيها الأفلام الحربية، وهي نقطة استحثت ديفيد ستيريت، الناقد السينمائي لمجلة "كريستيان سيانس مونتيور" (Christian Science Monitor) على التساؤل:

> هل ساعدت عادة هوليود القديمة المتمثلة في استخلاص القيمة الترفيهية من العنف والخراب، على صياغة وتشكيل ردة فعل أمريكا الفورية على أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وأثرت، ربما، في الأفكار المتعلقة بالطريقة التي يجب على البلاد اتباعها للرد على أعدائها الحقيقيين والذين يعتبرون كذلك؟ الجواب عن السؤال الأول هو على الأرجح: نعم.

يتابع ستريت ليطرح فكرة "أشد إثارة للقلق": "ربما تكون تلك الآراء العامة الشعبية المطالبة بالرد، والثأر، والحرب، قد أتت من عقود من فنون التسلية الجماهيرية والترفيه الشعبي وليس من التأملات الهادئة الرزينة بالتاريخ والفضيلة والأخلاق"(7). ومن أجل

التفكير التأملي المتروي بالتاريخ، كان يتوجب على أمريكا أولا معرفة تاريخ باقي شعوب العالم في إطار يختلف عن رواية تقرأ تبعا للتقاليد، والقواعد والتوصيفات الثقافية، وأحكام القيمة الأمريكية. وفي الحقيقة، وكما رأينا في الفصل الرابع، ظلت صناعة الترفيه الأمريكية طيلة عقود منشغلة وناشطة في إلغاء ومحو وتجاهل بقية العالم بوصفه منطقة لها تاريخ مختلف، لتعيد خلقه بلغة أمريكية مبتذلة. داخل القالب الذي صنعه روزفلت. لأوروبا إحساس مختلف بمعنى التاريخ، وفلسفة اجتماعية مختلفة نتجت عنه. والتقليد الأمريكي السافر المتبع في إعادة كتابة التاريخ هو الذي جرح مشاعر الأوروبيين إلى هذا الحد.

الملحمة البطولية الهوليودية عن الحرب العالمية الثانية "يو 571" (U571) عبارة عن نموذج يمجد تراث اغتصاب التاريخ وطمس حقائقه. الفيلم يتناول واحدا من الأحداث الحاسمة في مجرى الحرب، الاستيلاء على آلة شيفرة ألمانية أعطت في نهاية المطاف معلومات استخبارية حيوية لصالح قضية الحلفاء. لكن في النسخة السينمائية من التاريخ، تحولت قضية الحلفاء إلى مسعى أمريكي بالكامل. في التاريخ الحقيقي، تم الاستيلاء على الغواصة الألمانية وآلة الشيفرة بواسطة الغواصات البريطانية عام 1941، قبل أن تدخل أمريكا الحرب. في حين أصبحت في

التاريخ السينمائي عملية أمريكية بالكامل جرت عام 1942. لقد نقلت الحادثة التاريخية إلى الشاشة وترجمت باعتبارها مأثرة بطولية لما يدعوه ريتشارد سلوتكين بنموذج "الحرب النبيلة"[8]. في الأفلام الحربية هنالك على الدوام معنى دعائي كامن فيها، إضافة إلى كونها أدوات للجدل حول السياسة والأخلاق. وبالنسبة لأمريكا، فجرت أوروبا وخاضت حربين عالميتين تطلبت كل منهما استدعاء أمة مسالمة هانئة ومترددة لحل مشكلات العالم القديم بالقوة التجديدية لمشاركتها المسلحة. لأن القوة العسكرية الأمريكية التي مارست عملها "هناك" كانت ضرورية للحفاظ على العالم وعلى أمنه. انتصرت أمريكا لأن قوتها الاقتصادية، والانتاجية، والعسكرية كانت عاملا حاسما في تغيير مجرى الحرب. هذه النسخة التبسيطية التسطيحية للتاريخ تباعد بين وجهتي النظر الأمريكية والأوروبية، وتوجد قاعدة لبناء استجابات مختلفة لعالم ما بعد الحرب، خصوصا في حقبة الحرب الباردة.

يبدو أن أمريكا تفتقد الإحساس بالمعنى الذي خلفته الحرب العالمية الأولى في الوعي الأوروبي. المذبحة الجماعية لجيوش المجندين على الجبهتين الغربية والشرقية، غيرت بصورة جوهرية المجتمع الأوروبي، وديناميات السياسة، والدين، والفلسفة

الاجتماعية في أوروبا ووجهة نظرها حول الطبقة العسكرية والروح الحربية القتالية. في بريطانيا، عانت الكنيسة من انخفاض حاد في عدد المصلين بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت بداية لتقليد طويل الأجل. وعزي السبب إلى مشاعر التقزز والاشمئزاز الشعبي من الشعار الشوفيني الذي يثير السخرية: "الله معنا"، حيث استخدم لتجنيد وتعبئة وحث ضحايا المدافع الرشاشة على المشاركة في صراع وحشي عبثي لا معنى له. صُور الجندي العادي في التخيلات المجازية لعدد لا يحصى من الشعراء، باعتباره المسيح المصلوب الذي ضحي به على مذبح القومية وخطاياها، وقدم الاستغلال القوماني للدين من قبل كل دولة بوصفه فحشا مهرطقا يدنس المقدسات، ولن تحتل الروح الحربية مرة أخرى موقعا نافذا أو تمتلك سلطة لا تثير الخلاف في الفكر أو الوجدان الأوروبي. وهذا ما جعل العسكرية الفاشية عدوا يجب مواجهته كواجب أخلاقي في الحرب العالمية الثانية.

زودت الحربان العالميتان أوروبا أيضا بفهم شعبي مختلف تماما حول روسيا. عانت روسيا من نفس الصدمة التي سببتها المذبحة والتضحية بالمواطن العادي، مثلها في ذلك مثل الأمم الأوروبية الأخرى. وشعرت الحكومات الأوروبية بخوف شديد من أن تكون ردة فعل شعوبها مشابهة لردة فعل الشعب الروسي.

فقد تعاطفت الطبقات العاملة في أوروبا مع الثورة الروسية دون أن تكون بالضرورة مؤيدة للشيوعية أو البلشفية. إذ كانت الاشتراكية في أوروبا تعني أكثر بكثير من مجرد البلشفية. إضافة إلى أن الحرب العالمية الثانية زودت الأوروبيين بمنظور مختلف عن روسيا. وكان لدى الشعوب الأوروبية، التي عانت بشكل مباشر من التأثير التدميري للحرب الحديثة الشاملة على السكان المدنيين والبنية التحتية، مصادر وفيرة تنهل منها تعاطفها مع تجربة ومعاناة روسيا في الحرب الوطنية الكبرى. ولا ريب أن أوروبا تضمر فهما واضحا لحقيقة أن "انتصارها" في الحرب ضد هتلر يدين بفضل هائل إلى رغبة واستعداد الشعب الروسي للقتال والموت في سبيل القضية المشتركة مع بقية دول أوروبا، وذلك بالإضافة إلى العضلات العسكرية القوية للولايات المتحدة. ومن الأفكار الوجدانية الشائعة في أوروبا أن هذه المساهمة الروسية على الجبهة الشرقية كانت على الأرجح أكثر العوامل حسما في تحديد مجرى الحرب.

في عالم ما بعد الحرب، أصبحت الحرب الباردة الجديدة رمزا عالميا لأمريكا، حيث أسقطت على العالم أسطورة الغرب الأمريكي الضاري الخاصة بها لفهمه. وفي هذه الحرب أيضا، تبدى فرق واضح بين المواقف الشعبية في أمريكا وأوروبا. فقد

كان لأوروبا، انطلاقا من تجربة تاريخية مختلفة تماما، سبب وجيه يدعوها للشك في حكاية شبح قوة روسيا الشيوعية، وعدم التأثر بها. إذ امتلكت فهما غريزيا أكثر تعقيدا لمعنى حقيقة أن ثلث الطاقة الإنتاجية الروسية قد دمرت في الحرب ضد هتلر. وفي حين أن الخطاب السياسي الأمريكي الطنان بنى عمارة الخطر الروسي بالتعابير الشيطانية المألوفة، إلا أن الرأي العام الشعبي الأوروبي كان أقل سذاجة وسرعة في تصديق الأمرين معا: أبلسة روسيا، والزعم بأنها تمتلك القدرة الاقتصادية على اللحاق بأمريكا - ناهيك عن التفوق عليها. وأثبتت الأيام صوابية هذا الرأي. فقد جرى الترحيب بنهاية الحرب الباردة باعتبارها انتصارا للرد المسلح، الذروة التي علّمت حقبة "نهاية التاريخ" عبر الانتصار العالمي للروح المميزة لأمريكا. أما في أوروبا، فقد كان الابتهاج بالنصر راجع إلى الأمل الحماسي بأن عداوة الحرب الباردة التي ضيعت نصف قرن من الزمان سدى، وأفرزت منطق "التدمير المؤكد المتبادل" (MAD)، وبددت الموارد الثمينة كنتيجة لزومية للمواجهة، قد وصلت إلى نهايتها أخيرا.

حين قررت أمريكا أن تكون الشيوعية الروسية هي الحدود النائية الجديدة - خط التقسيم الحضاري الذي يمكن العثور عليه في كل مكان من العالم والذي يجب مواجهته أينما

كان - توجب عليها حث وإقناع الرأي العام الأمريكي بذلك. وكما أشار السناتور ارثر فاندبرغ على الرئيس ترومان، إن أردت حقا تجميع كل الأسلحة وجباية الضرائب لدفعها من أجل الحدود النائية الجديدة، فمن الأفضل لك أن "تجعل الشعب الأمريكي يرتعد خوفا"[9]. وفعل ترومان ذلك عبر سلسلة من الخطب التي تركزت على "الخطر الأحمر" الداهم، واستشهدت بالتهديد الذي تتعرض له فرنسا وإيطاليا. كان - ومازال - في كل من فرنسا وإيطاليا حزب شيوعي كبير، لكنه يمتلك تاريخا خاصا به ولا يدين بفضل كبير إلى روسيا. وليس من المفاجئ أن يجد الفرنسيون والطليان ومعظم الأوروبيين كلام ترومان عن شبح "الخطر الأحمر" الزاحف داخل أوروبا، مبالغا في التبسيط والسذاجة. وفي الحقيقة فإن خصوصيات التاريخ المختلف لوّنت الفهم الأوروبي لكل حروب "رعاة البقر" التي بررت فيها أمريكا استخدامها للقوة المسلحة - في العلن والسر - كجزء من مسعاها المتمسك بأهداب الفضيلة لاحتواء ومجابهة الخطر الأحمر. هناك نقطتان تفترق عندهما أمريكا وأوروبا فيما يتعلق برواية "الكاوبوي" المطبقة على العدو الأحمر.

1 - تمتلك أمريكا فهما واضحا ومباشرا عن أوروبا باعتبارها العالم القديم الذي تسكنه شعوب تخلفت عن

الركب. في المخيال الشعبي والتصورات الذهنية الشائعة، تبدو أوروبا وقد نخرها الفساد والتفسخ بحيث يتلهف مواطنوها للهرب. وباستعارة لغة اوسوليفان، إذا كانت مشكلة التاريخ الأوروبي هي استبداد الملوك، وطغيان الزعماء الدينيين، وديكتاتورية حكم القلة، وهي حالات مرت بها فعلا، فإن أمريكا على ما يبدو لا تعطي أهمية كبيرة لحقيقة أن أوروبا قد كافحت طويلا ضد أشكال الحكم الشيطانية هذه حتى توصلت إلى صيغة مقبولة لطاعة السلطة مستخدمة وسائلها الخاصة وتبعا لشروطها الذاتية. السياسة والمجتمع في أوروبا يعانيان من كثير من المثالب والعيوب، لكنهما ليسا أسوأ حالا منهما في أمريكا، وأوروبا تحتفظ بحقها في الاعتقاد بأنها تتصف بالضمير الأخلاقي، والإخلاص للحرية، والتمسك بحقوق الإنسان، وفضيلة احترام المواطنية، مثلها مثل أمريكا. وحين يتطلب تجسيد دور الشرير الشيطاني في أفلام هوليود المعاصرة ممثلا أوروبيا بصورة إجبارية، يصبح لدى أوروبا سبب يدعوها للتساؤل بشكل جدي عما إذا كانت أمريكا تعترف فعلا بوجود أي تكافؤ بين الثقافتين. للأمم الأوروبية تاريخها الخاص من العنصرية، والاستعمار، وانحسار المد الاستعماري؛ كما

جوبهت بالمقاومة وطردت بالكفاح المسلح من مستعمراتها، ثم توجب عليها الجلوس والتفاوض مع الكثير ممن اعتبرتهم في السابق إرهابيين وصورتهم كأعداء وأبالسة، قبل اعتبارهم شركاء. مثل جومو كينياتا، زعيم ثوار الماو الماو، الذي أصبح أول رئيس لكينيا المستقلة، ونيلسون مانديلا، القديس العلماني الآن، الذي أطلقت عليه مارغريت تاتشر لقب "إرهابي . ما حدث في التاريخ شكل درسا مفيدا صاغ وجهة نظر سياسية أوروبية مميزة حول شؤون العالم.

2. لم تجد أوروبا في العنف، انطلاقا من تجربة حربين عالميتين اثنتين خاضتهما، سبيلا للخلاص والإصلاح، وكانت فكرة حروب العالم الثالث ذاتها أمرا بغيضا ومنفرا بالنسبة للرأي العام الشعبي الأوروبي. ولهذا السبب كانت لـ"الحملة من أجل نزع الأسلحة النووية" (CND)، وحركة السلام عموما مثل تلك الجذور العميقة في أوروبا. أما أدب "رعاة البقر فلم يتمكن من خلق نفس الحيز السيكولوجي في أوروبا. في حين احتل في أمريكا مساحة أسطورية مثالية لجعل المواطنين "يرتعدون خوفا" لقد تزامن مولد الحرب الباردة مع ذروة انتشار أدب

وفلسفة رعاة البقر في أمريكا من خلال السينما، والراديو، والاختراع الحديث آنذاك، التلفزيون. سنرجع، الآن إلى الوادي، المأهول بالمستوطنين البسطاء الضعفاء في فيلم "شين"، وقد تلهفوا لتأمين مستقبلهم عبر الفردانية والعمل الشاق. تجربة سن الرشد بالنسبة للشباب الأمريكيين في أوائل الخمسينيات، حين عرض الفيلم، شملت تدريبات منتظمة (على الدفاع المدني) يختبئون فيها تحت مقاعد الدراسة لإنقاذ أنفسهم من الغبار النووي الذي تخلفه الرؤوس الحربية الروسية: إنه جنون الارتياب والإحساس بعدم الأمان باعتبارهما الأساس للحياة الطبيعية، تماما كحال المستوطنين الذين كانوا يتوقعون العمليات الإرهابية كل يوم من مربي الماشية. في "شين"، يجسد الصبي، جو الصغير، الجانب الآخر من أسطورة بلوغ سن الرشد، فهو أمريكا الأصيلة في مراحل نشأتها الأولى. الحقيقة المقلقة هي تقديم هذا الصبي بصورة من يتلهف للعنف، ويتأثر به باستمرار، ويفتن بالأسلحة، ويتوق لتعلم كيفية استعمال المسدس. جو الصغير هو الذي يركض خلف شين ليشهد المعركة الأخيرة، ويزود الفيلم بخاتمة مؤثرة لا تغيب عن البال، حيث نادى بحزن على شين يدعوه للعودة وهو يبتعد على صهوة جواده نحو

المدى الفسيح. ما الذي قاله وردد الصدى صوته؟ "بابا لديه عمل لك، وأمي تريدك، أعرف ذلك. شين. شين! ارجع! وداعا يا شين". البطل التائه قدم الخلاص، والأمن، وحافظ على بقاء المجتمع المحلي الضعيف الغرير بواسطة العنف. تاق إليه الناس ورغبوا به. هذا ليس وداعا نهائيا: سيحتاجون مرة أخرى لمثل هؤلاء الأبطال وهذه الأساليب التكتيكية. وفي الحقيقة، عاود شين الظهور في السينما مجسدا في الممثل كلينت ايستوود ("رجل بلا اسم")، ولا سيما في فيلم "الفارس الشاحب" (The Pale Rider) (1985).

إذا كان اللجوء إلى العنف جزءا أصيلا وضروريا من الخطاب الأمريكي الطنان، فليس من المفاجئ أن نجد العنف وقد اتخذ شكلا ماديا ليكوّن وسيلة اتصال. يلاحظ لويس لافام محرر " مجلة هاربر "، أنه في صيف عام 1965، عرَّف وزير الدفاع الأمريكي - آنئذ - روبرت مكنمارا الغارات الجوية التي قتلت في نهاية المطاف حوالي مليوني شخص إلى الشمال من سايغون بأنها وسيلة اتصال:

القنابل أصبحت استعارات رمزية استهدفت إقناع الفيتناميين الشماليين بالاعتراف بحتمية انتصار أمريكا.

وهكذا قصفت الطائرات الأمريكية المدنيين إضافة إلى الأهداف العسكرية لأسباب تتعلق بالخطاب البلاغي الدعائي أكثر من تعلقها بالدواعي التكتيكية ("الإقناع بالقنابل"). لم يكن مكنمارا فريدا في افتراضاته، بل هو نتاج وخادم لمجتمع يحب التعبير عن نفسه بلغة العنف، وقد سقط في شرك حلم القوة الذي استعاض بقواعد بيانات الرواية الوهمية عن نصوص الحقيقة البدهية الشائعة. ما كان حقيقيا هو صورة الحرب التي ظهرت على المخططات الانسيابية (flowcharts) وشاشات الكمبيوتر. أما ما لم يكن حقيقيا فهو الألم والمعاناة والتشويه والموت[10].

هذه النزعة الأمريكية لتمجيد وامتداح العنف دون التفكر بتكلفته البشرية، وعدم المشاركة الوجدانية مع المعاناة الإنسانية من عواقبه وتبعاته، هي التي تملأ قلوب سكان العالم بالخوف من أمريكا والكراهية لها في آن. ولربما لا يعرف باقي العالم أصول ونشأة هذا العنف، لكن الأوروبيين يعرفون أصوله في التاريخ الأمريكي وموقعه في الوعي الأمريكي. في أفلام وحكايا "رعاة البقر" قد يصاب البطل، لكنه يتعافى ليجد الحل، ويقتل العدو في النهاية وتكون كل التبعات والنتائج

إيجابية خالصة. لقد جعلت حرب فيتنام العالم بأسره يألف العبارة المرعبة الكريهة "الدمار غير المتعمد للأهداف المدنية". ويبدو أن هؤلاء المدنيين الذين ذبحوا بدون قصد لا يعتبرون بشرا حقيقيين. لا يعني ذلك أن الأبرياء لم يتعرضوا للقتل أبدا في الحروب الأوروبية، فلطالما حدث لهم ذلك؛ بل تكمن المعضلة في عدم استعداد أمريكا للتفكير في/أو حتى استخدام لغة صادقة ونزيهة في وصف الضحايا الذين دمرت حياتهم، الأمر الذي يجعل الناس يعتقدون بأن حرية أمريكا في الاستمتاع بالحياة، والحرية، والبحث عن السعادة هي الممارسة الوحيدة التي تهم من بين ممارسات هذه الحقوق والامتيازات.

استخدام العنف في الخارج في سبيل جعل العالم مكانا آمنا ومذعنا للأسلوب الأمريكي شكل تاريخ النصف الأخير من القرن العشرين، مثلما رأينا في الفصل الثالث. أما حقيقة أن ذلك قد استحث احتجاجات واعتراضات لا نهاية لها وأدى إلى ترسيخ الاعتقاد بين شعوب العالم الثالث بأن أمريكا تعتبرهم بشرا من الدرجة الثانية، فهي إحدى "الأجندات" التي اختارت أمريكا تجاهلها بكل تصميم وعناد. ونادرا ما التقط "رادار" التفكير السياسي الأمريكي ما يثيره ذلك من نفس القدر من الشك والغضب والخوف في أوروبا. فحين قرر رونالد ريغان قصف ليبيا

عام 1986 ، انطلاقا من القواعد الأمريكية في أوروبا باعتبارها "حاملة طائرات برية"، لم يشعر الرأي العام الأوروبي وحده بالسخط الشديد. السياسيون أيضا عبروا صراحة عن خشيتهم من استغلال حلف الناتو والتلاعب به إلى حد تصديع أركانه. وتبدو معارضة أمريكا لاقتراح إنشاء قوة أوروبية للتدخل السريع معاكسة للشكوى الأمريكية المستمرة من أنها تتنكب عبء الدفاع عن الحرية وحدها وعلى نفقتها الخاصة؛ وامتنعت عن الدخول في حوار سياسي جدي يتناول مسألة تباعد الشقة بين وجهتي النظر الأمريكية والأوروبية حول العالم. كل ذلك عزز الاعتقاد القوي بأن أمريكا أمة فقدت القدرة - إن امتلكتها أصلا - على الاستجابة إلى أي تحد، أو أزمة، أو نزاع، أو خلاف في الرأي عبر التفاوض، أو التسوية، أو الحوار الجاد.

الأسباب التي أدت إلى انعدام القدرة هذه موجودة داخل أمريكا ذاتها، حسبما يثبت لويس لافام. ففي مقالة له حول عملية التفجير الإرهابية لمبنى الفرد موراه في مدينة اوكلاهوما عام 1995، يسأل لافام: "كيف نبني فكرة أمريكا عن الحرية إذا توجب علينا التواصل مع بعضنا بعضا بالقنابل؟"[11]. المعنى الضمني الأشد ترويعا وبشاعة في تفجيرات اوكلاهوما هو أنها قد صممت، كما لاحظ العديد من المعلقين، لتفهم داخل إطار

تـراث العـنف المـتجدد. ففـي رسـالة له إلى إحـدى الصـحف عـام 1992، سـأل تـيموثي مكفـي (الإرهـابي الـذي قـام بعملـية التفجير): "هـل الحـرب الأهلية وشـيكة؟ هـل يتوجـب علينا سفك الدمـاء لإصـلاح الـنظام الـراهن؟" أجـاب لافـام عـن سـؤاله (هـو) بـالقول إن مكفـي حـول "أكـثر مـن طـنين مـن الوقـود ونـيترات النشـادر إلى بيان رسمـي يعلـن على الصـحفيين"[12]. وفي الحقيقة، يعتبر استخدام العـنف في أمـريكا للتشـديد عـلى رأي معين تراثا تقلـيديا راسـخ الجـذور. وكمـا لاحـظ أحـد المعلقـين في صـحيفة "نيويوركـر" (The New Yorker):

> تفجـيرات اوكـلاهومـا.. تتناسـب تمامـا مـع ذلـك التقلـيد الدمـوي ومخلصـة إلى أقصـى حـد لمبادئه وقواعـده: توقـف عــن الــتفكير بالآخــر كشــخص وابــدأ الــتفكير بــه كمناسـبة. كلوح خـال مـن الكتابة ستنقش عليه فكرة اليوم[13].

ليسـت أمـريكا أمـة يحـدث فيها العـنف العشـوائي كـل يـوم فقـط؛ ويصـبح فـيها احـتمال الـتعرض للقـتل مـن قبل لص من أجل حفـنة مـن الـدولارات أو سـاعة معصـم خوفـا روتيـنيا يعـاني منه أي مواطـن؛ ويشـيع فـيها إطـلاق الرصـاص مـن السـيارات العـابرة وبين السـائقين الغـاضـبين المسـلحين. إنهـا بـلاد يـأخذ فـيها المـراهقون

المتمردون مسدساتهم إلى المدارس ويطلقونها على الناس، ومكان أصبح من الشائع فيه قيام المكتئبين والمتمردين والمرضى النفسيين بأعمال القتل الجماعية. لقد أصبح خطاب العنف ولغته الطنانة جزءا لا يتجزأ من المشهد السياسي الأمريكي. ومع تنامي الاستقطاب داخل الولايات المتحدة لتغدو أمة ثنائية الثقافة ـ ليبرالية ومحافظة ـ وغير قادرة على التواصل عبر الحوار السياسي نظرا لأن الاختلافات تقع داخل الطيف الضيق للجمهوريين والديمقراطيين، تحولت إلى بلاد رسخ فيها مبدأ "الإقناع بالقنابل" جذوره. وهكذا يمكن لأولئك المدافعين بحماس عن حق الجنين الذي لم يولد بعد في الحياة بتفجير العيادات التي تجري عمليات الإجهاض واغتيال الأطباء فيها. بالنسبة للويس لافام، يعتبر ذلك إشارة دلالية معبرة عن الأبعاد الحقيقية لمشكلة أمريكا المعاصرة:

> الجماعة التي يربط أفرادها المعنى المشترك انقسمت إلى عوالم متباعدة صنعناها بأنفسنا، وهي تتراجع مبتعدة عن بعضها بعضا بسرعة الضوء. لم نعد بحاجة لرؤية/أو التحدث مع "الآخر" الذي لا نتفق معه، ويمكننا بناء ذواتنا مثل حكوماتنا داخل منفى من الفضيلة الأبدية. فلكل خير عندنا "نحن"، يمكن أن نسمي شرا لديهم

"هم"..؛ ولكل صفة ذميمة نلصقها بـ"هم"، بالبعيدين عنا، هنالك سمة حسنة نعزوها إلينا، "نحن"، وإلى جيراننا القريبين منا (14).

إذا أصبحت أمريكا بلدا لا يمكنه التحاور أو التفاوض مع ذاته، ولا التعامل مع المعاني المختلفة لدى مواطنيه الأمريكيين، فأي أمل لدينا بأن تعير أمريكا أذنا صاغية أو تتعامل بعقل منفتح مع بقية العالم؟ هذا بالضبط ما يقلق معظم الناس في أوروبا حول أمريكا. وهو ما يدفع أيضا العديد من الأوروبيين، خصوصا الذين يميلون إلى اليسار منهم، لإدانة أمريكا بمثل هذه التعابير القاسية والمتشددة.

قبل الحادي عشر من سبتمبر، كان هنالك العديد من المعلقين الذين قرؤوا علامات الانحطاط والتفسخ والفساد والانحلال في ثقافة أمريكا السياسية. فعدم القدرة على إيجاد أي حل سياسي لقضية العنف كان بمثابة المثال الأهم على أزمة أشمل وأعم. ومن غير المفهوم بالنسبة للأوروبيين، مثلا، كيف يمكن لقرار يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر فيما يتعلق بالحق بحمل السلاح أن يصبح مشكلة محيرة لا يمكن العثور على حل سياسي لها في بداية القرن الحادي والعشرين، في أمة يحدق بها خطر سفك دماء مواطنيها برصاص المسدسات

والبنادق. أمريكا تهتز وترتجف، لكنها لا تتحرك لإصدار تشريع قانوني يعالج مشكلة الأسلحة المنتشرة لدى مواطنيها، وذلك نتيجة الضغوط المتنافسة التي تمارسها أفكارها المتناقضة المتعارضة. في أوروبا لم تكن فكرة المواطن المسلح مقبولة أبدا، لا من الملوك المستبدين، ولا من الزعماء الدينيين، ولا من الحكام الديكتاتوريين، تماما مثلما هي مرفوضة من الحكومات الوفية لمبادئ الديمقراطية، والحصول على السلاح يخضع لرقابة صارمة، وهنالك خوف عميق من انتقال عدوى العنف الإجرامي المسلح الذي تصدره الثقافة الشعبية الأمريكية. وحين أطلق مسلح الرصاص داخل مدرسة ابتدائية في دنبلين في بريطانيا عام 1996، سارعت السلطات المعنية إلى استصدار قانون تشريعي طبق بخلال مدة وجيزة من أجل زيادة القيود المفروضة على شراء واقتناء الأسلحة، وحظي بدعم ساحق من السكان. في أوروبا، ليس للمسدس سحر غامض؛ بل يعتبر عموما سلاحا هجوميا خطرا ويعامل على هذا الأساس. لقد عرفت الدول الأوروبية وعايشت الإرهاب السياسي في الداخل لبعض الوقت، كما رأينا في الفصل الأول، حيث عارض الإرهابيون الحكومات بكل عناد، ومع ذلك بقي الإيمان بأن الحل السياسي للمظالم وليس القضاء على أصحابها بالعنف هو السبيل الأفضل والنتيجة الضرورية في نهاية المطاف، يشكل جزءا

من الاعتقاد الأوروبي الراسخ، حتى بمساعدة أمريكا كطرف ثالث وسيط. على الصعيدين السياسي والثقافي، تقف أوروبا متسائلة بتعجب عن الدوافع اللاشعورية التي تحرك أمريكا.

منذ الحادي عشر من سبتمبر، غرق الوضع الاجتماعي والثقافي داخل أمريكا، والقضايا الصعبة والمسائل العويصة التي يثيرها، في تيار دافق من المشاعر الوطنية الجياشة والقيود الصارمة التي وضعها على الحوار العام والسياسي، وذلك بدلا من إيجاد الحلول الناجعة لهذه القضايا والمسائل. لقد شاركت الأمم الأوروبية أمريكا، وهي تشعر بعاطفة قوية وحزن عميق، صدمة الحادي عشر من سبتمبر. لكن الطريقة التي استجابت فيها أمريكا للهجمات - وسوف تستمر في تبنيها - شكلت مصدرا للخوف الحقيقي بين الأوروبيين. فالألم المبرح الذي أحس به الأمريكيون، ومطالبتهم بالرد المسلح كانا متناغمين مع منطق الأسطورة الأمريكية. في مقالة كتبها ريتشارد سلوتكين إلى مجلة "تأريخ التعليم العالي" (The Chronicle of H.E.)، لاحظ كيف استخدمت أمريكا الأساطير التراثية التقليدية لرعاة البقر في "الغرب الضاري" من أجل حشد وتعبئة المؤيدين لردها على أحداث الحادي عشر من سبتمبر:

أرى حتى الآن أسطورتين اثنتين اتخذتا مواقعهما.. الأولى أسطورة "الحرب المتوحشة" المؤسسة على أقدم الأساطير الأمريكية، ألا وهي أسطورة الحدود النائية. وهي تمثل التاريخ الأمريكي باعتباره حربا ضد الهنود الحمر، حيث عارض فيها الحضارة المسيحية البيضاء عدو عرقي "متوحش": عدو يشكل عداؤه للحضارة جزءا من طبيعته أو شخصيته الجوهرية، عدو نقيض لا يعارض مصالحنا فقط بل "الحضارة ذاتها"..

الأسطورة الأخرى التي استحضرناها هي أسطورة "الحرب النبيلة"، التي استدعتها استغاثة بيرل هاربر.

الخطر في استخدامنا الحاضر للأسطورة يتمثل في أن الأساطير التي اخترناها قد تتناقض مع الواقع إلى حد يصبح فيه من المستحيل تحقيق حاجاتها ومتطلباتها.. النصر الشامل الكامل قد لا يكون ممكنا. واستحضار أسطورة "الحرب النبيلة" يعني إثارة الطموحات والتوقعات التي لا يمكن تلبيتها، والفشل سوف يضعف الثقة بالأسطورة ذاتها، وبالإدارة التي تستحضرها (كما حدث في حرب فيتنام).

وإذا لم تتبع الأحداث المسار الموصوف في أسطورة "الحرب النبيلة"، فقد نلجأ إلى سيناريو "الحرب المتوحشة". وتلك أسطورة خطرة. فهي تعبر عن / وتقوي وتمكن إحساسا عميقا بالغضب يلازمنا حين نعاني، ونحن عاجزين لا حول لنا ولا قوة، من صدمة مروعة، علاوة على أنها تعقلن استخدام القوة المفرطة، الوحشية، وربما الطائشة المتهورة، ضد تلك الدول والشعوب التي نربطها بأعدائنا[15].

الأساطير الأمريكية، الروح السائدة في ثقافة "الكاوبوي" والغرب الضاري، تزود السياسة الخارجية للولايات المتحدة بترخيص واسع النطاق لاستخدام العنف الاستثنائي وخطاب الإقناع بالقنابل. لكنها تشرعن أيضا / وتذكر أمريكا بإحساسها العميق بالعزلة، والتفرد، وبكونها شكلا متميزا عن بقية العالم. وإذا لم تتمكن حتى أوروبا (القريبة ثقافيا إلى هذه الدرجة من أمريكا، وشريكتها في الحضارة الغربية، والمصدر التراثي والسلفي للأفكار التي تعرّف أمريكا) من الحوار مع أمريكا أو تحذيرها أو نصحها فيما يتعلق بتصميمها على الرد على الإرهاب عبر اللجوء إلى "أجندتها" الأسطورية، فليس من المفاجئ إذن أن يتجاوز الخوف المعقول من قدرات ومشاعر وعواطف الدولة العظمى المفرطة القوة حدود الخشية

ويبدأ بالتطور ليأخذ شكل كراهية. والاقتراح الذي يقول إن هنالك شيئا كريها ومكروها في كل طبيعة من طبائع أمريكا ، وأن أساطيرها تشكل خطرا داهما يتهدد حياة العالم ، سوف يبدو عاديا وسويا ومناسبا للمقام تماما.

الفصل السابع

كراهية أمريكا وتجاوز جدار الكراهية

في فيلم ماثيو كاسوفيتز "الكراهية" (La Haine) (1995)، يكتشف ثلاثة شبان يعيشون في مشروع إسكاني باريسي (مساكن شعبية) معنى الكره. المجموعة المتعددة الثقافات. الأول، فينز، يهودي، متقلب المزاج، جدي، وينتمي إلى الطبقة العاملة؛ والثاني، سعيد، عربي، مغرم باللهو والمزاح؛ والثالث هوبير، ملاكم أفريقي أسمر وانطوائي. ليس لديها الكثير لتفعله سوى تمضية الوقت، واغترابها يرسخ إحساسا حقيقيا بالقرابة بين أفرادها. المراهقون الثلاثة عاطلون عن العمل، وليس لديهم المال، والأهم من ذلك أنهم يفتقدون أية احتمالات مستقبلية لتحسين أوضاعهم. وهكذا يتسكعون في المنطقة القريبة من مركز المدينة مثل باقي الشبان المهمشين، هائمين على وجوههم دون هدف عبر الشوارع الأحياء. لكن للتبطل عواقبه وتبعاته، خصوصا عندما تعتبرك الشرطة مصدرا محتملا للنشاط الإجرامي.

الشاغل الأساسي لكاسوفيتز، الذي فاز بجائزة الإخراج في مهرجان كان، هو إظهار أن حالة التهميش ذاتها شكل من

أشكال العنف؛ وأنها تؤدي إلى أنماط أخرى منه، وتتغذى على ذاتها، إلى أن تنفلت من عقالها في نهاية المطاف وتخرج عن حدود السيطرة. أبطال الفيلم ليسوا أفرادا سيئين أو عنيفين على نحو خاص. بل مجرد بشر يحاولون أن يكونوا بشرا، بكل قواهم وحسناتهم ومعايبهم. لكن إثنيتهم ومظهرهم، وطبقتهم وخلفيتهم الاجتماعية، وضعتهم في فئة الشريحة الدونية والعنيفة. إذن، تلك هي الطريقة التي يعاملهم من خلالها المجتمع عموما، ورجال الشرطة - الذين لا يترددون في تعذيب الفتية - على وجه الخصوص. وبالمقابل، فإن مشاعر الكراهية لدى الشبان الثلاثة عبارة عن نتاج مركب لحالة التهميش الاقتصادي التي يعيشونها، والتعامل معهم على أساس ثقافي وعنصري، وتفسيرهم الخاص لوجودهم.

وفي حين أن العالم هناك لا يصفح عن سلوكهم، إلا أن يتعاطف بالتأكيد مع ورطة العصابة في "الكراهية". لأن معظم العالم الثالث (النامي) أخضع دون رحمة للتهميش الاقتصادي والظلم الثقافي. الشخصيات الخيالية في الفيلم وجهت كراهيتها غالبا نحو رجال الشرطة، الذين كانوا ممثلي المؤسسة الاستبدادية والسبب المباشر لمعاناتهم في آن معا. أما العالم الحقيقي فيوجه كراهيته نحو أمريكا، القوة العالمية المفرطة في

قوتها، التي تتصرف مثل الشرطة في فيلم "الكراهية"؛ إمبراطورية ليس لها شبيه في التاريخ، مرغت بصورة منهجية أنوف كل "الآخرين" في الطين.

لكن لا يوجد أحد يريد فعلا أن يكره الشعب الأمريكي. فمن ذا الذي يريد أن يوجهه سهام كرهه إلى دينزيل واشنطن أو سيدني بواتيه، هيل بيري أو ووبي غولدبيرغ، محمد علي كلاي أو تايغر وودز، جون شتاينبك أو آرثر ميللر، غور فيدال أو سوزان سونتاغ؟ ما يكرهه معظم الناس هو "أمريكا"، الكيان السياسي المؤسس على العنف الرسمي الخاضع لسلطة الدولة، والمعايير المزدوجة، والتهوس بالذات والمصلحة الشخصية، والسذاجة اللاتاريخية التي تساوي بين الذات والعالم. وفي الحقيقة، هنالك العديد من الأسباب الواضحة التي تدعو إلى كره أمريكا، أكثرها شيوعا وورودًا ثلاثة: التأييد الأمريكي لإسرائيل، التي يعتبرها الكثيرون في العالم العربي مستعمرة تسلحها وتمولها الولايات المتحدة؛ الدعم الأمريكي للأنظمة الديكتاتورية؛ وعمليات التدخل الأمريكي المتكررة في دول العالم النامية. لكن هذه الأسباب بسيطة وواضحة. علاوة على ذلك، هنالك العديد من الأسباب التي تكرر ذكرها مرارا وتدعو إلى كراهية أمريكا تأتي غالبا مغلفة ضمن مقادير

متساوية من الحب. على سبيل المثال، تثير الثقافة الشعبية الأمريكية، بدءا من هوليود وانتهاء بموسيقى "البوب"، مشاعر الحب والكره على حد سواء، وكأن العاطفتين جزآن منفصلان من كل واحد. وبالتالي فإن أمريكا غالبا ما تغري وتخيف في ذات الوقت.

ومن أجل تقدير مدى وحجم الكراهية، نحن بحاجة لتجاوز نطاق الواضح الجلي. هذا ما حاولنا القيام به في هذا الكتاب. نحتاج أيضا لأن ندرك أن كره أمريكا لا يقتصر على جماعات معينة مثل المسلمين، أو "الأصوليين"، أو المفكرين الأوروبيين اليساريين. لم يتبق تقريبا أية يقينيات كونية شمولية في عصرنا المابعد حداثي هذا، لكن كره أمريكا يقترب من بلوغ مرتبة الرأي الوجداني الشمولي: إنه الدينامية التي توحد بين الأصوليين والليبراليين، والعرب وشعوب أمريكا اللاتينية، والآسيويين والأوروبيين، بل يجمع حتى الكنديين، الذين يخيم ظل أمريكا عليهم، مع بقية العالم. ولا بد من وجود أساس منطقي حقيقي وخفي لهذه الظاهرة العالمية.

الحدث في فيلم "الكراهية" يجري في بيئة معادية. فقد صور كاسوفيتز فيلمه في الضواحي الإسمنتية التي تنضح بالوحشية والبربرية. ولم تستعرض هذه المناظر الخاوية عداءها

للشبان الثلاثة فقط، بل جعلت من المستحيل بالنسبة لهم التنفس، والوجود، والنجاح والعيش كبشر. حرمتهم من أن يكونوا أنفسهم. لقد خلقت الحكومات والشركات الأمريكية، طيلة عقود من السنين، سياقا عالميا مشابها في كآبته وخوائه وقسوته، عالما يجعل الحياة صعبة، وأحيانا مستحيلة، بالنسبة للعديد من الثقافات والمجتمعات. وبالتالي، فإن لكراهية أمريكا مرسى أكثر عمقا؛ فهي متموضعة في العجز المفروض بالقوة على المجتمعات والثقافات الأخرى بحيث يحرمها من الوجود ككيانات حرة وكاملة، والعيش كما ترغب أن تعيش. تقييد الثقافات هذا ليس مقتصرا على ميدان السياسة. فهو يمتد إلى مجال مفهومي أوسع نطاقا؛ وهنا يمكن العثور على الأسباب الأربعة الرئيسة وراء الاعتراض على الولايات المتحدة:

1 ـ السبب الأول وجودي الولايات المتحدة جعلت الوجود صعبا جدا على الشعوب الأخرى. على الصعيد الاقتصادي، يعتبر ذلك حقيقة صارخة بالنسبة للغالبية العظمى من سكان العالم. ومثلما رأينا، شيدت الولايات المتحدة اقتصادا عالميا لزيادة ثرائها دوما وأبدا وإخضاع المجتمعات اللاغربية لحالة من الفقر المدقع. "الأسواق الحرة" مجرد تعبير مهذب عن حرية حركة رأس المال

الأمريكي، والتوسع الذي لا تحده حدود للشركات الأمريكية، والانتقال الحر (وحيد الاتجاه) للسلع والخدمات من أمريكا إلى باقي دول العالم. الدولار الأمريكي هو العملة الرئيسة للاحتياطي النقدي العالمي، والوسيلة التي يحتاجها الجميع لدفع ثمن الواردات الأجنبية، وليس ثمة قيود على قدرة الولايات المتحدة على طبع عملتها لتمويل العجز في ميزانها التجاري مع بقية دول العالم. ونظرا لأن عمليات الإقراض الدولي تتم بالدولار، فإن الدول المقترضة التي تطحنها الأزمات ويرهقها العجز في الميزان التجاري على الدوام تضطر لتحمل أعباء الديون الدولارية بأكثر من طاقتها على السداد. وحين نضيف إلى كل ذلك سيطرة الولايات المتحدة على المؤسسات المالية الدولية مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة الدولية، نعرف كيف تقوم آليات ووظائف الاقتصاد العالمي بتهميش الدول الأقل تطورا في العالم. نحن نتقدم باتجاه عالم تزود أسواقه في ميادين أساسية مثل الرعاية الصحية والاجتماعية، والتعويضات التقاعدية، والتعليم، والغذاء، والماء، بواسطة الشركات الأمريكية وتخضع لتحكمها وهيمنتها. إن القدرة على تطوير وتنمية الدول من أجل توفير حرية الوصول الشاملة إلى الخدمات الاجتماعية الأساسية، تعرضت للتآكل بشكل منهجي وعنيف وقاس. ولهذا السبب ارتفعت معدلات الفقر المطلق

خلال العقود الماضية: الفجوة بين الأغنياء والفقراء وصلت الآن إلى مساحة لم يكن أحد يتخيلها. والحقيقة أن أمريكا تأخذ لقمة الخبز من أفواه شعوب دول العالم النامية.

على الصعيد السياسي، هنالك عمليتان متزامنتان تقلصان خيارات وحريات بقية دول العالم. عملية "التضخم"، أي اتساع مدى تأثير ونفوذ أمريكا - عبر الأنظمة الاقتصادية العابرة للحدود الوطنية ورأس المال المتعدد الجنسيات، إضافة إلى تجمع عوامل القوة المستمدة من المؤسسات التي يفترض بأنها جمعية مشتركة مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة الدولية، في يد الولايات المتحدة - تتزامن في واقع الأمر مع عملية "الدمج" التراتبية لبقية العالم. فالعالم يتعرض إلى عملية دمج ليأخذ شكل هرم صلد مدرع بالحديد. وأولئك القابعون في قاع الهرم ليسوا مجرد ضحايا للتهميش والإقصاء على المستوى الاقتصادي فقط، لكنهم خاضعون للاحتواء السياسي أيضا. ولذلك فإن وجودهم السياسي معرض لنفس أخطار واقعهم الاقتصادي.

علاوة على ذلك، قامت العولمة بقيادة الولايات المتحدة بتقليص الحيز الثقافي. وحتى أكثر الشعوب تمتعا بالمزايا الاقتصادية والسياسية تسعى للتعبير عن نفسها وتحقيق ذاتها

ثقافيا. لكن العالم المشكل على هيئة هرم لا يفسح مساحة كبيرة لوجود الثقافات الأخرى، ناهيك عن السماح للثقافات اللاغربية بالتعبير الكامل عن الذات والازدهار والنماء. بكل بساطة، ليس ثمة مجال متروك لوجود الاختلاف وفقا لشروطه وتصنيفاته الخاصة.

وهكذا أصبح الوجود بحد ذاته - ماديا / جسديا، وسياسيا، وثقافيا - مشكلة بالنسبة للعالم النامي. وعلى شاكلة أبطال فيلم "الكراهية"، يملأ الغضب كيان شعوب العالم الثالث بسبب ظرفها الوجودي. وتعتبر أمريكا المتواطئ الرئيس على/ والمصدر المستمر لورطتها المأزقية؛ ولهذا توجه عداءها نحوها.

2 - السبب الرئيس الثاني للاعتراض على أمريكا سبب كوزمولوجي. فتبعا للبرهان الكوزمولوجي التقليدي على وجود الله، المستمد أصلا من أرسطو، يعتبر الخالق مسبب كل شيء؛ ولهذا سميت النسخ الأولى من هذا الدليل البرهاني حجج "السبب الأول". في عالم اليوم المعولم، تعتبر أمريكا السبب الرئيس لكل شيء. لا شيء يتحرك على ما يبدو بدون موافقة أمريكا؛ ولا يمكن حل شيء بدون تدخل أمريكا. فهي وحدها القادرة على حل صراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين؛ وبتدخلها وحده

يمكن التوصل إلى نوع من الحل للخلاف بين الهند وباكستان حول كشمير؛ وتدخل العراب الأمريكي في ايرلندا الشمالية هو الذي رتب التوصل إلى حل سياسي. وبدون مصادقة أمريكا ، لا تساوي معاهدة كيوتو حول انبعاث ثاني أكسيد الكربون قيمة الورق الذي كتبت عليه؛ وبدون إيماءة رأس من أمريكا ، لا يتحرك شيء في منظمة التجارة الدولية أو البنك الدولي؛ ولولا أمريكا ، لما عادت الأمم المتحدة أمما متحدة. على المستوى العالمي، أمريكا هي السبب الأول والسبب المستمر في آن معا.

تتصل الأسس الكوزمولوجية للسخط والاستياء أيضا بـ"تعملق" أمريكا ذاته. إذ يشير قول صيني مأثور إلى أن أطول الأشجار تجتذب أخطر وأقوى الرياح خلال الإعصار. وباعتبارها شجرة تلامس فروعها كل ركن من أركان الأرض، تعتبر أمريكا هدفا طبيعيا للعواصف. لكن ما يضاعف ذلك هو الغطرسة المتفاخرة التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من التركيبة الكوزمولوجية التي لا تراها أمريكا. الإمبراطوريات الغربية ـ الرومانية، الإسبانية، البريطانية ـ كانت مهتمة باستدامة وتعزيز سيطرتها على السكان من رعاياها ، لكن أمريكا نقلت هذا المبدأ إلى مستوى كمي جديد: الإمبراطورية الأمريكية هي استعمار للمستقبل يصبح الآن مستهلكا كليا للمكان والزمان

كليهما ـ إعادة كتابة التاريخ، تغيير مادة الحياة ذاتها في تركيبتنا الجينية، تغيير الأنماط المناخية، استعمار الفضاء الخارجي، وفي الحقيقة تغيير سيرورة الارتقاء النشوئي ذاته! هذا القدر الهائل من الغطرسة هو الذي يجفل، بل يرعب، معظم سكان العالم. إذا ارتفعت الكوابح والقيود، فما الذي يمنع الولايات المتحدة من الاستهلاك الفعلي لسكان العالم من غير الأمريكيين؟ وحين يُجند العالم داخل البنية الكوزمولوجية لأمريكا، فلسوف يختفي من الوجود تماما. حين كان المراهقون الثلاثة في فيلم "الكراهية" يركبون قطار الأنفاق، شاهدوا لوحة إعلانية كتب عليها: "العالم عالمك". لكنهم بدلوا "الكاف" بـ"هم" ليؤكدوا على أن "العالم" لا يشملنا جميعا. ويبدو أنه عالم أولئك الذين يملكون احتمالات وإمكانيات غير محدودة، الذين أعادوا بناء العالم ليناسب نظرتهم الكوزمولوجية الخاصة.

3 ـ السبب الرئيس الثالث لمشاعر العداء لأمريكا هو سبب أنطولوجي ـ أي يتصل بطبيعة الكينونة ذاتها. مرة أخرى يعيدنا هذا إلى الأدلة البرهانية المعيارية على وجود الله. البرهان الأنطولوجي على وجود الله، الذي ينسب إلى الأسقف والفيلسوف والقديس انسلم (1033 ـ 1109)، يسير على النحو

التالي: الله أكمل الكائنات؛ وهو أعظم كمالا عندما يوجد منه عندما لا يوجد، لذلك فالله موجود. البرهان دائري بالطبع. الحجج والبراهين الأنطولوجية تستنتج بالاستدلال أن الشيء يوجد لأن عدة مفاهيم تعالقت بطرائق معينة. الخير والشر متعالقان في علاقة تقابل - وبالتالي إذا وجد الشر فلا بد من وجود الخير أيضا. وعلاقة أمريكا بالعالم تعتمد على هذا المنطق الدائري الأنطولوجي: لأن "الإرهاب" شر فإن أمريكا خيرة وفاضلة؛ و"محور الشر" يموضع - ضمنيا - أمريكا وحلفاءها على "محور الخير". لكن ذلك لا يعني مجرد تقابل ضدي ثنوي: العنصر الأنطولوجي، طبيعة الكينونة الأمريكية، تجعل أمريكا الأمة الخيرة / الفاضلة الوحيدة. إنها خطوة صغيرة قبل الافتراض بأنها الأمة المصطفاة من الله والمختارة من التاريخ. كم من مرة سمعنا القادة الأمريكان يعلنون أن الله معهم؛ أو أن التاريخ قد نادى على أمريكا لتتصرف؟

لكن الاستيلاء على الخير ونسبه للذات، ثم ارتكاب أعمال الشر، يظهرك بمظهر المنافق أمام الآخرين. يلاحظ بروس تون، الأستاذ في قسم التخطيط المديني والإقليمي في جامعة تينيسي (بمدينة نوكسفيل) أن "الناس في مختلف أرجاء العالم يسألون باستمرار عن السبب الذي يجعل أمريكا تقول شيئا وتفعل

نقيضه؛ ولم لا تطبق المعايير التي تريد فرضها على الآخرين على الولايات المتحدة ذاتها. وكيف يمكن لها الزعم بأنها مورد الصلاح ومنهل والخير وينبوع الفضيلة بينما تزدري بالفقراء وتحرمهم من حقهم الأساسي في الغذاء والماء؟ المرضى المحتضرون نتيجة إصابتهم 'بالإيدز' في مناطق جنوب الصحراء الإفريقية يتساءلون عن السبب الذي يجعل أمريكا تملك ما يكفي من المال لصنع الكمبيوترات العملاقة المتفوقة والقاذفات 'المتخفية'، لكنها لا تقدر على مساعدتهم بعقار 'ايه زد تي' (AZD) (ازيدو ثيميدين) وغيره من الأدوية. الناس الذين يعيشون في/ وحوالي الغابات المطيرة الاستوائية لا يمكن أن يفهموا انتقاد أمريكا لأسلوبهم في إدارة هذه الموارد الحاسمة في أهميتها بالنسبة لحياتهم، بينما تستمر في التخلص من النفايات في بيئتهم الطبيعية وتصر على تدميرها، بدءا بالهواء الذي يتنفسونه، وصولا إلى زيادة انبعاث الغازات التي ترفع درجة حرارة الأرض، مثل ثاني أكسيد الكربون. ولا يمكن للأوروبيين أن يسبروا أغوار السبب الذي يحول بين الولايات المتحدة ودعم الحماية البيئية للكرة الأرضية، ومعاهدات حظر الألغام الأرضية، أو وضع شروط صارمة للتحكم بالأسلحة البيولوجية والنووية، أو لماذا تلح بإصرار على بيع الأوروبيين اللحوم والحبوب الملوثة بالهرمونات نتيجة الهندسة الوراثية. الروس

والأوروبيون الشرقيون لا يفهمون لماذا تلح أمريكا على فرض الإجراءات الاقتصادية التي تفاقم حالة الظلم وعدم المساواة تبعا لكل معيار عرفه البشر، على دولهم. الكنديون يأسفون لتأثير الثقافة الأمريكية على مجتمعهم"[1].

ثم هنالك عناصر النفاق في المجتمع الأمريكي ذاته. محاكمة او.جي. سيمبسون سلطت الضوء على الكذب المأْسَس الذي يشكل قاعدة قانون المحاكمات الأمريكي، لكي يراه العالم برمته. المحاكمة جذبت انتباه العالم أيضا إلى مشاعر الغضب التي تعتمل في صدور الأمريكيين الملونين على حكومتهم، وشكوكهم العميقة بنزاهة النظام القضائي الأمريكي. كما أظهرت قضية اتهام الرئيس كلينتون بإساءة التصرف مدى نفاق المؤسسة السياسية: فالمحافظون من السياسيين، الذين اتهم العديد منهم "بسوء السلوك" الجنسي، فقدوا ضمائرهم في محاولة الاغتيال السياسي التي قاموا بها. أما كارثة الانتخابات في فلوريدا فقد أبرزت نفاق أمريكا فيما يتعلق بالديمقراطية: فعدم حساب صوت كل مواطن يعتبر خطيئة فظيعة فاضحة لو حدثت في ديمقراطيات العالم الثالث الوليدة. لقد لاحظ سكان العالم أجمع آنئذ أن المحكمة

الأمريكية العليا قررت نتيجة الانتخابات من خلال تلفيق الأسباب الداعية لعدم إعادة حساب كافة الأصوات.

العالم برمته يتساءل باستمرار عن السبب الذي يجعل عامة الشعب الأمريكي، في دولة تمتلك أكثر الأنظمة التعليمية والمؤسسات العلمية تقدما في العالم، على مثل هذه الدرجة المتزايدة من الجهل بشؤونه؟ فهم لا يعرفون أسماء زعماء دول العالم الأخرى، حتى الدول الحليفة في الغرب. ويجهلون مواقعها على الخريطة. ولا يعرفون تاريخ العالم. ويبدو أن اهتمام المواطن الأمريكي ينحصر في سيارته، وبيته الثاني، وعدم دفع الضرائب، وأسعار "البنزين". لماذا يميل الأمريكان نحو الشك الجواني بالآخرين، ويظهرون مثل هذا الإهمال لحاجات ورغبات وآمال بقية سكان العالم؟ لماذا؟

بالطبع لا يمكن لأمريكا، ككيان سياسي، ولا للعديد من الأمريكان، أن يسمعوا مثل هذه الأسئلة. فقد تكون الولايات المتحدة مجتمعا مفتوحا، لكنها دائرة مغلقة أيضا. فاهتمامات وهموم وأصوات العالم الخارجي لا يمكن أن تخترق الأسوار الأنطولوجية الحصينة حول أمريكا. ما الذي بمقدور الآخرين - الذين أُقصوا أنطولوجيا من فئة الأخيار - أن يقولوه للأخيار، الأبرياء، المتمسكين بأهداب الفضيلة، الذين

اصطفاهم الله واختارهم التاريخ؟ وإذا افترضنا أن أمريكا تفكر بهم، ما هي الصيغة الأخرى المتوفرة سوى القول الفصل بأن ما يصلح لأمريكا يصلح لزوما للجميع؟ ليس من المفاجئ أن يتدثر الأمريكيون إلى الأبد بعلمهم، رمز طيبتهم وفضيلتهم القويمة وصوابية طبيعتهم الأنطولوجية الخيرة. ونظرا لأن العلم يمثل كل ما هو خير وفاضل وقويم فيجب أن يستدعي - بنظر الأمريكيين - الاحترام والتقدير من كافة الجهات والأطراف. لكنه بالنسبة لباقي العالم مجرد خرقة من قماش، تلف أفكارا وأباطيل مضللة عن البراءة والصلاح والفضيلة، مغلفة بالغطاء الشفاف لرأسمالية الشركات الأمريكية. وسائل الإعلام في الولايات المتحدة تسقط النفاق الأمريكي على ميزان العالم، وتلك صيغة مناسبة لحلقة مفرغة من الكراهية. الكره لا يولد إلا الكره: المزاعم الافتراضية الأنطولوجية عن الطيبة والصلاح والفضيلة تغذي كراهية تنطلق من قواعد أنطولوجية، مما يؤدي إلى خاتمتها المحتومة.

4 - السبب الرئيس الرابع لمشاعر العداء تجاه أمريكا يتعلق بالتعريفات. فأمريكا ليست فقط الدولة الوحيدة المفرطة القوة - بل أصبحت السلطة المرجعية للتعريف بالعالم. فهي التي تعرف ما هي الديمقراطية، والعدالة، والحرية؛ ما هي حقوق الإنسان وما

هي التعددية الثقافية؛ من هو "الأصولي"، و"الإرهابي"، و"الشرير". وباختصار تحدد ما معنى "الإنساني". أما باقي العالم، بما فيه أوروبا، فيجب أن يقبل ببساطة هذه التعريفات ويسلم زمام القيادة لأمريكا (وهذا ما تفعله بريطانيا في معظم الحالات بتفان وإخلاص استثنائيين). لكن أمريكا تعرف وتحدد كل هذه الأشياء بتعابير غريبة شاذة - بلغة الهوية الذاتية لأمريكا، وتاريخها، وتجربتها، وثقافتها، وعلى الأغلب، بلغة المصلحة الأمريكية الذاتية. وهكذا، حين قال الرئيس بوش، مثلا، في خطابه عن حالة الاتحاد عام 2002، إن "أمريكا ستقود وتسود عبر الدفاع عن الحرية والعدالة لأنها من القيم الصحيحة والصادقة والثابتة لكل الناس في كل مكان"، فإنه اعتبر من القضايا المسلم بها أن أفكار أمريكا عن الحرية والعدالة هي الوحيدة الموجودة. وليس ثمة مجال لأن تفسر هذه القيم وتمارس بطرائق مختلفة؛ ولا معنى لحقيقة أن تاريخ وتجربة الثقافات الأخرى قد ولدا مفاهيمها الخاصة عن الحرية والعدالة.

يمكننا رؤية ذلك بوضوح فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان. فالمفهوم الغربي الليبرالي عن حقوق الإنسان يساوي بينها وبين الحريات الفردية السياسية والمدنية فقط، لكن الولايات المتحدة قلصت نطاقها وأعادت تعريفها عبر علاقتها بقوى السوق

و"التجارة الحرة". وبالرغم من الجهود المضنية التي بذلتها الدول النامية طيلة أكثر من عقدين من السنين، ما زالت الولايات المتحدة ترفض الاعتراف بأن الحق بالطعام، والمسكن، والصحة العامة الأساسية والحفاظ على الهوية والثقافة، هي أكثر أهمية من المحافظة على قوى السوق. وكانت قمة التنمية الاجتماعية التي عقدتها الأمم المتحدة في آذار/ مارس 1995، بمثابة محاولة لدمج هذه الهموم والاهتمامات وإعادة صياغة "أجندة" حقوق الإنسان. لكن، ومثلما هي الحال في كافة المحاولات المشابهة، سادت "قوى السوق العالمية" على كل ما عداها نتيجة إلحاح الولايات المتحدة. وكما لاحظ الخبير الماليزي المتخصص بالعلوم السياسية وحقوق الإنسان، تشاندرا مظفر: "ما فائدة النضال من أجل حقوق الإنسان، بالنسبة لمليارت البشر الذين يطحنهم الفقر في الجنوب، إذا لم تكن تعني تحريرهم من غائلة الجوع، والتشرد، والجهل، والمرض"[(2)].

لكن التعريف الأمريكي لحقوق الإنسان ليس ثابتا لا يتغير؛ بل هو رجراج متحرك. وهكذا، تعتبر الولايات المتحدة كفاح المسلمين في شرق تركستان ضد الصين بمثابة "قضية تتعلق بحقوق الإنسان"، لكنها ترفض اعتبار نضال الشيشان المسلمين ضد روسيا مسألة تتعلق بحقوق الإنسان. وفي الحقيقة،

يشكل المسلمون أغلبية في الشيشان وشرق تركستان، ويقاتلون في سبيل الاستقلال في كلتا المنطقتين. وعلى وجه العموم، تجاهلت الولايات المتحدة انتهاكات حقوق الإنسان في الصين، لأنها شريك تجاري متزايد الأهمية. لكن حين كانت حقوق الملكية الفكرية الأمريكية في خطر، انتقلت حقوق الإنسان بسرعة إلى الواجهة، بل تم التهديد بحرب تجارية لحث الصين على التعاون. وما إن ضمن التعاون، حتى انعكست السياسة رأسا على عقب: الولايات المتحدة تدعم الآن الحكومة الصينية ضد المسلمين في شرق تركستان. وبسبب هذا التعريف الضيق والطبيعة الرجراجة، كرر المفكرون في الدول النامية وصف أفكار الولايات المتحدة حول "حقوق الإنسان" بأن أكثر الأشكال ارتقاء وتطورا من الإمبريالية الأمريكية المفرطة القوة. فهي تحدد وتعرف حقوق الإنسان كما ترغب، ثم تستخدم اللغة الوجدانية/ العاطفية لحقوق الإنسان كعصا لضرب أية دولة لا تذعن لسياستها الاقتصادية.

الفكرة العالمية التي جرى التبجج بها كثيرا حول "حرية الصحافة" تعامل بطريقة مشابهة. فحين يتعلق بالأمر بالدول الأخرى، تعرف بوصفها حاجة عالمية شمولية. أما عندما تؤدي حرية الصحافة إلى انتقاد أمريكا، تصبح أمرا تخريبيا خطيرا.

وهكذا بذلت الولايات المتحدة قصارى جهدها لمنع قناة الجزيرة الفضائية، وهي القناة الفضائية المستقلة الوحيدة في العالم العربي، من بث الأخبار من أفغانستان ومارست ضغوطا هائلة على الحكومة القطرية لـ"كبح جماح" الجزيرة، بل وصل بها الأمر في نهاية المطاف إلى حد قصف مكتبها في كابول. في أوائل عام 2002، أغلقت الولايات المتحدة المجلة الفلسطينية الأسبوعية المستقلة "أخبار الخليل". وأوضحت السلطة الفلسطينية أن "المخابرات المركزية الأمريكية قد أوصت بإغلاق المجلة بسبب انتقادها الصريح لإسرائيل ولسياسة الولايات المتحدة تجاه الشعب الفلسطيني"[3]. وأعلن رئيس التحرير وليد عمايرة: "من المؤسف أن تقوم الولايات المتحدة التي تقدر قيمة حرية الصحافة في وطنها بالاستئساد على السلطة الفلسطينية ودفعها لكبت الحرية في فلسطين. ماذا حل بالتعديل الأول للدستور الأمريكي، أم أنه لا ينطبق على غير الأمريكيين؟"[4].

الطريقة الفريدة المنطلقة من المصلحة الذاتية التي تعرف بها أمريكا وتعيد تعريف حقوق الإنسان، ثم تستخدمها كأداة في سياستها الخارجية، تبعث رسالة مزدوجة إلى العالم، فهي تشير من جهة إلى أن التقيد بالشروط التي تفرضها حقوق الإنسان يلزم الدول الأخرى عموما لا أمريكا؛ في حين أنها ترسل من جهة

ثانية إشارة واضحة للدول النامية: يجب تبني السياسات الاقتصادية التي توصي بها أمريكا، حتى على حساب حقوق الإنسان. ليس من المفاجئ أن تولد هذه المقاربة قدرا كبيرا من الكراهية للولايات المتحدة.

سلطة التعريف والتحديد تمتد أيضا لتشمل التمثيل: أمريكا تحدد الطريقة التي ينبغي عبرها رؤية وتصوير وتمييز "الآخر". الولايات المتحدة هي الراوي الذي يقص الحكايا إلى العالم. ومعظم القصص الذي يحكيها إما مستمدة من تجاربها الخاصة، أو تعطى - إن استولت عليها من الثقافات الأخرى - سياقا أمريكيا خاصا. مرجعية تعريف وتحديد الآخرين تبعا للمدركات والاهتمامات والمصالح الأمريكية كثيرا ما تؤدي إلى أبلسة مجموعات كاملة من الناس. لنفكر مثلا بالطريقة التي يعتبر من خلالها كافة العرب "أصوليين"، أو يتهم الذين يضعون سيطرة الشركات الأمريكية على العلم موضع المسائلة بالعداء للعلم، أو أولئك الذين يعترضون على السياسة الأمريكية الخارجية بأنهم "مفلسون أخلاقيا"، أو"عدميون"، أو "حمقى"، مثلما رأينا في الفصل الأول.

تشغّل الولايات المتحدة سياستها الخارجية وتتصل بباقي دول العالم على أساس القاعدة المكوَّنة من التصنيفات المفهومية

الأربعة التي ناقشناها آنفا. وغدت هذه حقائق بدهية بالنسبة لأمريكا: فهي مكملة لهويتها الذاتية تماما "كالحقائق البدهية" - مثل "كل البشر ولدوا متساوين" - التي تحدث عنها الآباء المؤسسون (لكنهم قدموا أيضا ضمانا دستوريا لرفضها عند الممارسة!). وبقدر ما يستطيع البشر التفكير بالمفاهيم النظرية، والتحرك ضمن إطار المعتقدات النموذجية، فإن هذه التصنيفات غدت بالنسبة لأمريكا طبيعية مثل عملية التنفس. ولهذا السبب يبتهج الأمريكيون حين يستهلكون معظم موارد العالم، ويصرون على الحصول على النفط بأسعار زهيدة، وينتظرون أن يزودوا بتشكيلة متنوعة لا حد لها من الأغذية المصنعة الرخيصة الثمن - لأن أمريكا هي الكون. ومثلما كانت كل القصص، وكافة التجارب الإنسانية، إرهاصا مبشرا بتأسيس الولايات المتحدة، كذلك فإن كافة أشكال المستقبل هي في الجوهر مستقبل الولايات المتحدة. وفي التحليل النهائي، تنظر أمريكا إلى بقية سكان العالم مثلما نظرت إلى الهنود الحمر: "أطفال الطبيعة" الذين يمكن تلقينهم وضمهم إلى الحضارة حسب متطلبات ذلك المستقبل الأمريكي.

ليس من المفاجئ أن يسعى العالم ليكون مختلفا. والمجتمعات المختلفة تجد اعتراضات مختلفة في فئات المفاهيم

الأربعة. على سبيل المثال، تلعب الأسباب الوجودية دورا مهما في تأجيج مشاعر الكراهية لأمريكا في أفريقيا والدول الأكثر فقرا في آسيا وأمريكا اللاتينية. في حين ولدت الأسباب الكوزمولوجية مقتا شديدا لها في أوروبا، خصوصا في أوساط اليساريين وحماة البيئة. وتعتبر الأسباب الأنطولوجية مسؤولة عن مشاعر العداء لأمريكا في العالم الإسلامي، إضافة إلى أوروبا. لقد ولدت سلطة أمريكا في تعريف المفاهيم والأفكار الرئيسية استياء هائلا في الصين والهند وبين المسلمين عموما. وحين تؤخذ بصورة جمعية، تضمن الخطط المفهومية الأربع أن يكون العداء لأمريكا عالميا شموليا مثل الرغبة في استنشاق الهواء النقي الخالي من التلوث.

من الواضح أن استمرار هذا الكره ليس في مصلحة العالم. لكن هل يمكن تجاوز أسواره؟ الكراهية، كما حاولنا أن نثبت، هي جملة من الآراء والأفكار المصحوبة بتحيز عاطفي/ وجداني يشتغل في علاقة مستمرة، كجزء من سياق التفاعل. لكنها تبسط الأمور دوما. وبالتالي، لدينا وجهة نظر العالم الأقل تطورا التي تعتبر أمريكا الشيطان الأكبر، الدولة المفرطة القوة، العنصر المسبب لكل ما هو خطأ وباطل، التي تمنع في كل مكان حق تقرير المصير والحلول الإنسانية العقلانية

المسؤولة. ولدينا من وجهة نظر أمريكا، الأجوبة الوحيدة لمستقبل البشرية: الحرية، الديمقراطية، التحرر، حرية الكلام والتعبير، قوى السوق الحر، كلها تتعرض لهجوم الأعداء الأشرار الذين تجاوزوا نطاق الإقناع الأخلاقي وبالتالي يجب استئصال شأفتهم وإبادتهم للحفاظ على الخير والطيبة والصلاح، وهي فضائل معرضة إلى ما لا نهاية للهجوم بسبب انفتاحها وصدقها. تلك هي نسخة "كاريكاتورية" عن الواقع الحقيقي يقدمها الطرفان معا. لكن في عالم تهيمن عليه المقتطفات الموجزة من المقابلات، وفترات الانتباه والتركيز القصيرة، والصحافة الخاضعة للسيطرة الصارمة، تزداد النسخة "الكاريكاتورية" قوة باطراد لأنها تبدو قصة استحواذية ومعقولة وقابلة للتصديق وتفسر كل شيء. الترياق هو أن تتعلم حب التعقيد وترفض أن ترعبك قصص الغيلان والأشباح، والمسوخ المختبئة تحت السرير. وعلى رأي أحد الحكماء: ليس لدينا "شيء نخافه سوى الخوف ذاته". الغرض الكلي من القصص المبسطة المسطحة هو أن تجعلنا، وتبقينا، خائفين مذعورين يرعبنا العالم المعقد الكبير الهائل القابع هناك.

تصنع الكراهية من الناس الذين تشمل اختلافاتهم عنا القيم المشتركة، والطموحات والمشاعر الإنسانية المتشابهة،

مسوخا لهم كتلة صلبة وصلدة وجامدة. لكن بمقدورنا، من أجل تجاوز القوالب المنمطة، أن نبدأ بتفكيك واحد من أثمن وأغلى المثل الإنسانية - كل الناس ولدوا متساوين - وفهمه بطريقة أكثر تعقيدا. "كل الناس ولدوا متساوين" حقيقة "بدهية" وخالية من المعنى في آن إن بقيت "بدهية" عوضا عن أن تستكشف، وتوضع محل المساءلة، ويسمح لها بالتعبير عن الاختلاف والتنوع. بالفعل، كل الناس ولدوا متساوين، لكنهم عاشوا تحت ظروف يتأصل فيها عدم المساواة بين البشر، وهذا ميراث التاريخ الحقيقي. المساواة في الفرص، وحق الجميع بالتساوي بأن يكونوا أنفسهم، والحرية المتساوية لتعريف لمعتقداتهم كما يفهمونها والعيش تبعا لها، كل ذلك يتطلب أكثر من مجرد معاملة كل فرد بالتساوي. الخطاب الليبرتاري الطنان حول الحقوق المتساوية والبدهية التي تشير إلى أن الناس ولدوا متساوين، يمكن أن يكون نظريا تجريديا، يفتقد الليبرالية، والتسامح، والمساواة، مثله مثل أي نظام أيديولوجي. العالم الذي يولد فيه الناس متساوين يمكن أن يكون عالم الاختلاف، حيث للتنوع حقوقه أيضا. ومن أجل أن يشعر الجميع بأنهم يعاملون بنزاهة وعدالة ومساواة، من الضروري التكيف مع الواقع ورؤية نفس المثل الأعلى، ونفس الغاية، يتحققان عبر وسائل مختلفة في أماكن مختلفة. وسيكون هذا العالم غير

قابل لأن يعرف بعبارة وجيزة، عالم يعتمد على ضرورة معرفة بعضه بعضا، والأهم من كل ذلك، أن يكون مستعدا للقبول بوجوب إرجاء الحكم على الناس الآخرين.

تشتغل الكراهية وتسود عند الشعور بعدم الأمان وسيطرة جنون الارتياب. فهي تخلق خطابا سياسيا مؤسسا على الدفاع عن الذات، والضربات الاستباقية، والمواقف العدوانية. وحين يهيمن الإحساس بعدم الأمان وجنون الارتياب، يصبح الحوار "حوار طرشان"، وتحكم التفاوضَ والمشاورة الخطبُ الرنانة المتبادلة، والشتائم والإهانات، والذم والقدح واللوم. الكراهية تولد عوالم تتوازى في تبرير الذات وذهنية "الإقناع بالقنابل". والإحساس بعدم الأمان وجنون الارتياب يجعلان الضربة الاستباقية الخيار الأول في ساحة سياسية تمتلك كل صفات وسمات ملعب الأطفال الخاضع لأخلاقيات استئساد القوي على الضعيف. فهل يوجد في مثل هذا العالم أي أمل بتجاوز سور الكراهية؟ ثقافة العنف والخطاب السياسي التهييجي المعتمد على مبدأ "الإقناع بالقنابل"، ينبغي مقاومتهما ومعارضتهما في كل مكان. لكن يستحيل معارضتهما بدون الالتزام الحقيقي بوسائل التواصل البديلة. ينبغي أن تصبح الميادين والمؤسسات السياسية فاعلة

ومؤثـرة وسـريعة الاسـتجابة، وقـادرة عـلى الفعـل والتصـرف، ومبادرة إلى تبني أسلوب التفاوض والتسوية والحل الوسط.

الـثقة نقـيض الكراهـية. والمشـكلة الراهـنة تتمـثل في أن العـالم فقـد ثقـته بأمـريكـا، وبرغبـتها أو قدرتهـا عـلى اسـتخدام قوتهـا الهائلـة بصـورة مسـؤولة، أو اسـتخدامها في الواقـع لتحقـيق أهـداف لا تتصـل بـالدوافع الأنانية، وإدراك الصـالح العـام بوصفه شـيئا يخـتلف عـن المصـلحة الذاتـية. وباعتـبارها دولـة مفرطة القوة تطغـى على العـالم عسـكريا وسياسـيا واقتصـاديا وثقافيا، تحظى أمـريكا بحضـور حقـيقي يقـتحم حـياة كـل الأمـم والشـعوب في العـالم. ومـا تمـتلكه مـن ثـروة ووفـرة همـا نتيجة علاقاتها مع باقي دول العـالم. ولذلـك لا يمكـن لأمـريكـا أن تخـتار الارتـباط أو الانفصـال عـن عواقـب وتبعات الـنظام العـالمي الـذي يحفـظ ويديم أسـلوبها الحـياتي. "لا ضـرائب بـدون تمثـيل 'نـيابي'"، هـكـذا صـرح المـتمردون السـاخطون في المسـتعمرات الإنكـليزية الذيـن أشـعلوا الـثورة الأمريكـية. وللعـالم سـبب وجـيه لقـول الشـيء نفسـه. وكـلما زاد لجـوء أمـريكـا إلى أسـاليب ملـك إنكـلترا جـورج الثالـث (1738 ـ 1820)، الـذي أججـت سياسـات حكـومته مشـاعر الاسـتياء والسـخط في المسـتعمرات الأمـريكية، مما أدى إلى انـدلاع الـثورة عـام 1776) في علاقاتهـا مـع باقي دول العـالم،

كلما زادت مشروعية الثائرين من الناقمين والساخطين عليها، في عالم يرغب بالانفصال عنها.

مشاعر الكراهية تدوم وتتأبد بفضل "المعرفة الجاهلة" العنيدة. أما تجاوز حاجز الكراهية وتعبيراته الضلالية المعاكسة فهو مهمة المعرفة الصحيحة، وإعادة التفكير بحدود ومقيدات ما تعلمناه وعرفناه، ومراجعة معلوماتنا الظنية. لقد ظل الغرب طيلة قرون يؤكد للمسلمين والهنود والصينيين وغيرهم بأن حضاراتهم تقليدية، صيّرتها نظرتها التقليدية للعالم باطلة وهزيلة وعاجزة. وفي الحقيقة، أصبحت حضارة الغرب نفسه، وخصوصا أمريكا، حضارة تقليدية، متخمة بكل تصلب وجمود وتشدد ونفاق الإحساس بصوابيتها الأصلية، الإحساس الذي ظل بكامل الجاهزية لإدانة الحضارات الأخرى. التحدي الذي يواجهه الجميع هو إحداث النقلة المعرفية من التراثوية السلفية المتزمتة - التفكير بمشكلات العصر بواسطة آراء الأسلاف الصالحين - إلى التراث الحي، واستخدام القيم والمفاهيم التي تحظى بالإكبار والإجلال كمنظومات نقدية قائمة على التساؤل والتقصي والوسائل التي تم تكييفها وتعديلها لأحداث التغيير الهادف المطلوب. إن المجادلات والحوارات والأفكار المتعلقة بتجديد التراث في العالم اللاغربي تكون عادة غائبة عن

النظر والسمع، لكن لديها الكثير لتعلمه للغرب. التراثوية التقليدية الميتة تغلق العقول، وتحجر الأفكار، ويمكن أن تؤدي إلى تدمير وإبطال وإضعاف نفس القيم التي استحضرتها باعتبارها الأكثر قداسة. يجب أن يكون الغرب عموما، وأمريكا على وجه الخصوص، على مستوى التحدي، هذا العيب في الشخصية يتبدى في أمريكا أكثر من أي مجتمع غربي آخر.

أبغض تصرفات "المعرفة الجاهلة" هو الفشل في استقصاء التاريخ ورفض الاعتراف بأن الأفعال التي ارتكبت بحق الآخرين باسم الفضيلة قد سببت أضرارا فادحة. إن إعادة كتابة التاريخ لا يعني محو كل شيء لنبدأ صفحة جديدة بيضاء؛ وفي الحقيقة هنالك طرائق يتبعها هوس الحداثة البعدية بإعادة كتابة التاريخ، تسعى لسحب الاعتراف بالتاريخ كلية، بدلا من التعامل مع المشكلات التي ورّثها لعالم اليوم. ومثلما لا نستطيع الاعتماد على البنى الفكرية وقيود ومحددات السلف الصالح لحل معضلات اليوم، بل يجب أن نخضع أفكارهم لأساليبنا الجديدة في التفكير والنقاش والنقد، كذلك ينبغي علينا حل المشكلات الموروثة المتأصلة في طرائقهم غير المعصومة عن الزلل وأفعالهم وأقوالهم الناتجة عن منظومتهم الاعتقادية. كلنا خطاؤون، أخطأنا بحق الآخرين وتعرضنا لأخطائهم. هذا لا يعني

أن علينا التخلي عن التقصي والبحث وإطلاق الأحكام لتحديد أفظع الانتهاكات المرتكبة. ومن المؤكد أنه لا يوجد مسوغ ولا منطق في الامتناع عن فعل شيء إزاء العواقب والتبعات.

الفقر واليأس يفاقمان الشعور بالإحباط. لكن الإرهاب ليس سلاح الضعيف على الدوام. فغالبا ما يكون سلاح من يعاني العزلة والاستلاب، إنه محاكاة ساخرة للقوة، الجانب المعكوس من العقيدة القائمة على مبدأ القوي وحده على حق. ليس هذا مبررا للإرهاب. لكنه يطالب بأن نكون على استعداد لإدانة الاستخدام الصارخ للقوة، والافتئات على حقوق الآخرين في كافة الأحوال والأوضاع، تماما مثلما نفعل في حالة الإرهاب. والذريعة الباطلة التي تبرر سقوط ضحايا من المدنيين في الحرب على الإرهاب، عبر القول "إن الحرب أمر فظيع ولابد من مقتل الأبرياء في الحرب، للأسف"، تماثل في باطلها تقديم الحجة على أن جميع الأمريكان يعتبرون أهدافا مشروعة نتيجة العواقب الوخيمة للسياسة الخارجية الأمريكية. وفي هذا العالم الذي تخضع فيه الحياة لازدواجية في المعايير، يجري التعامل مع الموت أيضا تبعا للمعايير المزدوجة. لقد عمي الجميع عن الحقيقة الوحيدة التي يجب أن نعترف بها: الألم والمعاناة لا يختلفان بين مكان وآخر. لا يوجد ضحايا نقبل سقوطها وأخرى نرفضه، ولا

توجد حياة يمكن التفريط بها أو القبول بخسارتها. إن السماح بسيادة مثل هذه العقيدة الخبيثة هو بالضبط ما يجعل الأعمال الإرهابية وممارسة إرهاب الدولة أمرا ممكنا. وإذا كان الإرهاب محاكاة ساخرة للقوة، فلا يمكن وضع حد له عبر استخدام أساليب القوة.

لا توجد حلول ثابتة وعاجلة. فالأمر ليس مجرد تغيير بضع سياسات في بضعة أماكن. أولا، ستكون هذه بمثابة مسكنات؛ ربما تكسب الوقت لكن لا تمنع من حدوث أعمال إرهابية جديدة. ثانيا، حتى تغيير بضع سياسات في بضعة أماكن ليس عملية سهلة. إذ إن أكثر السياسات وضوحا، كدعم أمريكا لإسرائيل على سبيل المثال، قد ثبت أنها من أصعب وأعقد المشكلات على الإطلاق. ومن الوهم الظن بأن التغيير سيكون سريعا، أو يسيرا، أو غير مؤلم، وحتى البداية الصادقة للعملية لا يمكن أن تضمن الأمن والأمان. لكن القبول بتحليل وتقصي المشكلة التي طرأت على الطريقة التي نتعايش عبرها في هذا العالم يمكن أن يثبت على الأقل التزامنا بالعمل من أجل التغيير. وبدون الاستعداد والرغبة في التفكير، والتعلم، والإصغاء، واحترام الفوارق الحقيقية فيما بيننا، لا يمكن صنع سياسة أفضل، أو إحداث تغيير فاعل وهادف.

من العيوب الرئيسة في فيلم "الكراهية" رفضه السماح لأبطاله ببعض المشاركة مع الآخرين في سلوكهم. فهم يرونهم بمثابة غرباء / خارجيين تبعا لمعاييرهم وتعابيرهم الجامدة الصلبة - حتى أولئك الذين يحاولون مد يد العون اعتبروا أعداء. والذين يساوون بين كافة الأمريكيين ودولتهم مذنبون بنفس الجرم. فمن الضروري تقدير حقيقة أن الولايات المتحدة بلاد شديدة التعقيد؛ وأن التجربة مع "الأمريكي" تتم على الأرجح بطرائق مختلفة من قبل شعوب وجماعات تتباين بتباين العرق، والخلفية الإثنية، والأسلاف الذين تحدرت منهم. ومن المؤكد أن التجربة تختلف حين يكون المرء أمريكيا عنها حين يكون صينيا، أو ألمانيا، أو روسيا. إذن، الجواب لا يكمن في كره أمريكا، ومعارضة استخدامها، أو سوء استخدامها للقوة. فقد كان ذلك، وما يزال، ذريعة تبريرية كبرى. وقد دفعت هذه الذريعة التبريرية المعتدلين، والمنطقيين، والمهتمين في الدول النامية إلى التخلي عن العملية السياسية والابتعاد عن النشاط الاجتماعي نتيجة الاعتقاد الراسخ بعدم إمكانية تحقيق تغيير مهم. وفي حين تبقى الأغلبية الصامتة صامتة، مهما كانت وجاهة أسبابها، فإنها سلمت الزمام والفعل إلى المتطرفين.

يوجد العديد من التنويعات والدرجات فيما يتعلق بالتورط في التطرف المتنامي باطراد. هنالك نزوع للتطرف في العالم الإسلامي وغيره من مجتمعات العالم الثالث، وهنالك ميل للتطرف في الولايات المتحدة. لكن الانسحاب من العملية السياسية ليس مشكلة تقتصر على العالم الثالث وحده. فهو يحدث في أمريكا أيضا. والضغوط التي تمارسها مختلف المصالح الشخصية المتنافسة في الولايات المتحدة ليست جدلا سياسيا، بل هو مزاد في ماخور. فالسياسة الخارجية بدون تدقيق وتفحص لصناديق الاقتراع تتحول إلى "وصفة" ناجعة لطغيان السلطة الاستبدادية التي تصل إلى الحكم عن طريق الانتخابات المزيفة. وإذا لم يكبح جماح إساءة استخدام القوة في بلاد تسمي نفسها المنارة الوهاجة للحرية والديمقراطية، فليس ثمة أمل كبير في سيادة المشورة الحصيفة حين تنعدم الديمقراطية والحرية. ليس هذا مسوغا تبريريا لعدم اتخاذ الإجراء المناسب، في أمريكا أو سواها، لجعل السياسة عملية وثيقة الصلة بموضوعها، وخاضعة للمحاسبة، وسريعة الاستجابة. إن الامتناع عن الانخراط في حل مشكلة أمريكا - في العالم عموما وفي الولايات المتحدة ذاتها - يسلم راية النصر للمتطرفين، الذين يجيبون بالخطاب الوحيد الذي تفهمه أمريكا على ما يبدو:

العنف. لقد ساهمنا جميعا في خلق عالم تحكمه شريعة المسدس بدون ضوابط ولا قيود.

في أمريكا أيضا أصوات تعبر عن الضمير الإنساني بالطبع، وبنياتها الأصغر حجما، وجمعياتها المنشقة، والمعارضون من مثقفيها وكتابها ومفكريها تشغلهم الحالة المأزقية الصعبة التي يعيشها العالم، ويسعون للحد من القوة المفرطة لأمريكا وإمبرياليتها. وفي الحقيقة، استشهدنا عامدين وأشرنا إلى بعض من هؤلاء في فصول الكتاب، كبينة جوهرية دامغة تثبت أن أمريكا ليست كتلة صلبة جامدة أيضا. لكن قرارنا بالتركيز على المنتقدين الأمريكان لأمريكا يمضي مسافة أبعد. أولا، يشير إلى أن هناك جماعات جديدة من الأنصار والمؤيدين يمكن إنشاؤها عبر الحدود الوطنية والثقافية، وبدائل تحل محل المواجهة المباشرة الخطيرة المعتمدة على أساليب استخدام القوة المفرطة. هنالك خيارات أكثر عددا من تلك التي وصفها جورج بوش وحددها على طريق "الخط المرسوم على الرمال".

ثانيا، وحتى الأهم، تتواجد المشاكل القائمة بين أمريكا وباقي العالم داخل أمريكا أيضا. فأمريكا ليست العالم، ولا يمكن لها أن تكونه. وهذا جزء من الجواب عن كل المشكلات. أمريكا ذاتها تقاسي من التشظي والمشاكل

والانقسام المتزايد إلى جماعات ومجتمعات محلية متباعدة لها أفكارها ومصالحها واهتماماتها المتباينة، وتعاني أزمة هوية على نفس خطوط التصدع والقضايا التي تؤثر في علاقاتها مع باقي العالم. ولقد أشرنا إلى تحسر ارثر شليسنجر على "تفكيك وحدة أمريكا". إذ لاحظ السياسيون والمعلقون تباعد الهوة المتسعة بين وجهتي نظر الثقافتين ـ الليبرالية والمحافظة ـ حول العالم، الأمر الذي يؤدي إلى جر الأمة نحو اتجاهين متعاكسين حول قضايا عديدة، من الإجهاض إلى الصلاة في المدارس. لقد قمنا بمعاينة نهضة التعليم المؤسس على التفوق الثقافي الإفريقي كواحد من العديد من التبدلات الجوهرية التي طرأت على رؤية ثقافية تعددية تستهدف إعادة تقييم الهوية. وهناك انتشار للميليشيات المسلحة القائمة على سياسة ضمان البقاء الذاتي التي تؤسس قواعد لها في جمهوريات مصغرة في البراري الأمريكية المقفرة، وهي تعتبر الحكومة الأمريكية عدوا للحرية، وتوجه نحوها بكل حماس سهام كراهيتها؛ وكما أشرنا، فإن فلسفة المنادين بالبقاء الذاتي المستقل هي التي حرضت الهجوم الإرهابي في مدينة اوكلاهوما. كل هذه عبارة عن مشكلات مشابهة تتطلب نفس الحلول العلاجية التي ناقشناها في معرض حديثنا عن علاقات أمريكا بالأمم والثقافات الأخرى فيما وراء الشواطئ الأمريكية. يتوجب على أمريكا فعل الكثير كي

تفعّل ديمقراطيته، وتتصالح مع ذاتها، وتتضح هويتها الذاتية، مثلما ينبغي عليها التفاهم مع باقي دول العالم.

يبدأ فيلم "الكراهية" ويختتم بقصة رجل يسقط من ناطحة سحاب. وظل يقول وهو يهوي "الأمور على ما يرام حتى الآن، الأمور على ما يرام حتى الآن". ويبدو أن الفيلم يقول: لا تهم كيفية السقوط، ولا كيف حدث وانتشرت مشاعر الكراهية. المهم حقا هو كيف تحط على الأرض. إن مفتاح المستقبل المعقول القابل للتحقيق لنا جميعا يكمن في تجاوز حاجز الكراهية. ونظرا لأن أمريكا هدف ومصدر كراهية العالم، يجب عليها تحمل مسؤولية نقلنا جميعا خارج أسوارها. أمريكا بحاجة لأن تخرج نفسها من شرنقة علمها الذي لفته حولها، لتصلي مع القديس فرانسيس•:

يا إلهي، امنحني ما لم أسع إليه أبدا
أن يواسيني الناس كما أواسيهم
ويفهموني كما أفهمهم
ويحبوني كما أحبهم من صميم روحي[(5)].

• قديس أسيسي، وهي بلدة في إيطاليا تقع إلى الجنوب الشرقي من بيروجيا.

الهوامش

المقدمة

1. انظر:
Robert Fisk, 'Fear and Learning in America', The independent, 17 April 2002.

2. وردت في المصدر السابق.

3. انظر:
Beverley Beckham, Boston Globe, editorial section, 21 September 2001, p. 35.

4. انظر:
'US policy played "significant role" in terror attack', International Herald Tribune, December 2001.

الفصل الأول

1. وردت في:
Geraldine Bedell, 'The affairs of state', The Observer, Review section, 17 March 2002, p 10.

2. انظر:
Richard Brookhiser, The New York Observer, 17 September 2001.

3 ـ انظر:

Thomas Friedman, Chicago Tribune, 13 September 2001.

4 ـ انظر:

Robert Kaplan, NPR, 'Weekend Edition Sunday', 23 September 2001.

5 ـ انظر:

Karina Rollins, The American Enterprise, December 2001.

6 ـ انظر:

Fareed Zakaria, Newsweek, 15 October 2001.

7 ـ انظر:

Don Feder, Insight, 5 November 2001.

8 ـ الشبكة التلفزيونية التي بثت جلسة مجلس النواب ومجلس الشيوخ على الهواء مباشرة.

9 ـ يعرف أيضا باسم القانون المعدل للعاملين في القوات المسلحة لعام 1994 ، الذي وفر التعليم الجامعي لقدماء المحاربين الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية.

10 ـ انظر:

Victor Davis Hanson, 'Defending the West: Why the Muslims Misjudge Us', City Journal, 25 February 2002; www. Opinionjournal.com

11. انظر:

Chalmers Johnson, NPR, 'All Things Considered', 12 October 2001.

12. انظر:

Noam Chomsky, 9 .11(New York: Seven Stories Press, 2001), p. 31.

13. وردت في المصدر السابق، ص23.

14. تعرف اختصارا باسم "COITELPRO" (الأحرف الأولى من "برامج مكافحة التجسس")، وهي إدارة محلية تابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، ركزت جهودها عموما على الجماعات الراديكالية اليسارية واستهدفت تحييد المعارضين السياسيين.

15. انظر:

Dennis Kucinich, 'A prayer for America', 17 February 2002.

يمكن قراءة الخطبة كاملة على موقع:

Ihttp://www.house.gov/kucinich/press/speeches.htm

16. انظر:

Mary Beard, London Review of books, 4 October 2001, p. 20.

17 . انظر:

Amit Chaudhuri, London Review of Books, 4 October 2001, p. 21.

18 . انظر:

Doris Lessing, Granta, 77, Spring 2002, p. 54.

19 . انظر:

Harold Pinter, Granta, 77, Spring 2002, p. 68.

20 . انظر:

Joe Klein, The Guardian, G2, 4 February 2002, p. 2.

21 . انظر:

The Guardian, G2, 17 January 2002, p. 1.

22 . انظر:

Ann McLennan, 'War on Terror', London Free Press (Canada), 5 November 2001, p. E8.

الفصل الثاني

1 . انظر:

Peter Brunette, 'Downright Offensive', review for film.com at www.film.com

2 . وردت في مقالة توماس غورغويسيان، "بأية طريقة يريدون - مراجعة نقدية لقواعد الاشتباك"، الأهرام الأسبوعي، 479، 27 أبريل 2000.

3 . المصدر نفسه.

4 . المصدر نفسه.

5 . المصدر نفسه.

6 . المصدر نفسه.

7 . "الحملة الهادفة لتخريب الإسلام كعقيدة ونظام"، منشور أصدره "أعضاء حزب التحرير في بريطانيا" بتاريخ 2001/10/16

8 . انظر:

Elaine Sciolino, 'A Voice to Calm the Angry American', New York Times, 17 March 2002.

9 .

Chris Toensing, The Boston Globe, 16 September 2001.

10 . المصدر نفسه.

11 . انظر:

Toronto Star (Ontario edition), 30 November 2001.

12 . ادوارد سعيد، "فكرة حول أمريكا"، الأهرام الأسبوعي، 2/28 ـ 2002/3/6.

13 . انظر:

Ann Coulter, 'This is war', National Review, 13 September 2001. Available at www.nationalreview.com/coulter

14. انظر:

Rich Lowry, 'Lots of sentiment for nuking Mecca', National Review online, 'Question 1, Follow .up'. www.nationalreview.com/thecorner

15. سعيد، مصدر سابق.

16. انظر:

Norman Daniel, Heroes and Saracens (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1984); and Islam and the West (Oxford: One World, 1993; original edition, 1960).

17. انظر:

Richard Herrnstein and Charles Murray, The Bell Curve: Intelligence and Class Structure in American Society (New York: Free Press, 1994).

18. انظر:

Joseph S. Nye, The Boston Globe (third edition), 16 September 2001.

19. انظر:

Barbara Gunnell, 'Take Cover: Evil in Black', New Statesman, 11 February 2002, pp. 16.17.

20. انظر:

Ronald J. Herring, 'International Education Week: Freedom and Terror', a statement at www.einaudi.cornell.edu/iew

21. انظر:

Joseph Joffe, 'Who's Afraid of Mr. Big?', The National Interest, 64, Summer 2001, p. 43.

22. بيل كلينتون، خطاب في جامعة كاليفورنيا (سان دييغو)، 1997/6/14.

23. لين دول، مقابلة شخصية مع المؤلفَيْن (عبر البريد الإلكتروني)، 22/2/ 2002.

الفصل الثالث

1. فضيحة إيران- كونترا التي كشفت عام 1986، شملت عمليات سرية قامت بها حكومة الولايات المتحدة لبيع الأسلحة إلى إيران والمتمردين المناهضين لحكومة نيكاراغوا، وذلك في تعارض صريح مع السياسة المعلنة للولايات المتحدة وانتهاك سافر للقيود المفروضة على تصدير السلاح، كما ورطت مسؤولي إدارة الرئيس ريغان في أنشطة غير مشروعة.

2. انظر:

Johan Galtung, Searching for Peace (London: Pluto Press, 2001).

3.

Boutros Boutros .Ghali, Unvanquished: a US .UN Saga (New York: Random House, 1999).

4.

William Blum, Rouge State (London: Zed Books, 2001), pp. 18597.

5 ـ المصدر نفسه، ص198.

6 ـ وردت في:

Andrew Simms, Tom Big and Nick Robin, It's Democracy, Stupid (London: New Economic Foundation, 2000), p. 6.

7 ـ انظر:

Financial Times, 15 August 2000.

8 ـ انظر:

Economist, 18 September, 1999.

9 ـ إد مايو، مقابلة شخصية مع المؤلفين، 2002/3/20.

10 ـ اندرو سيمز، مقابلة شخصية مع المؤلفين، 2002/3/20.

11 ـ مايو، مرجع سابق.

12 ـ انظر:

Jimmy Carter, Christian Science Monitor, 29 December 1999.

13 ـ الموقع الرسمي للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) على الويب:

www.usaid.gov

14 ـ أقوال الصبان، ولارسون، وبرودي، وبوش وردت في:
Peter Schwarzer's 'Read my Lips' column, 'Kyoto Treaty: Dead - or Comatose', at
www.theglobalist.com/nor/readlips

15 ـ انظر:
Andrew Kimbrell, The Human Body Shop: The Engineering and Marketing of Life (Penang: Third World Network, 1993).

16 ـ جيم داتور، مقابلة شخصية مع المؤلفين، 2002/2/28.

17 ـ انظر:
Ben Bagdikian, The Media Monopoly (Boston: Beacon Press, 1983; fifth edition, 1997).

18 ـ انظر:
Mark Cripin Miller, The Nation, 7 January 2002.

19 ـ انظر:
Philip Knightly, 'Losing Friends and Influencing People', Index on Censorship, January 2002, 31 (1), pp. 146-55.

20 ـ انظر:
Robert McChesney, 'Global Media, Neoliberalism and Imperialism', Monthly Review, 52, 10 March 2001.

21 ـ المصدر نفسه.

الفصل الرابع

1 ـ انظر:

'Can Charlotte Beers Sell Uncle Sam?', Time, 14 November 2001.

2 ـ انظر:

'Charlotte Beers' Toughest Sell', Business Week, 17 December 2001.

3 ـ انظر:

New York Times, 15 November 2001.

4 ـ المصدر نفسه.

5 ـ انظر:

'A Travel of Justice', New York Times, 16 November 2001.

6 ـ انظر:

Geoffrey Robertson QC, 'Justice and Revenge: International Law After Tuesday 11th September 2001', The 25th Thomas Corbishley Memorial Lecture (London: The Wyndham Place Charlemagne Trust, 2001), pp. 7.8.

7 ـ المصدر نفسه ص9.

8 ـ المصدر نفسه، ص9.

9 ـ انظر:

William Blum, Rouge State (London: Zed Books, 2001), pp. 168 .78.

10 ـ انظر:

Paul Kennedy, 'The Eagle has Landed', Financial Times, Weekend section, 3 February 2002.

11 ـ انظر:

Edward Helmore and Kamal Ahmed, 'Outrage as Pentagon Nuclear Hit List Revealed', The Observer, 10 March 2002.

12 ـ انظر:

Naomi Klein, 'America is not a hamburger', The Guardian, 14 March 2002.

13 ـ انظر:

George Ritzer, 'Obscene from any angle: fast food, credit cards, casinos and consumers', Third Text, 51, Summer 2000, pp. 1728.

14 ـ مارغريت ويرتهايم، مقابلة شخصية مع المؤلفين (عبر البريد الإلكتروني)، 2001/12/12.

15 ـ المصدر نفسه.

16. انظر:

Philip H Gordon, 'Liberte Fratemite Anxiety!', Financial Times, Weekend section, 19 January 2002, p. 1.

17. ويرتهايم، مصدر سابق.

18.

'Youth: The Wilder Ones', Asia week, 25 May 1994, pp. 2433.

19.

John Sutherland, 'Linguicide: the death of Language', The Independent on Sunday, LifeEtc section, 10 March 2002, p. 1.

20. المصدر نفسه.

21.

William Gibson, 'Disneyland With a Death Penalty', The Observer, Life section, 14 August 1994.

22. ستيف فوللر، مقابلة شخصية مع المؤلفين (عبر البريد الإلكتروني)، 2002/4/3.

23. ويرتهايم، مصدر سابق.

24. كل الشواهد من المنشورات الدعائية لـ"الملك القرد" على موقع: www.hallmarkent.com

25. ويرتهايم، مصدر سابق.

26. المصدر نفسه.

27. المصدر نفسه.

28. بيعـت سلسـلة مطـاعم "ويمـبي" إلى مجموعـة "غـراند ميتروبوليـتان"، المالكـة لمطـاعم "برغـر كيـنغ" عـام 1989، ومعظمها أعيد تصميمه ليبدو مثل "برغر كينغ". لكن مازالت بعض مطاعم "ويمبي" مفتوحة. انظر:

Paul MacInnes, 'Lunch is for Wimpys', The Guardian, 1 February 2002.

الفصل الخامس

1. انظر:

Lewis Lapham, Waiting for the Barbarians (London: Verso, 1997), p. 220.

2.

Norman Daniel, Islam and the West: The making of an Image (Oxford: On World, 1993), p. 17.

3. المصدر نفسه، ص11.

4.

Islamophobia: A Challenge to Us All, Report of the Runnymede Trust Commission on British Muslims and Islamopgobia, London, 1997.

5 .

Daniel, Islam and the West, p. 17.

6 . رسالة جون رولف إلى السير توماس ديل، من مخطوطة اشمول، أعيد طبعها في:

Philip L. Barbour, Pocahontas and Her World (Boston: Houghton Mifflin, 1970), Appendix III, pp. 247-52.

7 . انظر:

John Winthrop, A Model of Christian Charity (1630) (Boston: Collections of Massachusetts Historical Society, 1838), third series, 7, pp. 31-48.

8 . انظر

Jimmie Durham, 'Cowboys and …', Third Text, 12, Autumn 1990, pp. 5-20.

9 . المصدر نفسه.

10 .

Peter Mathiesson, Forward to Oren Lyons et al., Exiled in the Land of Free (Santa Fe: Clear Light Publishers, 1992), p. xi.

11 . وردت في:

Lewis Hanke, Aristotle and the American Indians (Bloomington: Indiana University Press, 1975), p. 16.

12 ـ وردت في المصدر السباق، ص112.

13 ـ انظر:

Vince Deloria Jr, 'Indian Law and the Reach of History', Journal of Contemporary Law, 4, 1977.78, pp. 1.13.

14 ـ وردت في:

Garrett Mattingley, Renaissance Diplomacy (Chapel Hill: North Carolina University Press, 1955), p. 290, and in Hanke, op. cit., p. 100.

15 ـ ديلوريا، مصدر سابق، ص1.

16 ـ دورهام، مصدر سابق، ص ص5 ـ20.

17 ـ المصدر نفسه.

18 ـ انظر:

Daniel k. Inouye, Preface to Oren Lyons et al., op. cit., p. ix.

19 ـ انظر:

David E. Wilkins, American Indian Sovereignty and the US Supreme Court: The Masking of Justice (Austin: University Texas Press, 1997), p. 3.

20 ـ المصدر نفسه، ص5.

21 ـ رسالة جون رولف إلى السير ادوارد سانديز، وردت في:

H. C. Porter, The Inconstant Savage: England and the North American Indian (London: Duckworth, 1979), p. 340.

22. اليعقوبي الراديكالي الويلزي، ايولو مورغانوغ، الذي امتلك متجرا لفترة من الزمن، اعتبر أن ضميره لا يسمح له ببيع السكر المنتج في مزارع العبيد؛ وأعلن عن هذه الحقيقة من خلال عرض لافتة كبيرة كتب عليها (عن بضاعته): "غير ملوثة بالدماء البشرية".

23. انظر:

Preface to William Brandon, The American Heritage Book of Indians (New York: Dell, 1961).

24. انظر:

Daniel Lazare, The Frozen Republic: How the Constitution is Paralyzing Democracy (New York: Harcourt and Brace, 1996), p. 9.

25. المصدر نفسه، ص9.

26. وردت في:

Bruce E. Johansen, Debating Democracy: Native American Legacy of Freedom (Santa Fe: Clear Light Publishers, 1998), p. 9.

27. وردت في المصدر نفسه، ص10.

28. المصدر نفسه، ص187.

29 ـ انظر:

Arthur M. Schlesinger Jr, The Disuniting of America: Reflections on a Multicultural Society (New York: Whittle Books, 1998), p. 134.

الفصل السادس

1 ـ انظر:

Percy Adams, Travelers and Travel Liars 1660 ـ1800 (New York: Devor, 1980).

2 ـ

John O'Sullivan, 'Annexation', United States Magazine and Democratic Review, July ـAugust 1845, Vol. 17, Issue 085ـ086, pp. 5ـ10.

تؤكد جامعة كورنيل وجود أرشيف يمكن دراسته عن هذه المجلة على موقع: http://cdl.library.cornell.edu

3 ـ انظر:

John L. O'Sullivan, 'The Great Nation of Futurity', United States Magazine and Democratic Review, November 1839, Vol. 6, Issue 23, pp. 426ـ30.

4 ـ

Richard Slotkin, Regeneration Through Violence: The Mythology of the American Frontier 1600ـ1860

(Middletown, CT: Wesleyan University Press, 1973), p. 25.

5. وردت في:

Gore Vidal, The Decline and fall of the American Empire (Chicago: Odonian Press, 2000), p. 18.

6. وردت في المصدر نفسه، ص16.

7. انظر:

David Sterritt, Christian Science Monitor, 26 September 2001.

8.

Richard Slotkin, the Chronicle of Higher Education, 28 September 2001.

9. وردت في المصدر نفسه.

10. انظر:

Lewis Lapham, Waiting for the Barbarians (London: Verso, 1997), pp. 29 30.

11. المصدر نفسه، ص31.

12. المصدر نفسه، ص30.

13. وردت في المصدر نفسه، ص30.

14. المصدر نفسه، ص32.

15.

Slotkin, op. cit., (20001).

الفصل السابع

1. بروس تون، مقابلة شخصية مع المؤلفين (عبر البريد الإلكتروني)، 2002/2/26.

2. انظر:

Chandra Muzaffar, Human Rights and the New World Order (Penang: Just World Trust, 1993), p. 13.

3. انظر:

Walid Amayreh, The Muslim News, 29 March 2002, p. 4.

4. المصدر نفسه.

5. انظر:

St Francis of Assisi, 'Making me an Instrument of Your Peace';
www.webdesk.com/catholic/prayers

المراجع

- Ahmad, Jalal Ali. Occidentosis: A plague from the West (Berkeley: Mizan Press, 1984)
- Ali, Tariq. The Clash of Fundamentalisms (London: Verso, 2002).
- Appadurai, Arjun. Modernity at Large: cultural dimensions of globalization (Minneapolis and London: University of Minnesota Press, 1997).
- Bamford, James. Body of Secrets: Anatomy of the Ultra Secret National Security Agency (New York: Doubleday, 2001).
- Barber, Benjamin R. Jihad Vs McWorld (New York: Times Books, 1995).
- Barnet, Richard and John Cavanagh. Global Dreams: Imperial Corporations and the New World Order (New York: Simon and Schuster, 1994).
- Baudrillard, Jean. America (London: Verso, 1988).
- Baudrillard, Jean. Selected Writings, ed. Mark Poster (Oxford: Polity Press 1988).
- Baudrillard, Jean. The Transparency of Evil, (London: Verso, 1993).
- Baudrillard, Jean. The Gulf War Did Not Take Place (Sydney: Power Publication, 1995).

- Bauman, Zygmunt. Modernity and the Holocaust (Oxford: Polity Press, 1989).
- Bauman, Zygmunt. Postmodern Ethics (Oxford: Blackwell, 1993).
- Bauman, Zygmunt. Globalization: the human consequences (Cambridge: Polity Press, 1998).
- Blum, William. Rogue State (London: Zed Books, 2001).
- Bourdieu, Pier. Language and Symbolic Power, ed. John B. Thompson, trans. Gino Raymond and Mathew Adamson (Cambridge: Polity Press, 1991).
- Bourdieu, Pier. Acts of Resistance: against the new Myths of our time, trans. Richard Nice (London: Polity press, 1998).
- Bove, Jose et al. The World is Not for Sale (London: Verso, 2001).
- Brazier, Chris. The No Nonsense Guide to World History (London: Verso, 2001).
- Brzezinsky, Zbigniew. The Grand Chessboard: American Primacy and its Geostrategic Imperatives (New York: Basic Books, 1997).
- Cheikh, Anta Diop. Civilization or Barbarism: An Authentic Anthropology (New York: Lawrence Hill Books, 1991).
- Chomsky, Noam. Necessary Illusions (London: Pluto Press, 1989).
- Chomsky, Noam. Deterring Democracy (London: Verso, 1991).

- Chomsky, Noam. World Orders, Old and New (London: Pluto Press, 1994).
- Chomsky, Noam. 9 .11 (New York: Seven Stories Press, 2001).
- Cooly, John K. Unholy Wars: Afghanistan, America and International Terrorism (London: Pluto Press, 1999).
- Dalby, Andrew. Language in Danger: How Languages Loss Threatens Our Future (London: Allen Lane, 2002).
- Daniel, Norman. Islam and the West (Oxford: One World, 1993; original edition, 1960).
- Daniel, Norman. Heroes and Saracens (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1984).
- Doherty, Thomas. Projection of Wars: Hollywood, American Culture, and World War II (New York: Columbia University Press, 1993).
- Durham, Jimmie. 'Cowboys and…' (Third Text, 12, Autumn 1990, pp. 5 .20).
- Ellwood, Wayne. The No .Nonsense Guide to Globalization (London: Verso, 2001).
- Fukuyama, Francis. The End of History and the Last Man (London: Hamish Hamilton, 1992).
- Granta. What We Think of America (London: Granta, 2002).
- Halliday, Fred. Two Hours that Shook the World (London: Saqi Books, 2002).

- Hanke, Lewis. Aristotle and the American Indians (Bloomington: Indiana University Press, 1975).
- Henry III, William A. In Defense of Elitism (New York: Doubleday, 1994).
- Hughes, Robert. Culture of Complaint (Oxford: Oxford University Press, 1993).
- Huntington, Samuel P. 'The Clash of Civilizations?' (Foreign Affairs, 72(3), July/August 1993, pp. 22 .49).
- Index on Censorship. 'Squeeze on Democracy' (Index on Censorship, 31(1), January 2002).
- Jennings, Francis. The Invasion of America (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1975).
- Johansen, Bruce E. Debating Democracy: Native American Legacy of Freedom (Santa Fe: Clear Light Publishers, 1998).
- Johnson, Chalmers. Blowback: the costs and consequences of American Empire (New York: Owl Books, 2000).
- Kennedy, Paul. Preparing for the Twenty - First Century (London: HarperCollins, 1993).
- Kolakowski, Leszek. Modernity on Endless Trial (Chicago: University of Chicago Press, 1990).
- Kothari, Smitu and Harsh Sethi, eds. Rethinking Human Rights (New York: New Horizon Press, 1989).

- Lapham, Lewis. Waiting for the Barbarians (London: Verso, 1997).
- Lawrence, Bruce B. Shattering the Myth: Islam Beyond Violence (Princeton: Princeton University Press, 1998).
- Lazare, Daniel. The Frozen Republic: How the Constitution is Paralyzing Democracy (New York: Harcourt and Brace, 1996).
- Lee, Rpbert. Orientalism (Philadelphia: Temple University Press, 1999).
- London Review Of Books. '11 September . Some LRB writers reflect on the reasons and consequences' (London Review of Books, 23(19), 4 October 2001, pp. 20 . 5).
- Lyons, Oren et al. Exiled in the Land of Free (Santa Fe: Clear Light Publishers, 1992).
- Marchetti, Gina. Romance and the 'Yellow Peril' (Berkeley: University of California Press, 1993).
- Mazower, Mark. Dark Continent: Europe's Twentieth Century (London: Allen Lane, 1998).
- Mesrtovic, Stjepan. The Barbarian Temperament (London: Routledge, 1993).
- Moore, Michael. Stupid White Men (New York: Regan Books, 2001).
- Muzaffar, Chandra. Human Rights and the New World Order (Penang: Just World Trust, 1993)
- Nandy, Ashis. Traditions, Tyrannies and Utopias: Essays in Politics of Awareness (Delhi: Oxford University Press, 1987).

- Nandy, Ashis. ed. Science, Hegemony and Violence (Delhi: Oxford University Press, 1988).
- Nederveen, Jan and Bhiku Parekh, eds. The Decolonization of Imagination: Culture, Knowledge and Power (London: Zed Books, 1995).
- Norgaard, Richard B. Development Betrayed (London: Routledge, 1994).
- Pemberton, Jo . Anne. Global Metaphors (London: Pluto Press, 2001).
- Rieff, David. Slaughterhouse: Bosnia and the Failure of the West (London: Vintage, 1995).
- Ritzer, George. The McDonaldization of Society (Thousand Oaks, CA: Pine Oak Press, 1993).
- Said, Edward. Orientalism (London: Routledge and Kegan Paul, 1978).
- Sardar, Ziauddin and Merryl Wyn Davies. Distorted Imagination: Lessons from the Rushdie Affair (London: Grey Seal, 1990).
- Sardar, Ziauddin, Merryl Wyn Davies and Ashis Nandy. Barbaric Others: A Manifesto on Western Racism (London: Pluto Press, 1993).
- Sardar, Ziauddin. Postmodernism and and the Other (London: Pluto Press, 1998).
- Sardar, Ziauddin, ed. Rescuing All Our Futures (Westport, CT: Praeger Publishers, 1998).
- Sardar, Ziauddin. Orientalism (Buckingham: Open University Press, 1999).
- Sardar, Ziauddin. The A to Z of Postmodern Life (London: Vision, 2002).

- Schlesinger Jr, Arthur M. The Disuniting of America: Reflections on a Multicultural Society (New York: Whittle Books, 1998).
- Schlosser, Eric. Fast Food Nation (London: Allen Lane, 2002).
- Seabrook, Jeremy. Victims of Development: Resistance and Alternatives (London: Verso, 1993).
- Shaheen, Jack. The TV Arab (Bowling Green OH: State University Popular Culture Press, 1985).
- Shaheen, Jack. 'Hollywood Arab' (Journal of Popular Film and Television, 14(4), 1987, pp. 148 57).
- Shintaro, Ishihara. The Japan That Can Say No (New York: Simon and Schuster, 1991).
- Shohat, Ella and Robert Stam. Unthinking Eurocentrism (London: Routledge, 1994).
- Slotkin, Richard. Regeneration Through Violence: The Mythology of the American Frontier 1600 - 1860 (Middletown, CT: Wesleyan University Press, 1973).
- Slotkin, Richard. The Fatal Environment: The Myth of Frontier in the Age of Industrialization 1800 - 1890 (Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1998).
- Slotkin, Richard. Gunfighter Nation: The Myth of Frontier in Twentieth Century America

(Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1998).

- Stinnet, Robert B. Day of Deceit: The Truth About FDR and Pearl Harbor (New York: Touchstone Books, 2001).
- Stivers, Richard. The Culture of Cynicism (Oxford: Blackwell, 1994).
- Swift, Richard. The No - Nonsense Guide to Democracy (London: Verso, 2002).
- Tester, Keith. The Inhuman Condition (London: Routledge, 1995).
- Tomlinson, John. Cultural Imperialism (London: Pinter, 1991).
- Vidal, Gore. The Decline and Fall of the American Empire (Chicago: Odonian Press, 2000).
- Wilkins, David E. American Indian Sovereignty and the US Supreme Court: The Masking of Justice (Austin: University of Texas Press, 1997).
- Wollen, Peter. 'Cinema/Americanism/The Robot', in James Naremore and Patrick Brantlinger, eds. Modernity and Mass Culture (Bloomington: Indiana University Press, 1991).
- World Bank. Adjustment in Africa (Oxford: Oxford University Press, 1994).
- Zizek, Slavoj. The Sublime Object of Desire (London: Verso, 1989).

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

«كتاب يضم معلومات قيمة ورؤى متبصرة يجب علينا جميعاً معرفتها، من أجل صالحنا، وصالح العالم».

نعوم تشومسكي

«مؤلف متخم بالحجج المنطقية المحكمة».

«ملحق التعليم العالي - التايمز»

«كتاب أصيل ويحفز على التفكير»

مجلة «نيو ستيتسمان»

كتاب قراءته ملزمة

جريدة الإندبندنت

ضياء الدين سردار وميريل وين ديفيز، يقدمان تحليلاً معرفياً عميقاً راشحاً بالتفكير الحصيف لهذه الكراهية ضمن سياق إدراك أمريكا لذاتها، وإسهاماً منها في الجدل الذي ينبغي أن ينخرط فيه كل البشر من كافة الأمم، والثقافات، والديانات، والمذاهب السياسية.

ISBN: 5-705-40-9960
600-2005-1025

موضوع الكتاب: الولايات المتحدة/ العلاقات الخارجية
موقعنا على الانترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com